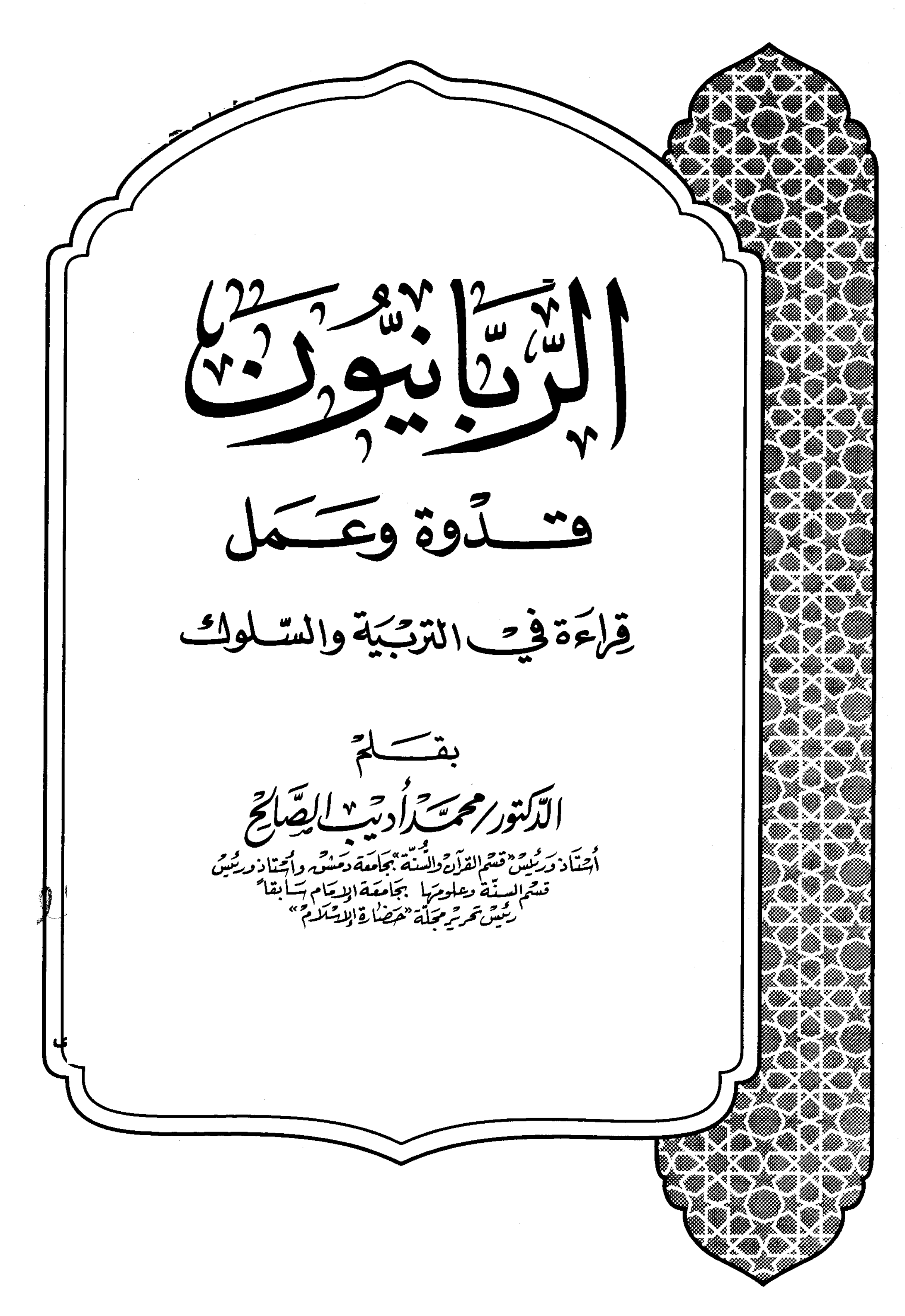


الرَّبَّانِيُّون

قدوة وعمل

قراءة في التربية والسّلوك

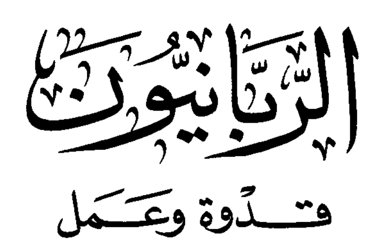
بقلم

الدكتور/ محمّد أديب الصّالح

أستاذ ورئيس "قسم القرآن والسُّنّة" بجامعة دمشق وأستاذ ورئيس قسم السنّة وعلومها بجامعة الإمام سابقاً

رئيس تحرير مجلّة "حضارة الإسلام"


بسم الله الرحمن الرحيم
﴿وقل رب زدني علما﴾


الربانيون
قدوة وعمل

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

دار الوطن للنشر الرياض - المملكة العربية السعودية
هاتف : ٤٧٩٢٠٤٢ - فاكس : ٤٧٢٣٩٤١ - ص.ب : ٣٣١٠ - الرمز البريدي : ١١٤٧١

- البريد الالكتروني : pop@dar-alwatan.com
- موقعنا على الانترنت : www.dar-alwatan.com
- التوزيع بجمهورية مصر العربية ت : ٠١٠١٤٦٠٨٦١ محمول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت وهو شديد المحال، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، قوله الحق، وهداه هو الهدى، أحد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

والحمد لله الذي بيده ملكوت السموات والأرض، وهو يجير ولا يجار عليه، يقلِّب الليل والنهار، ويعلم متقلَّب عباده ومثواهم، سبحانه من إله عزيز حكيم، عليٍّ عظيم، سبقت رحمته غضبه، وذلت لعزته الرقاب، وسجد له ما في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالُهم بالغدو والآصال، بيده الخير كلُّه، وإليه يرجع الأمر كلُّه، لا مبدِّل لكلماته، ولن تجد من دونه ملتحداً.

وصلى الله وسلم وبارك ـ ما اختلف الليل والنهار ـ على معلِّم الناس الخير سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله الذي أنقذنا الله به من الهلكة، وأخرجنا من الظلمات إلى النور، وجعلنا في خير أمة أخرجت للناس: كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون. وصلى عليه في الأولين والآخرين أفضل وأكثر وأزكى ما صلَّى على أحد من خلقه، وزكَّانا وإياكم بالصلاة عليه أفضل ما زكَّى أحداً من أمته بصلاته عليه،

والسلام عليه ورحمته وبركاته[١]، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الكرام المجاهدين، الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، ومن تبعهم بإحسان، واقتفى أثرهم الطيب المبارك، إلى اليوم الذي لا ريب فيه، يوم الوعد الحق، والوقت المعلوم.

أما بعد: فما أحسب أن امرءاً أوتي حظًّا من نور البصيرة، والإحساس بواقع الأمة يماري في أن حياة العالم الرباني ـ وهو المنسوب إلى الرب تبارك وتعالى، الكامل في العلم والعمل، الشديد التمسك بطاعة الله عز وجل وتقواه، المشرقُ قلبه بخشيته، الحريصُ على تعليم الناس وتزكية نفوسهم، وتربيتهم على ما فيه خيرُهم وصلاحُ أمرهم في الدين والدنيا والآخرة، والقدوةُ بسلوكه المتميز ـ ما أحسبه يماري في أن هذه الحياة الحافلة بالخير، معلمٌ من معالم البناء الحضاري القوي المشرق في حياة الأمة. لما أنه مصدر عطاء صادق النسب إلى الهدي المحمدي في كتاب الله والسنة المطهرة، ثم ما يكون من فهوم أئمة الهدى ونهجهم القويم عليهم الرحمة والرضوان، كما أنه ترجمان عملي لحقائق الإسلام، وأخذ النفس بالهدي المحمدي، وبهذا يكون هذا العلَم القدوة أمانة في أعناق من أكرمهم الله بالانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس، **وبخاصة أولئك المؤتمنين على نشر العلم النافع، والتنهيج لتزكية النفوس، وتربيتها على الفكر الموالي لله**

---

١) اقتباس من كلام الإمام الشافعي في «الرسالة».

ولرسوله وللمؤمنين، وإعداد المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ إعداداً متكاملاً، يضمن استقامته في خاصة نفسه، وقدرته ـ بعون الله ـ على مواجهة التحديات ـ وما أكثرها ـ والإسهام في كل ما يعود على الأمة بالاعتصام بحبل الله المتين، والتمكين لكلمة الله في العالمين، على اختلاف الألسنة، والألوان، والأقاليم، وتجاوز لحدود الزمان والمكان، وفق منهج إيماني لا تنقصه معرفة الواقع، ولا ينأى عن السنن الكونية لله رب العالمين.

والمتبصِّر في عظيم ما تتركه تزكية النفوس، والعناية بأعمال القلوب، من أولئك البررة الذين يعلِّمون ويربون بالقدوة، كما يربون بالكلمة والوصية والدرس: يشعر بثقل الأمانة المومى إليها كلما تفاقم الغزو المنحرف، وانحسرت هنا وهناك مفاهيم الإسلام الصحيحة ـ أو بعضها ـ عن المجتمع، وصار للمتشككين والمشككين والمتمردين على نصوص الهدى في الكتاب والسنة، كلمة مسموعة على صعيدي التعليم والإعلام.

وفي تقدير لمكانة الرجل الرباني ودوره العظيم في حياة الفرد المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ وجماعة المسلمين: قال محمد بن الحنفية يرحمه الله يوم موت حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ـ وهو من أدرى الناس بغزير علمه ووافر عقله وصالح عمله، وصدعه بالحق، ونصاعة سلوكه الفذِّ ـ: «**اليوم مات رباني هذه الأمة**». ولعل من ربانيته ـ رضي الله عنه ـ ما تحقق له من دعوات الرسول عليه

الصلاة والسلام، بجانب أهليته وما أوتي من استعداد طيب، الأمر الذي يذكر بما كان من عظيم تقدير عمر رضي الله عنه له، وهو من هو خبرةً بالرجال الأقوياء الأمناء، وعرفاناً بفضل أهل الفضل في خير أمة شاء الله لها أن تكون أمة الشهادة على الناس.

وعلى هذا السنن من سلامة التصوُّر، وقدر الرجل الرباني قدره في حياة الأمة وهي تبني الحضارة المثلى، وتضرب في أرض التاريخ، تحقيقاً لعبودية الله في الأرض، وتمكيناً لإنسانية الإنسان: يقول الإمام ابن قيم الجوزية في ضوء قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: «**العالم الرباني: هو الذي لا زيادة على فضله لفاضل، ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد، وقد دخل في الوصف له بأنه ربانيٌّ، وصفُه بالصفات التي يقتضيها العلم لأهله، ويمنع وصفه بما خالفها**».

وبعد هذا الذي ألمحت إليه في هذا الموضوع، وبعضه يكفي في الشهادة على من يوفق لأن يكون في عداد الربانيين وضرورة توظيف الدروس التي يشرق بها سلوك الرجل الرباني القدوة على صعيد التعليم والدرس، وفي ميادين التربية والتزكية، وما لذلك من أثر بالغ في حياة الفرد والجماعة.. **بعد هذا الذي ألمحت إليه: تجدر الإشارة بين يدي التقديم للصفحات التالية: إلى أني شرفت من خلال رحلة عجلى مع المصادر الموثقة باصطحاب كوكبة رفيعة القدر طاهرة السلوك من هؤلاء البررة أحباء الله الربانيين، وكنت كلما ازددت توغلاً في التماس**

العبر والدروس من أخبارهم ومواقفهم، وما كانوا عليه من النُّصح لأنفسهم وللأمة: ازددت يقيناً بأحقية ما حملت الأسطر القريبة من القيل في هذا الشأن، وأن هؤلاء العلماء العاملين المجاهدين: أجْدر بهم أن يكونوا معالم في طريق الأمة، بما أوتوا من نافع العلم رواية ودراية وفقهاً في دين الله، وما رزقوا من خشية المولى جل شأنه وتقواه، والإقبال مخلصين على العمل بما علموا. ثم ما حازوا من قصب السبق في ميدان القدوة على أصعدة الدرس والتعلم، والتربية والتزكية والجهاد في سبيل الله.

أضف إلى ذلك ما يصحب هذه الفضائل مجتمعة: من مخالطة الناس في المجتمع، ريادة وقيادةً، وقياماً بواجب النصح للأمة بالأسلوب الحكيم المنتج، وإسهاماً بالعمل على تحقيق ما يضمن لها الخير والتمكين في دينها ودنياها. حتى إنك لترى في الواحد منهم الترجمان العملي لقيم الإسلام وأخلاقه وآدابه، الأمر الذي يذكِّر بقول عائشة رضي الله عنها في شأن الخليفة الثاني رضي الله عنه: «**كان عمر قرآناً ناطقاً**».

والحق أن هذا الذي نقول في هؤلاء النبغة الأبرار: كما يُشرق في أرجائه نور قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ يبدو لوناً كريماً من ألوان التأسي بالنبي عليه الصلاة والسلام فيما كان يقوم به ـ جزاه الله خير ما جزى نبيًّا عن أمته ـ من العمل بما يمليه العديد من الآيات الكريمات ومنها قوله تعالى: ﴿هُوَ

﴿ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1] .

ولعل من الخير أن أشير إلى أني قد بذلت الجهد ـ مستعيناً بالله ـ في درس الأخبار والأقوال، والوقائع، وما إليها من مظاهر التصرف والسلوك، وتحليلها على النحو الذي يضع الأيدي على مواطن الانتفاع بالكلمة والقدوة والتأسي، حرصاً على أن تكون الوصلة قائمة بين الماضي والحاضر؛ خصوصاً وأن الطارئ المؤذي ينصبُّ على الأجيال الحاضرة انصباباً يكاد يكون من كل صوب.

وما أحسن أن يرتاد المؤتمنون على الدرس والتعليم والتزكية طرائق اتصال الأجيال بالنماذج العملية في التطبيق، وراء ما يلقنون من الأفكار النافعة المسطورة في الكتب.

وغير خاف أن جوانب النفع في شخصية الرجل الرباني كثيرة وفيرة، خصوصاً إذا لاحظنا التكامل في تلك الشخصية ـ وهذا ما حرصت على إبرازه ـ بحيث تشهد من خلال إسهام الرباني في حركة الحياة الإسلامية من نقاء العقل، وصفاء القلب والمنهجية الرائعة في أخذ العلم من مظانه في الرجال، وأدائه إلى الآخرين. ناهيك عن السير في مدارج أهل القرب من الله، الذين يجمعون الخير من أطرافه فيتحقق في سلوكهم ما لا يكون المرء عالماً في العرف الإسلامي إلا به؛ ألا وهو عدم الاقتصار على جمع المعارف، بل أن ينضم إلى العلم العملُ

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢.

وخشية الله وتقواه. مع الأدب والتواضع وانشراح الصدر لما قد يكون من اختلاف الاجتهاد بين العالم وأخيه العالم الآخر.

ويأخذك الاستعظام حين ترى هؤلاء المخلصين المخبتين، وهمُّهم ـ فيما يأخذون وما يذرون ـ مرضاة الله تعالى، وحسن العاقبة يوم الدين، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ولقد حاولت قدر المستطاع: أن يكون خطاب التحليل والدرس للقلب والعقل جميعاً، على محور يستثير الهمم إلى طاعة الله بالعلم والدرس والتعليم والتربية والتزكية، وشد العزائم على طريق الحفاظ على كيان الأمة بسلوك المنهج الرباني الذي كانت به خير أمة أخرجت للناس.

ومع البضاعة المزجاة: حرصت على التوثيق والتخريج، وعزو الأقوال والوقائع والأخبار إلى مصادرها دون توسُّع أو تكلُّف!

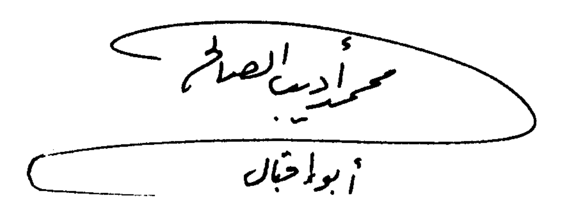
ولا يفوتني أن أنبِّه على أني تركت ترتيب الرجال الذين صحبت أخبارهم على الصورة التي أذيعت في إذاعة القرآن الكريم حيث لم أَعن الأفضلية في تقديم أو تأخير.

والله أسأل أن ينفع بهذه الصفحات القادمات كاتبها وقارئها، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وإني داعيه سبحانه ـ وهو ذو الفضل والإحسان ـ أن يجعل من سيرة هؤلاء الربانيين الذين هم على النبع السلسبيل في هدي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، نبراساً نهتدي به إلى السلوك الأقوم. وأن

يمنَّ علينا ـ وقد ضاقت الحيلة واشتد الكرب وتعاظمت الخطوب ـ بعون لا ينقطع، وسداد لا يُمنُّ، وتوفيق لا يحبس عنا خيره.

برئت إليك ـ سبحانك ـ من كل حول وقوة، فاعصمني مما تكره حيث لا عاصم إلا أنت، وامنن عليَّ بغفر الزلاّت، ومحو الخطيئات، والعون على ما فيه خدمة كتابك الكريم، وسنة نبيك المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



أستاذ ورئيس قسم القرآن والسنة
بجامعة دمشق، ورئيس قسم السنة
وعلومها بجامعة الإمام «سابقاً»
رئيس تحرير مجلة «حضارة الإسلام»
الرياض ١٧/ ١١/ ١٤٢٠هـ

ولكن كونوا ربانيين!!

ـ ١ ـ

إذا ذكر العلماء العاملون، والمربون الناصحون، ودعاة الهداية المخلصون، **أولئك الذين يجمعون إلى العلم النافع والعمل به؛ حرصًا على إصلاح أمور الناس في دينهم ودنياهم، وتعليمهم ما فيه خيرهم وصلاح عاجلهم وآجلهم، وأن يكونوا على المحجة البيضاء**، توحيدًا خالصًا لله تعالى، وأخذًا بشريعته الغراء، النابعة من كتابه الحكيم، وسنة نبيه المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ثم ما كان من فهوم أئمة الهدى الأمناء المستبصرين . . .

إذا ذكر هؤلاء فحيَّهلا بربانيي هذه الأمة، الذين همُّهم هداية الخلق إلى سواء الصراط؛ فتراهم ـ وقد استنارت قلوبهم وعقولهم بحقائق الهدى والخير ـ **يعلِّمون بحكمة وروية، وهم على حال من صدق العزيمة في نصح الآخرين**، والشفقة عليهم مهما كلَّفهم ذلك من متاعب، ولاقوا في سبيله من مصاعب، **ويربُّون ـ جاهدين صابرين ـ بالكلمة النافعة، والقدوة المشرقة المعبِّرة**، والعمل الذي يقدم برهانًا جليًا واضحًا على ما يقولون؛ الأمر الذي يحدث ما يحدث من الفاعلية والتأثير في الفرد والجماعة على مختلف الأصعدة، وفي شتى الميادين!

وأنت واجد بلا ريب أن هذا الذي هو مناط التأسي بهم والانتفاع بصنيعهم، قوامه حركة دائبة يُبتغى بها وجه الله عز وجل، وأن تعتق رقابهم

من النار، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا، وما عملت من سوء تودُّ لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا.

ولو تبصَّرت في أخلاقهم وسلوكهم.. وهم ربانيون يجدُّون ويجتهدون في مرضاة ربهم ظاهرًا وباطنًا، واستنطقت الوقائع بأمانة وصدق، لتبين لك توكيدُ أن هذا واقعهم دونما دعوى أو رياء، وهم لا يفتأون يحمدون مولاهم ويشكرونه على ما وفقهم إليه.

هذا وبين يدي الكلام على ما قاله العلماء في صفة من يستحق أن يقال له: ربَّاني، أودُّ الإشارة إلى أن «الربانيين» ذكروا غير مرة في القرآن الكريم؛ من ذلك قول الله جل شأنه في سورة «آل عمران»: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾[1].

روى محمد بن إسحاق والطبري وغيرهما في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له: الرِّبِّيس ـ أو الرئيس ـ: أوَذاك تريد منا يا محمد؟ وإليه تدعونا! أو كما قال.

فقال رسول الله ﷺ: «**معاذ الله أن نعبد غير الله، أو نأمر بعبادة غيره،**

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧٩.

ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني» أو كما قال، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ . . . ﴾ الآية، إلى قوله: ﴿ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾[١].

وعلى هذا، فالمعنى: ما ينبغي لبشر أن ينزلَ الله عليه كتابه، ويعلِّمَه فصل الحكمة ويعطيه النبوة، ثم يدعو الناس إلى عبادة نفسه دون الله، وقد آتاه الله ما آتاه من الكتاب والحكم والنبوة؛ يقول شيخ المفسرين: «ولكن إذا آتاه الله ذلك، فإنما يدعوهم إلى العلم بالله، ويحدوهم على معرفة شرائع دينه، وأن يكونوا رؤساء في المعرفة بالله وأمره ونهيه، وأئمة في طاعته وعبادته بكونهم معلمي الناس الكتاب، وبكونهم دارسين»[٢].

قال الزجاج: ومعنى الآية: لا يجتمع لرجل نبوة، والقول للناس: كونوا عبادًا لي من دون الله؛ لأن الله لا يصطفي الكذبة[٣].

والحق الذي لا مريـة فيه: أن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ وهم السفراء بين الله وبين خلقه في أداء ما حُمِّلوه من الرسالة وإبلاغ الأمانة ـ قاموا بأداء ما حُمِّلوا من الرسالة، وإبلاغ ما ائتمنوا عليه من الأمانة أتمَّ قيام، ونصحوا الخلق، وبلغوهم الحق، وجاهدوا في الله حق

---

(١) انظر: «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» للإمام الطبري (٦/ ٥٣٩) تحقيق الشاكِرَين، «تفسير القرآن العظيم» للحافظ ابن كثير (٢/ ٥٤).

(٢) انظر: «جامع البيان» (٦/ ٥٣٨)، «الوسيط في تفسير القرآن المجيد» لأبي الحسن علي الواحدي النيسابوري (١/ ٤٥٦).

(٣) انظر: «زاد المسير» لابن الجوزي (١/ ٤١٣).

جهاده حتى أتاهم اليقين[١].

وهكذا يكون من الممتنع بل من المحال لبشر منَّ الله عليه بالوحي والكتاب والنبوة وعلَّمه السنة وفصل الحكمة أن يأمر الناس بعبادته، ولكن يقول هذا الرسول للناس: ﴿ كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾.

والملاحظ هنا: أن القول تُرك ـ والله أعلم ـ قبل ﴿ كُونُواْ ﴾ استغناءً بدلالة الكلام عليه كما يقول الإمام الطبري[٢].

وإذا كان الأمر كذلك: فأين هذه القولة المشرقة الهادية: ﴿ كُونُواْ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ ﴾ من تلك القولة المظلمة العاتية المحال وقوعها من الرسول، وهي: ﴿ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، نعم أين هذه من تلك؟! وسبحان من أنزل على عبده محمد ﷺ الفرقان ولم يجعل له عوجًا.

ولا يخفى أن هذه المقابلةَ بين المقولتين كما جاءت في الأسلوب القرآني المعجز: **بالغة الدلالة على عظم موقع الربانيين في ذوات أنفسهم، وفي إصلاح شؤون الأمة، ورفعة قدرهم عند رب العالمين**، وعند من آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة، وسيدُهم وخاتمُهم نبيُّنا محمد صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين.

---

(١) انظر: المصدر السابق (٦/ ٥٤٠)، «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٥٥)، «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١/ ٣٩٥).

(٢) «جامع البيان» (٦/ ٥٤٠)، وانظر: «الوسيط في تفسير القرآن المجيد» للواحدي (١/ ٤٥٦)، «زاد المسير» لابن الجوزي (١/ ٤١٣).

ذلك بأن العالم الرباني ـ كما يقول الإمام ابن القيم ـ **هو الذي لا زيادة على فضله لفاضل، ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد،** وقد دخل في الوصف له بأنه ربانيٌّ وصفُه بالصفات التي يقتضيها العلم لأهله، ويمنعُ وصفَه بما خالفها[١].

وإذا نظرنا في أقوال أهل التفسير التي يأتي ذكرها فيما بعد إن شاء الله، وجدنا فيها القول بأن الربانيّ منسوب إلى الربِّ، وهو الله سبحانه وتعالى، كما في قولنا: إلهيٌّ، والألف والنون فيه زائدتان في النسب للمبالغة، كما يقال لكثير الشعر طويله: شعْراني، فإذا أُريدت النسبة من غير مبالغة قيل: شعْري، هذا معنى قول سيبويه.

والمقصود أنه الكامل في العلم والعمل، الشديد التمسك بطاعة الله عز وجل وتقواه، الحريص على تعليم الناس وتربيتهم على ما فيه خيرهم وصلاح أمرهم في الدين والدنيا والآخرة[٢].

وقد جاء التعبير عن ذلك بقوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩﴾، أي بسبب مثابرتكم على تعليم الكتاب ودراسته، أي قراءته على الوجه الذي ينبغي، وقد فهمت المثابرة من جعل خبر كان في ﴿كُنتُمْ﴾ مضارعًا وهو ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ حيث أفاد ذلك

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٤٠٥) تحقيق الشيخ علي الحلبي الأثري.

(٢) انظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٤/ ١٢٢)، «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٠٥، ٤١٠)، «إرشاد العقل السليم» لأبي السعود (١/ ٥٠٥)، «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» لأحمد بن يوسف المعروف بـ «السمين الحلبي» (٣/ ٢٧٥) تحقيق الدكتور أحمد الخراط.

الاستمرار المتجدِّد.

ومن سمو الأسلوب القرآني المعجز ما نرى من تكرار ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾؛ إذ قال تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وجاء العطف بقوله: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾، وفي ذلك إيذان باستقلال كل من استمرار التعليم ـ كما يقول العلامة أبو السعود ـ واستمرار القراءة بالفضل وتحصيل الربانية[1].

وقرئ «تَعلمون» بمعنى عالمين، و«تُدَرِّسون» من التدريس، كما قرىء «تُدرسون» من الإدراس، بمعنى التدريس، كأكرم بمعنى كرُم.

هذا، وقد قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو «تَعْلَمون» وباقي السبعة ﴿تُعَلِّمُونَ﴾، ورجح جماعة قراءة ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بالتشديد على قراءة «تعملون» بالتخفيف بأنها أبلغ، وذلك أن كل معلِّم ـ كما يقولون ـ عالم، وليس كل عالم معلِّمًا، فالوصف بالتعليم أبلغ، وبأن قبله ذكرَ الربانيين، والرباني يقتضي أن يعْلَمَ ويُعَلِّم غيره، لا أن يقتصر بالعلم على نفسه. ورجح بعضهم قراءة ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بأنه لم يذكر إلا مفعول واحد، والأصل عدم الحذف، ولأنها أوفق لـ«تَدْرسون»[2].

ومهما يكن من أمر: فإن ترجيح إحدى القراءتين على الأخرى مع كونهما في غاية الصحة ومتقاربتي المعنى: مراد به هنا المزيد من تبيين

---

(١) انظر: «إرشاد العقل السليم» (١/ ٥٠٥، ٥٠٦).

(٢) انظر: «الدر المصون» (٣/ ٢٧٧)، وانظر: «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» لابن عطية (٣/ ١٩١، ١٩٢).

الدلالة على مقومات الربانية، والصفات التي ترقى بالمرء لأن يكون في زمرة الربانيين.

وبعدُ: فما أعظم ما يُرى من فقه التابعي الجليل محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه المشهور بـ «محمد بن الحنفية» لأبعاد قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩﴾ ومعرفته بأقدار الرجال حين قال يوم وافت المنية حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «مات اليوم رباني هذه الأمة»[1].

وغير خافٍ ما كان عليه هذا الصحابي البحر من سعة العلم ووفرة العقل وصدق التأله والتعبد والحرص على نشر العلم النافع والإسهام المتميز في بقاء التمكين للأمة وتدبير شؤونها على نهج يضمن لها الخير في دينها ودنياها، ولعل من ربانيته ما تحقق له بفضل الله من دعوات الرسول عليه الصلاة والسلام.

* * *

---

(١) انظر «الكشاف» للزمخشري: (١/ ١٩٨).

ولكن كونوا ربَّانيين

ـ ٢ ـ

في حديث موصول بالإشارة إلى واحد من أقوال العلماء المتعددة في صفة من يستحق أن يقال له: رباني، وهو أن الربانيَّ منسوب إلى الرب سبحانه وتعالى، وزيدت الألف والنون مبالغة في هذه النسبة، كما قالوا: رجل شعراني إذا بالغوا في وصفه بكثرة الشعر وطوله.. في حديث موصول بذلك: تجدر الإشارة إلى أن علماءنا لم يألوا جهدًا في البيان عن هذا القول، والكشف عن وثيق علاقته بقول الله جل شأنه: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩ ﴾.

ها نحن أولاء نجد عند صاحب «الكشاف» عند الكلام على قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ «ولكن يقول: ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾، والرباني المنسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون كما يقال: رقباني ولحياني، وهو الشديد التمسك بدين الله وطاعته.

وعن محمد بن الحنفية أنه قال حين مات ابن عباس: اليوم مات رباني هذه الأمة، وعن الحسن: ربانيين: علماءَ فقهاءَ، وقيل: علماءَ معلمين، وكانوا يقولون: الشارع: الربانيُّ العالم العامل المعلِّم»[1].

وحول قول الله جل وعلا: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ

---

(١) انظر: «الكشاف» (١/ ١٩٨)، «القاموس المحيط»، مادة (شرع).

تَدْرُسُونَ﴾ نجد «﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ بسبب ما كنتم عالمين، وبسبب كونكم دارسين للعلم، أوجب أن تكون الربانية التي هي قوة التمسك بطاعة الله تعالى مسبَّبة عن العلم والدراسة، وكفى به دليلاً على خيبة سعي من جَهَد نفسه، وكدَّ روحه في جمع العلم، ثم لم يجعله ذريعة إلى العمل؛ فكان مثَلُه مثَلَ من غرس شجرة حسناء تومقه بمنظرها، ولا تنفعه بثمرها. وجرى التنبيه على أن قراءة «تُعلِّمون» من التعليم وقراءة «تعلمون» من التعلُّم»[1].

وقد أشرت فيما سبق من القول إلى محاولة العلماء الاهتداء باختلاف القراءة في هذه الكلمة إلى الأبعاد التي تشرق بها الآية الكريمة، حيث تبدو الربانية هي المحور المبارك للكلمة الهادية فيها.

وقل مثل ذلك في اختلاف القراءة في ﴿تَدْرُسُونَ ۝٧٩﴾ فهي بالتخفيف من القراءة، أي تقرؤون، وبتشديد الراء «تُدَرِّسون» من التدريس، كما يجوز أن يكون معنى ﴿تَدْرُسُونَ ۝٧٩﴾ بالتخفيف: تدرسونه على الناس كما في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦﴾[2]، فيكون المعنى: تدرِّسون من التدريس.

وفي هذا التنصيص على العلم والتعليم والدرس والتدريس للكتاب، وبيان أن الرباني إنما يكون ربانيًا بهذا السبب المكين: توكيد لوجوب العمل بالعلم، وطاعةِ الله تعالى ومراقبته في درسه وتربية الناس على حقائقه الهادية إلى ما فيه خير الدنيا والدين، والنجاة من عذاب الله يوم يقوم الأشهاد

---

(١) «الكشاف»: (١/ ١٩٨).
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٠٦.

ولا يسأل حميم حميمًا .

وعندما يرقى العالم إلى هذه المنزلة تكلؤه العناية الربانية، ويكون في علمه وعمله وتربيته على نور من ربه، صحيح النسبة إلى مولاه رب العالمين، وهذه سبيله لأن يكون ـ بفضل الله ـ ربانيًا يربي بالكلمة والعمل والقدوة، وفي ذلك ما فيه من الخير له، ولمن يقوم بتعليمهم وتربيتهم على هذا النهج الحكيم الذي تظلُّه الربانية في سموِّها ونفاذها في كل ميدان .

وحاجة الأمة متجددة إلى ذلك دائمًا، الأمر الذي يوجب الإعداد المنهجي القويم .

أما من أعرض عن هذا النهج الذي رسمه القرآن في توثيق الصلة بين طاعة الله بالعمل بالعلم وتربية الناس على ذلك، وبين استحقاق أن يكون العالم الدارس من الربانيين : فقد باء بالخسران وانقطاع النسبة بينه وبين ربه ربِّ كل شيء ومليكه أرحم الراحمين .

جاء في «الكشاف» في معرض الاستنباط من الآية : «وفيه أن من علم ودرَّس العلم ولم يعمل به فليس من الله في شيء، وأن السبب بينه وبين ربه منقطع ؛ حيث لم يثبت النسبة إليه إلا للمتمسكين بطاعته»[١] .

وفي شأن هذا التمسُّك الذي يكون مرقاة صاحبه إلى مرتبة الربانيين، يطَالعنا ما نقل العلامة القاسمي في كتابه «محاسن التأويل» عن المفسِّر القاشاني إذ يقول : «﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ أي منسوبين إلى الرب لاستيلاء

---

(١) انظر : «الكشاف» (١/ ١٩٨) .

الربوبية عليهم، وطمس البشرية بسبب كونهم عالمين عاملين معلمين تالين لكتب الله، أي كونوا عابدين مرتاضين بالعلم والعمل والمواظبة على الطاعات، حتى تصيروا ربانيين بغلبة النور على الظلمة»[١].

وفي خطوة أخرى على ساحة التفسير لنسبة الرباني إلى الرب سبحانه، وأن الألف والنون زيدتا للمبالغة في هذه النسبة؛ نقع على ما يفهم منه أن النسبة كائنة لعلم الرب جل شأنه، وأن الزيادة المومى إليها حصلت لهذا التخصيص. جاء في «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» للعلامة السمين الحلبي: «وقال سيبويه: زادوا ألفًا ونونًا في الرباني، إذا أرادوا تخصيصًا بعلم الرب دون غيره من العلوم، وهذا كما قالوا: شعراني، ولِحياني، ورقباني»[٢].

والذي عند الإمام ابن القيم في «مفتاح دار السعادة»: «قال سيبويه: زادوا ألفًا ونونًا في الرباني إذا أرادوا تخصيصًا بعلم الرب تبارك وتعالى، كما قالوا: شَعْراني ولحياني»[٣].

ثم قال ابن القيم: «معنى قول سيبويه ـ رحمه الله ـ أن هذا العالم لما نُسب إلى علم الرب تعالى الذي بعث به رسوله وتخصَّص به نُسب إليه دون سائر من علم علمًا»[٤]، ثم نقل قول الواحدي في كتابه: «التفسير الوسيط»: «فالربانيُّ على قوله ـ يعني سيبويه ـ منسوب إلى الرب على

---

(١) انظر: «محاسن التأويل» للقاسمي (٤/ ٨٧٣).
(٢) «الدر المصون» (٣/ ٢٧٦).
(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤١٠).
(٤) المصدر السابق (١/ ٤١٠).

معنى التخصيص بعلم الرب، أي يُعلِّم الشريعة وصفات الرب تبارك وتعالى»[١].

ولا نعدم أن نجد ما هو قريب من هذا، ولكن مع توجيه إلى علو الهمة في متابعة طريق الرب سبحانه الذي جاء في تنزيله الحكيم، وسنة نبيه المصطفى عليه الصلاة والسلام؛ ففي أعقاب الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

نجد عند العلامة البقاعي في «نظم الدرر»: «ولما ذكر ما لا يكون له أتبعه ماله فقال: ﴿وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ أي يقول: كونوا ربانيين، أي تابعين طريق الرب منسوبين إليه بكمال العلم المزيَّن بالعمل.

والألف والنون زيدتا للإيذان بمبالغتهم في العلم ورسوخهم في العلم اللدني، **فإن الربانيَّ هو الشديد التمسك بدين الله سبحانه وتعالى وطاعته**.

وبعد أن استشهد لشدة التمسك هذه والطاعة بكلمة محمد بن الحنفية يوم مات الصحابي البحر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «اليوم مات رباني هذه الأمة»، قال رحمه الله: «﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي بسبب كونكم عالمين بالكتاب معلمين له، ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩﴾ فإن فائدة الدرس العلم، وفائدة العلم العمل، ومنه الحث على الخير والمراقبة للخالق»[٢].

---

(١) «التفسير الوسيط» للواحدي (١/ ٤٥٦).
(٢) «نظم الدرر» للبقاعي (٤/ ٤٦٨).

وللزجاج رحمه الله كلمات عذاب حول ما نحن بصدده من قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ الآية، لا غنى عن إيرادها، وهي قوله: «ومعنى الكلام: ليكن هديُكم ونيتكم في التعليم هديَ العلماء والحكماء؛ لأن العالم إنما يستحق هذا الاسم إذا عمل بعلمه»[١].

* * *

(١) انظر: «زاد المسير» لابن الجوزي (١/ ٤١٤).

ولكن كونوا ربانيين

ـ ٣ ـ

التصور الصحيح لمنزلة الرباني ورسوخه في العلم والعمل والتربية، وما لذلك من أثر في حياة الأمة، أوحى إلى العلماء وهم يتأولون قوله تعالى في سورة آل عمران ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ أوحى إليهم مزيدًا من التبصر في الكلمات الهاديات المنيرات وعطائها على ساحة النسبة في كلمة «الرباني»، والصفات التي لابد من توافرها، كيما يبلغ رائد الصلاح والإصلاح في المجتمع الإسلامي منزلة الربانيين.

ولم يقتصر الأمر في ذلك على عصر دون عصر، وقد رأينا فيما سبق من القول نثارات من الضياء عند علمائنا السابقين الذين ذهبوا إلى أن النسبة في كلمة «الرباني» كائنة إلى الرب سبحانه وتعالى أو إلى علمه وشدة التمسك بدينه الذي شرحه للعباد.

ونحن اليوم على موعد مع كلمات معاصرة في تفسير الآية تؤكد ما ذهب إليه بعض من سبق يرحمهم الله، ولكن بمزيد من تعليل العلاقة بين العلم والربانية، وضرورة التقيُّد بوجوب العمل بالعلم في ظل التوجه الخالص إلى الله تبارك وتعالى بعيدًا عن الشوائب، وتوكيدِ أن العمل الصحيح لا يكون إلا بالعلم الصحيح؛ فإذا توافر للعالم بالمعنى الصحيح العمل بالعلم وشدة التمسك بالدين، والحرصُ على نفع الأمة بالتربية

والتدريس وفق النهج الرباني، كان ذلك السلَّم المبارك الذي يرقى بهذا العالم العامل إلى درجة الربانية والقرب من الله عز وجل.

هذا صاحب «تفسير القرآن الكريم» الشهير بـ «المنار» يطالعنا ـ رحمه الله ـ وهو ينظر في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ بقوله هناك: «أي ولكن يأمرهم النبي الذي أوتي الكتاب والحكم والنبوة بأن يكونوا منسوبين إلى الرب مباشرة من غير توسطه هو، ولا التوسُّل بشخصه، وإنما يهديهم إلى الوسيلة الحقيقية الموصلة إلى ذلك، وهي تعليم الكتاب ودراسته؛ فبعلم الكتاب وتعليمه والعمل به يكون الإنسان ربانيًا مرضيًا عند الله تعالى؛ فالكتاب هو واسطة القرب من الله تعالى، والرسول هو الواسطة المبلغة للكتاب، كما قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[1]»[2].

وتسلمنا هذه السطور إلى قول الشيخ محمد عبده غفر الله له: «أفادت الآية أن الإنسان يكون ربانيًا بعلم الكتاب ودرسه، وبتعليمه للناس ونشره؛ **ومن المقرر أن التقرب إلى الله تعالى لا يكون إلا بالعمل بالعلم، والعلم الذي لا يبعث على العمل لا يعد علمًا صحيحًا؛ لأن العلم الصحيح ما كان صفة للعالم، وملكة راسخة في نفسه، وإنما الأعمال آثار الصفات والملكات، والمعلِّم يعبر عما رسخ في نفسه**، ومن لم يحصِّل من علم الكتاب إلا صورًا وتخيُّلات تلوح في الذهن، ولا تستقر في النفس لا يمكن

---

(١) جزء من قوله تعالى في سورة الشورى، الآية ٤٨: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾.

(٢) انظر: «تفسير القرآن الحكيم» الشهير بـ «المنار» (٣/ ٣٤٨).

أن يكون معلمًا له يُفيض العلم على غيره، كما أنه لا يكون عاملاً به على وجهه كما ثبت بالمشاهدة»[١].

والمراد ـ كما يقول صاحب التفسير ـ: أن العلم لما كان يستلزم العمل، استغنى بذكره عن التصريح بالعمل، كما يستغني عن ذكر العلم عندما يعلَّق الجزاء على العمل؛ لأن العمل الصحيح لا يكون إلا عن العلم الصحيح؛ فتارة يُذكر الملزوم، وتارة يُذكر اللازم، ولكل مقام مقال[٢].

والحق أن هدي الكتاب العزيز في هذه القضية التي تقوم على توثيق الارتباط بين العلم والعمل والإخلاص في تعليم الناس الكتاب وتربيتهم على منهجه القويم، وبين الظفر بأن يكون الرجل من الربانيين: كان عظيم الأثر في العالم الإسلامي عبر العصور على اختلاف الأقاليم والبقاع، وقد عمل عمله فيمن أنار الله عقولهم وقلوبهم بالعلم النافع للأمة في دينها ودنياها، وبصائرهم في وضع الأمور مواضعها والإخلاص فيها، حتى إنك لترى طريق الربانية ممهدًا ـ بتوفيق الله ـ لهؤلاء العلماء العاملين الأبرار في نور الكلمة الهادية في التنزيل الحكيم، وسنة المصطفى وسيرته المطهرة، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

يحدثنا القاضي عياض اليحصبي المتوفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة في كتابه القيِّم «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» عن أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن النفَزي الذي كان يسكن القيروان، والمتوفى سنة ٣٨٦هـ،

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٣٤٨).
(٢) المصدر السابق (٣/ ٣٤٨).

فيضعنا أمام طاقة فاعلة من الخير جمعت كل العناصر المؤثرة، على طريقٍ سَداها ولُحمتها العلم والعمل والصلاح والتقوى، والحرص على نفع المسلمين، مع الزهادة في الدنيا، وشدة الخوف ليوم الحساب. والنفَزي نسبة إلى نفْزة مدينة بالمغرب بالأندلس. قال ياقوت الحموي في «معجم البلدان»: ينسب إليها أبو محمد عبد الله بن أبي زيد الفقيه النفزي، أحد الأئمة على مذهب مالك وله تصانيف[١].

بلغ أبو محمد من العلم مبلغ أن يقول فيه الشيرازي: **كان يعرف بمالك الصغير؛ إذ كان إمام المالكية في وقته وقدوتهم، وجامع المذهب، وشارح أقواله، وكان واسع العلم كثير الحفظ والرواية، وقَّافًا عند الدليل، منصفًا رجَّاعًا إلى الحق تحت سلطان النصوص الهادية في الكتاب والسنة، بصيرًا بالرد على أهل الأهواء والمبتدعين**، ويجمع إلى ذلك مثابرته على نشر العلم النافع، وتربية الناس على هدي الشريعة، ومكارم الأخلاق والصبرَ على ذلك. قال أبو عبد الله الميورقي: اجتمع فيه العلم والورع والفضل والعقل، شهرته تغني عن ذكره[٢].

من مؤلفاته الكثيرة: كتاب النوادر والزيادات على المدونة، مشهور، وكتاب مختصر المدونة مشهور، وعلى كتابيه هذين ـ كما يقول القاضي ـ المعول بالمغرب في التفقه، وكتاب الاقتداء بأهل السنة، وكتاب الثقة بالله، والتوكل على الله.

---

(١) «معجم البلدان» (٥/ ٢٩٦).

(٢) انظر: «ترتيب المدارك» (٢/ ٤٩٣، ٤٩٤).

وكم هو نافع حقًا على طريق التربية بالقدوة والعمل : **أن لا يُفتقد الأدب والتواضع عند العالم**، وهذا ما نجده عند أبي محمد . قال القاضي عياض : ذكر أنه دخل يومًا على أبي سعيد بن أخي هشام ـ كذا ـ يزوره، فوجد مجلسه محتفلاً؛ فقال له: بلغني عنك أنك ألّفتْ كتبًا. فقال له: نعم، أصلحك الله. فقال له: أسمع مسألة؟ قال له أبو محمد: اذكر أصلحك الله، فإن أصبتُ أخبرتنا، وإن أخطأتُ علّمتنا. فسكت أبو سعيد ولم يعاوده[1] .

وما من ريب في أن أفضل ما يزين العالم الرباني، ومن يتصدَّى ـ على بصيرة ـ للتربية النافعة والإصلاح: خشيةُ الله تبارك وتعالى، ومراقبته في السر والعلن.

وهذا ما قالوه من أن النسبة إلى الرب سبحانه وتعالى في قوله جل شأنه: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ شدة التمسك بالدين القائمة على العلم واستنارة البصيرة؛ فذلكم هو السبب المبارك الذي يُديم صلة العبد بربه الكريم المنان، الذي يعلم السر وأخفى، وهذا ما نجده في سلوك الشيخ أبي محمد رحمه الله، ولا نزكي على الله أحدًا، وكان هذا لونًا من ألوان التوجيه العملي، والتربية بالتأسي والاقتداء.

قال أبو القاسم اللبيدي: اجتمع عيسى بن ثابت العابد بالشيخ أبي محمد، فجرى بينهما بكاء عظيم وذكر لله عز وجل، فلما أراد فراقه، قال له

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٤٩٤).

عيسى: أريد أن تكتب اسمي في البساط الذي تحتك، فإذا رأيتَه دعوتَ لي، فبكى أبو محمد وقال: قال الله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ فهبني دعوت لك، فأين عمل صالح يرفعه؟[(١)].

إنه التكامل في شخصية العالم الرباني، والموفق من وفقه الله، فكان على السبيل المرضية لله عز وجل على حالاته كلها، والحمد لله رب العالمين.



(١) المصدر السابق (٢/ ٤٩٦).

ولكن كونوا ربانيين

ـ ٤ ـ

منهجية البحث العلمي الأمين عند علمائنا ـ أجزل الله مثوبتهم ـ على صعيد النظر في آي التنزيل الحكيم ابتغاء الوصول إلى دلالة النص على المعنى المراد قدر الطاقة، وذلك من أجل البيان والتدبُّر، والعمل والتذكُّر، هذه المنهجية ـ بدقتها وشمولها ـ أسهمت ـ والله أعلم ـ في تعدد الأقوال عند الاجتهاد في تبيُّن معنى الكلمة، أو العبارة، أو الآية فيما لم يفسِّره قرآن ولا حديث؛ خصوصًا وأن الاختلاف في التفسير عند الصحابة والتابعين هو ـ في الأعم الأغلب ـ اختلاف تنوُّع لا اختلاف تضاد، كما بيَّن ذلك بالأدلة شيخ الإسلام ابن تيمية ـ يرحمه الله ـ، وهذه القضية برمتها لا يُنسى معها أمرُ اللغة، وسببُ النزول، واختلافُ القَرأَة في قراءة كلمة ما ـ وقد تكون القراءتان أو القراءات صحيحة كلُّها ـ وغيرُ هذا من سياق وسباق، وما إلى ذلك.

وددت أن تكون هذه الإشارة العجلى، عروة تصلنا مرة أخرى بالكلام على النسبة في كلمة «رباني» التي هي مفرد كلمة «الربانيين»، الواقعة في قول الله تبارك وتعالى في سورة آل عمران: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾، كما تصلنا بالكلام على الصفات التي تمليها هذه الآية في تحقيق هذا النسب العظيم.

وذلك لما لهؤلاء الصفوة في المجتمع المسلم ـ وهم يسهمون في

التمكين للحياة الإسلامية ـ من أثر بالغ الأهمية في البناء المتكامل للفرد والجماعة في شتى الميادين، بدءًا من التربية والتعليم، والإعداد الصالح للإنسان المسلم ذكرًا كان أو أنثى، وانتهاءً بالإسهام المنهجي الحكيم في تدبير شؤون المسلمين في دينهم ودنياهم على النحو الواضح السليم.

وفي ضوء ذلك يقودنا ما رآه بعض العلماء من أن الربانيَّ منسوب إلى الرب سبحانه وتعالى؛ لأن العلم مما يطاع الله به، وأن الألف والنون زيدتا للمبالغة في هذه النسبة جريًا على معهودات العرب في لغتنا العربية المجيدة؛ لأن القرآن قد نزل على معهودات العرب في الخطاب.

يقودنا ذلك إلى قول آخر، قِوامه أن الربانيَّ منسوب إلى الربِّ الذي هو المصدر بمعنى التربية، وهو الذي يَرُبُّ العلم ـ أي يجمعه ويتعلمه ويعلِّمه ـ كالحكيم، قال الراغب الأصفهاني: وقيل: منسوب إليه وهو معناه يَرُبُّ نفسه بالعلم، وكلاهما في التحقيق متلازمان؛ لأن من ربَّ نفسه بالعلم فقد ربَّ العلم، ومن ربَّ العلم فقد ربَّ نفسه به[1].

وجنح إلى ذلك أبو العباس أحمد بن يوسف الحلبي الشافعي، المعروف بـ «السمين»، والمتوفى سنة ست وخمسين وسبعمائة، وهو ما نجده في كتابه «عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ»؛ حيث قال هناك: «**والربانيون جمع رباني، منسوب إلى لفظ الرب بمعنى التربية، وذلك أن العلماء يَربون العلم، أي يصلحونه ويتعلمونه، ثم يَرُبون الناس به فيعلمونهم كما تعلموا، ويصلحونهم كما**

---

(١) «مفردات ألفاظ القرآن» للراغب الأصفهاني ص٣٣٦.

صلحوا هم به، وهم الذين يُربون بصغار العلم قبل كبارها، فهو من لفظ التربية ومعناها»(١).

والملاحظ في كلامه أن يَرُبُّون من الإصلاح والإتمام، والجمع بمعنى يُرَبُّون. قال الجوهري في «الصحاح»: ربَّ فلان ولده يربُّه ربًا، وربَّبه، وتربَّبه بمعنىً، أي: ربَّاه»(٢).

بقي أن نقول: هنالك اتجاه ثالث عمدته أن «الربانيَّ» منسوب إلى الربَّان، وهو ما ذهب إليه المبرد؛ إذ نقل عنه قوله: «الربانيون: أرباب العلم، واحدهم ربَّان من قولهم: ربَّه يربُّه فهو ربَّان إذا دبَّره وأصلحه؛ فمعناه على هذا: يدبرون أمور الناس ويصلحونها، والألف والنون للمبالغة، كما قالوا: ريَّان وعطشان، ثم ضمت إليها ياء النسبة، كما قالوا: لحياني، ورقباني، وجُمَّاني»(٣).

والملاحظ أن كلام المبرد ـ رحمه الله ـ يتسع فيه معنى الربان للتربية والإصلاح مع التعليم، وذلكم هو العمل بالعلم على حقيقته، ومن هنا قال الإمام القرطبي: «فمعنى الرباني: العالم بدين الرب الذي يعمل بعمله؛ لأنه إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم، فالرباني يعمل بالعلم في نفسه، ويعمل به في تعليم الناس وتربيتهم على الخير، ودعوتهم إلى ما فيه

---

(١) ص ١٩٢ منه.

(٢) «الصحاح للجوهري» مادة (ربب) (١/ ١٣٠)، وانظر: «الدر المصون» (٣/ ٢٧٥، ٢٧٦) للسمين الحلبي.

(٣) وانظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٤/ ١٢٢).

المصحلة المرعية في عاجلهم وآجلهم ودنياهم ودينهم»[١] .

والقول بنسبة الرباني إلى الربَّان مع هذا التوسع والشمول في أبعاد الكلمة ومراميها : هو ما ذهب إليه شيخ المفسرين الطبري وأوسعه بيانًا ، وجرى على هذا السنن آخرون من العلماء!

قال أبو جعفر : «وأولى الأقوال عندي بالصواب في «الربانيين» أنهم جمع «رباني» ، وأن الربانيَّ : المنسوبُ إلى الربَّان الذي يربُّ الناس ، وهو الذي يصلح أمورهم ويربُّها ويقوم بها ، ومنه قول علقمة بن العبد :

وكنتُ امرءًا أفضت إليك ربابتي وقبلك ربتني فضِعت رُبُوب

يعني بقوله : «ربَّتْني» : وليَ أمري والقيام به قبلك من يَرُبُّه ويصلحه ، فلم يصلحوه ، ولكنهم أضاعوني فضعت[٢] .

يقال منه : «ربَّ أمري فلان يربُّه وهو رابُّه» فإذا أريد به المبالغة في مدحه قيل : هو ربَّان» . . .

إلى أن يقول : «فإذا كان الأمر كذلك على ما وصفنا : وكان «الربّان» ما ذكرنا ، و«الرباني» هو المنسوب إلى من كان بالصفة التي وصفت ، وكان العالم بالفقه والحكمة من المصلحين يربُّ أمور الناس بتعليمه إياهم الخير ، ودعائهم إلى ما فيه مصلحتهم ، وكان كذلك الحكيم التقي لله ، والوالي الذي يلي أمور الناس على المنهاج الذي وليه المقسطون من

---

(١) المصدر السابق (٤/ ١٢٢)، «الفتوحات الإلهية» لسليمان الجمل (١/ ٢٩١) مع تفسير الجلالين.

(٢) انظر : «جامع البيان في تأويل آي القرآن» (٦/ ٥٤٣).

المصلحين أمور الخلق، بالقيام فيهم بما فيه صلاحُ عاجلهم وآجلهم، وعائدةُ النفع عليهم في دينهم ودنياهم، كانوا جميعًا يستحقون أن يكونوا ممن دخل في قوله عز وجل: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾.

فـ «الربانيون» إذًا هم عماد الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا؛ ولذلك قال مجاهد: «وهم فوق الأحبار»؛ لأن الأحبار هم العلماء، و«الربانيُّ» الجامع إلى العلم والفقه، البصرَ بالسياسة والتدبير، والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دنياهم ودينهم»(١).

هذا، ويسلمنا القول في شأن هذه النسبة في كلمة «رباني» إلى ما ورد في الآثار من صفات من يستحق أن يقال له: رباني، وهي صفات تلتقي مع تعليل النسبة المذكورة من حيث السعه والشمول، فقد روى الطبري بسنده عن أبي رزين مسعود بن مالك الأزدي من عدة طرق: ﴿ كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾ حكماء علماء، وفي رواية له عن الحسن البصري: كونوا فقهاء علماء، وعن مجاهد والسدي: حكماء فقهاء، وعن قتادة: كونوا فقهاء علماء.

وما ذكر من الحكماء الفقهاء، والفقهاء العلماء هو المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن مسعود رضي الله عنه، وسعيد بن جبير، وفي رواية عنه: حكماء أتقياء، كما روى شيخ المفسرين عن ابن زيد: الولاة والأحبار العلماء.

ويرى مجاهد أن الربانيين فوق الأحبار، وهو ما رأيناه في كلام الطبري

---

(١) «جامع البيان» (٦/ ٥٤١ ـ ٥٤٣).

من قريب، وقد استحسنه النحاس.

قال أبو عبيدة: سمعت عالمًا يقول: الرباني العالم بالحلال والحرام، والأمر والنهي، والعارف بأنباء الأمة وما كان وما يكون ـ يعني ما جاء في الأخبار الصادقة ـ والله أعلم[١].

وجاء في «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي: «وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من مؤمن ذكر ولا أنثى، حر ولا مملوك إلا ولله عز وجل عليه حق أن يتعلم من القرآن ويتفقه في دينه**» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ الآية. رواه ابن عباس رضي الله عنهما»[٢].

وجميل قول ابن عطية بعد ذكر عدد من الآثار المتقدمة: «**فجملة ما يقال في الرباني أنه العالم بالرب والشرع، المصيب في التقدير من الأقوال والأفعال** التي يحاولها في الناس»[٣] والله الموفق.

* * *

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» لابن عطية (٣/ ١٩٠، ١٩١)، «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٤/ ١٢٢).

(٢) المصدر السابق (٤/ ١٢٢، ١٢٣).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ١٩١)، «البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي (٢/ ٥٣٠).

ولكن كونوا ربانيين

ـ ٥ ـ

وقفتنا الرحلة السابقة مع الروايات المأثورة عن بعض الصحابة والتابعين وأقوال العلماء الأولين في شأن البيان الجليِّ للنسبة في كلمة «الربانيين»، وصفات من يستحق أن يشمله قول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ . . . وقفتنا هذه الرحلة على مدى الأهمية المعطاة للوقوف على المعنى المراد في هذه الآية الكريمة، ودقة التصور لأبعاد المدلول لكلمة الرباني، وما تتسم به من شمول للتعلم والتعليم، والتربية والتدريس، وسياسة الأمور على منهج سويّ يحمل للناس الخير والرفعة في عاجلهم وآجلهم، ودنياهم ودينهم.

وهذا الأمر الجلل في حياة الأمة جدير بكثير من الجدية في إيجاد هذه النخبة، والعناية الإيمانية المنهجية في إعدادها كيما تؤدي رسالتها على الوجه المطلوب.

وليس بدعًا أن يأخذنا هذا التنوُّع والشمول في الروايات والأقوال إلى معنى إيضاحي آخر نجده في «الجامع الصحيح» للإمام البخاري تعريفًا للرباني. ذلكم ما نقع عليه في «كتاب العلم» هناك، من قوله ـ يرحمه الله: (بابٌ: العلمُ قبل القول والعمل، لقول الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فبدأ بالعلم، وأن العلماء هم ورثة الأنبياء، ورَّثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر، ومن سلك طريقًا يطلب به علمًا سهل الله له طريقًا إلى

الجنة. إلى أن يقول: وقال ابن عباس: «**كونوا ربانيين حكماء فقهاء**» ويقال: «**الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره**»[(١)].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه البخاري معلقًا بدون سند، ولكن بصيغة الجزم «قال ابن عباس» قد وصله ابن أبي عاصم أيضًا بإسناد حسن، والخطيب بإسناد آخر حسن كما يقول الحافظ ابن حجر في «الفتح»[(٢)].

وتفسير الحبر ابن عباس «الرباني» بأنه الحكيم الفقيه، وافقه عليه ابن مسعود فيما رواه إبراهيم الحربي في غريبه عنه بإسناد صحيح[(٣)]، وضمُّ الحكيم إلى الفقيه منه رضي الله عنه: له دلالته العظيمة التي لا تخفى.

وقد أورد الحافظ قول الأصمعي والإسماعيلي: **الرباني: نسبة إلى الرب**، أي الذي يقصد ما أمره الرب بقصده من العلم والعمل، كما أورد قول أحمد بن يحيى الشيباني المعروف بـ «ثعلب»: «**قيل للعلماء «ربانيين» لأنهم يربون العلم أي يقومون به**، وزيدت الألف والنون للمبالغة» ثم قال: «والحاصل أنه اختلف في هذه النسبة هل هي نسبة إلى الرب أو إلى التربية، والتربية على هذا للعلم، وعلى ما حكاه البخاري لتعلمه».

وقد سبق الكرماني رحمه الله إلى شيء من التوسع في التفسير لرواية البخاري؛ وما ذكره الحافظ عن أن النسبة في كلمة «الرباني» هل هي نسبة

---

(١) انظر: «الجامع الصحيح مع فتح الباري» (١/ ١٥٩، ١٦٠).
(٢) انظر: «فتح الباري» (١/ ١٦٠).
(٣) المصدر السابق (١/ ١٦٠).

إلى الرب أو إلى التربية، هو تلخيص لهذا التفسير المومى إليه. قال في كتابه «الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري» وهو يشرح كلام ابن عباس: «كونوا ربانيين حكماء فقهاء»: «قوله: «**ربانيين**» **منسوب إلى الرب**، وأصله رِبيون، فزيدت الألف والنون للتوكيد والمبالغة في النسبة، وسموا «ربانيين» لأنهم منسوبون إلى الرب تبارك وتعالى، كأنهم لإخلاصهم أنفسهم لله تعالى، وشدة تعلقهم بربهم، لا ينسبون إلا إلى الرب، أو لأنهم يربون العلم، أي يقومون به، يقال لكل من قام بإصلاح شيء: قد ربَّه يرُبُّه»[١].

وهنا ما بدٌّ من التنبيه على ما سبقت الإشارة إليه من تقرير أن العمل بالعلم هو الأصل في تلكم الفضائل التي توحيها كلمة «الربانيين» في النص القرآني، وقد أورد الإمام ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» قول أبي عمر الزاهد: «**سألت ثعلبًا عن هذا الحرف ـ وهو الرباني ـ؟ فقال: إذا كان الرجل عالمًا عاملاً معلمًا قيل له: هذا رباني؛ فإن حُرم من خصلة منها، لم نقل له: ربَّاني**»[٢]. وهذه الكلمات الزاكيات من ثعلب تكمل ما نقله عنه صاحب «الفتح» من قريب[٣].

وكثيرة نُقُول المصادر عن أهل البصيرة: **أن الرباني هو العالم الراسخ في العلم والدين، أو أنه العالم العالي الدرجة العامل المعلم الذي يبتغي**

---

(١) «الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري» للكرماني (٢/ ٣١).
(٢) «مفتاح دار السعادة» لابن قيم الجوزية (١/ ٤٠٥).
(٣) انظر ما سبق ص٣٩، وانظر: «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» للبدر العيني (٢/ ٤٣).

بعلمه وتعليمه ودلالة الأمة على الخير وجه الله تعالى[١]. وقال ابن الأعرابي: لا يقال للعالم: رباني حتى يكون عالمًا معلمًا عاملاً.

ولابد أن يستوقفنا قول الإمام البخاري: «ويقال: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره» فهذا دليل الاهتمام بالتدرج التعليمي والتربوي عند هذا العالم. والحكمة العالية في اتباع المنهج السليم تربية وتعليمًا، الأمر الذي يكشف عن العلاقة الحميمة بين تعليم العلم وتربية الناس على العمل بما يتعلمون.

والمراد بصغار العلم ـ كما يقول العلماء ـ: ما وضح من مسائله، وبكباره: ما دقَّ منها. وقيل: يعلمهم جزئياته قبل كلياته، أو فروعه قبل أصوله، أو مقدماته قبل مقاصده، وكل هذا من الأسلوب الحكيم في مراعاة المرحلة الزمنية التي يمرُّ بها المتلقي، والعمل على إيصال المعلومة، والتربية عليها من أيسر طريق.

وبعد، فالنسب متصل بين هذا المتحدَّث عنه وبين تفسير ابن عباس للرباني بالحكيم الفقيه؛ إذ الحكمة صحة القول والعقد والفعل، وقيل: **الحكمة** الفقه في الدين بالمعنى اللغوي وهو أعم من المعنى الاصطلاحي، وقيل: **الحكمة** معرفة الأشياء على ما هي عليه. **والفقه**: الفهم لغة، والعلم بالأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية اصطلاحًا؛ فإذا انضم إلى ذلك شدة التمسك بالدين والإخلاص لرب العالمين فقد تمت النعمة على طريق

---

(١) انظر: «الجامع لأحكام» القرآن للقرطبي (٤/ ١٢٢)، «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٠٥، ٤٠٩)، «لسان العرب» مادة (ربب) (١/ ٤٠٤).

سعادة الدارين[١].

وبعد، فتجدر الإشارة مرة أخرى إلى أن قولة ابن عباس رضي الله عنه قد وافقه عليها ابن مسعود كما جرى إيضاح ذلك من قبل. **ولا نعدم أن نقع على ما يدل على حرص الصحابة رضوان الله عليهم بأن يكون للصفات التي يستحق بها المرء أن ينال شرف الربانية وجود عملي في حياتهم، والعمل على تبيان أبعادها للأمة أداءً للأمانة في نقل الدين وأصول العلم النافع والأخلاق الفاضلة، وما به يكون المسلم على سلَّم القرب من الله عز وجل،** مضمومًا إلى ذلك بيان ما يلزم من الإخلاص في الدين، وعلو الهمة في طلب العلم النافع، وتعليمه والتربية على العمل، طلبًا لمرضاة الله تعالى، والفوز بالجنة والنجاة من النار. أضف إلى ذلك السعي الدؤوب على طريق الإسهام في تدبير شؤون الأمة، وبذل الجهد في تقديم العون الممكن، كيما يتحقق لها الوجود الذاتي بالإسلام الذي جعل منها خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

روى أبو نعيم في «الحلية» بسنده عن كُميل بن زياد النَخعي المتوفى سنة اثنتين وثمانين أنه قال: أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بيدي، فأخرجني إلى ناحية الجبَّانة، فلما أصحر - أي برز للصحراء - تنفَّس ثم قال: **يا كُمَيل بن زياد! القلوب أوعية، فخيرها أوعاها للخير. احفظ عني ما أقول: الناس ثلاثة؛ فعالم رباني، ومتعلِّم على سبيل النجاة، وهمجٌ رعاع أتباع كلِّ ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم،**

(١) «فتح الباري» (١/ ١٦٢).

ولم يلجأوا إلى ركن وثيق. العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو على العمل ـ وفي رواية: على النفقة ـ والمال تنقصه النفقة. العلم حاكم والمال محكوم عليه، ومحبة العالم دين يدان بها. العلم يكسب العالم الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد وفاته، وصنيعة المال تزول بزواله. . . **إلى أن قال في إشارة إلى أولئك الربانيين**: لن تخلو الأرض من قائم لله بحجته، لكيلا تبطل حجج الله وبيناته، أولئك الأقلون عددًا، الأعظمون عند الله قدرًا، بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلانوا ما استوعر منه المترفون، وأنِسوا بما استوحش منه الجاهلون. صحبوا الدنيا بأبدان أرواحُها معلَّقةٌ بالملأ الأعلى، أولئك خلفاء الله في أرضه. . ودعاته إلى دينه، هاهاه. . شوقًا إلى رؤيتهم، وأستغفر الله لي ولك، إذا شئت فقم»[1]. ورواه الخطيب في كتابه «الفقيه والمتفقه»، والمزي في «تهذيب الكمال» وغيرهم.

هذا، ولابد من الإشارة إلى أن الإمام ابن القيم قد نبَّه على ما يجب من تأويل عبارة «**أولئك خلفاء الله في أرضه أو في بلاده**»؛ لأن الله تعالى هو خليفة العبد؛ إذ أن العبد يموت فيحتاج إلى من يخلفه في أهله، والله ولي التوفيق.

❊ ❊ ❊

(١) «الحلية لأبي نعيم» (١/ ٨٠، ٨١)، وانظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٠٣، ٤٧٠).

مع الإمام سليمان بن طرخان التيمي

ـ ١ ـ

هذه رحلة عجلى أو تكاد، مع الحديث عن شيخ الإسلام المتعبد المتهجد الإمام الرباني أبي المعتمر سليمان بن طرخانَ التيميِّ البصريِّ، نزل في بني تيم فقيل: التيمي، وتوفي بالبصرة سنة ثلاث وأربعين ومائة.

ولشدَّة ما رأى معاصروه من صدقه في الحديث عن النبي ﷺ، وخشيتِهِ زلةَ القدم برواية ترفع القول أو الفعل أو الإقرار إلى خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام.

روى الربيع بن يحيى عن شعبة قال: ما رأيت أحدًا أصدق من سليمان التيمي رحمه الله؛ كان إذا حدَّث الحديث فرفعه إلى النبي ﷺ تغيَّر لونه، وفي رواية: تغيَّر وجهه[١].

ولعلك تَقْدر هذه الخلة قدرها، وأنها بهذا السمو نابعةٌ من خشية الله والخوف من الوقوع في مهواة الكذب العمد على رسول الله ﷺ، إذا علمت أن له ـ كما يقول علي بن المديني ـ نحوَ مائتي حديث، وذكرت قول ابن عُلَيَّة: **سليمان التيمي من حفاظ البصرة**، وما روي عن سفيان قال: حُفَّاظ البصريين ثلاثة: سُليمان التيميُّ، وعاصم الأحول، وداود بن أبي هند،

---

(١) انظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصفهاني (٣/ ٣٠)، «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٦/ ١٩٦).

وعاصم أحفظهم.

ومن خصائص العالم الرباني: أنه بمقدار رفعته ورسوخه في العلم تكون خشيته من الله تعالى وشدة تمسكه بالدين وحرصه على نفع الآخرين، وهذا ركن من أركان العمل بالعلم، فالعلم بلا عمل حجة على صاحبه، ومدعاة للفضيحة على رؤوس الخلائق يوم العرض على الله!.

وسلوك العالم يصدق هذا أو ينفيه. وبين هذه الخصائص وبين سلوك التيمي نسب واضح قوي.

ولك أن تنظر مثلاً في حرصه على التعليم وأسلوبه الحكيم فيه، وهو أسلوب يذكرك من بعض الوجوه بقول الإمام البخاري: «ويقال: الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره». يقول علي بن المديني: سمعت يحيى بن سعيد يقول: كان التيميُّ يحدِّث الشريف والوضيع خمسةً خمسةً. قلت: كان يَدَعُكم تكتبون؟ قال: لا! إن ردَّ عليه إنسان حَسَبَه عليه، وكنت أردُّ عليه ويحسِب عليَّ. قال الحافظ الذهبي: يعني بقوله: أرد عليه: أني أعيد الحديث لأحفظه، فيحسِبه عليَّ بحديث من تلك الخمسة.

ومن دلائل أخذه الحازم بالسُّنة: قاعدته في رجاءِ حسن العاقبة للعبد، أو مخافته سوءها، كيف أن قِوامها مقدار التزام هذا العبد بسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام أو عدمه؛ فالالتزام بها يبشر بالخير، أما الجنوح عن سَنَن الهدي النبوي: فمنذرٌ بشر مستطير!

جاء في «الحلية» لأبي نُعيم: حدثنا أبو حامد بنُ جَبَلَةَ قال: حدثنا

محمد بن إسحاق الثقفي قال: سمعت سِوارَ بنَ عبد الله قال: سمعت المعتمر ـ هو ابن سليمان ـ يقول: مات صاحب لي كان يطلب الحديث معي، فجزعت عليه، فرأى أبي جزعي عليه فقال: يا معتمر! كان صاحبُك هذا على السنة؟ قلت: نعم! قال: فلا تجزع عليه ـ أو لا تحزن عليه[١].

ومن فقهه المنوَّر بضياءِ القلب، وتفتُّح البصيرة، **قدرتُه** على وضع الأمور مواضعها من حياة المكلفين رخصةً أو عزيمةً، **وشدةُ** نهيه عن تتبُّع الرخص من هنا وهناك.

قال خالد بن الحارث: قال سليمان التيمي: **لو أخذتَ برخصة كل عالم اجتمع فيك الشرُّ كلُّه**[٢].

أن يدلَّ هذا على فقه النفس شيء عظيم، ولكنك ترى ـ مع هذا الفقه ـ صرامةَ كلمة الحق، ونُصح المسلمين بها؛ إذ الحقُّ أحقُّ أن يتبع، والدين النصيحة. **ولا تثريب علينا في القول بأن مبعث القضية قبل كل شيء ـ والله أعلم ـ أداءُ الأمانة في العلم والتعليم والتربية طاعةً لله تعالى، واستمساكًا بالدين القويم، وما أوجب سبحانه على العالم من العمل بالعلم، وبيان الحق من الباطل، والأخذ بيد الناس إلى ما فيه خيرُ دينهم ودنياهم.**

وما أعظم ما نجد عند الإمام الرباني ـ وهو يعمل بعلمه، ويربي بالكلمة والموقف، والتأسي والإسهام بسهم في تدبير شؤون الأمة والدلالة على طرق الخير ـ ما أعظم ما نجد عنده من حِكم عظيمة وكلمات نورانية فيها من

---

(١) «الحلية» (٣/ ٣١).
(٢) «الحلية» (٣/ ٣٠).

إرث النبوة مشابه!

روى أبو نعيم بسنده في «الحلية» عن الأصمعي قال: حدثنا المعتمر عن أبيه ـ وهو سليمان ـ قال: «**الحسنةُ نورٌ في القلب وقوةٌ في العمل، والسيئةُ ظلمة في القلب وضعفٌ في العمل**»[1].

أرأيت إلى هذا الترغيب العظيم في كل ما هو حسنة، والترهيب مثله من كل ما هو سيئة؛ **فالحسنة نور في القلب**، والقلب موطن التذكُّر، وموئل التقوى، **كما أن السيئة ظلمة فيه**، وهي حجاب أيُّ حجاب!! **وفي هذا القَرْن بين نور القلب وقوة العمل، وبين ظلمة القلب وضعف العمل: ما فيه من شحذ الهمم وتحريك الكوامن الإيمانية، وإثارة العزائم للدأب على العمل المنضبط بضوابط الشريعة وأخلاق الإسلام**. . . ! ولا ننسى ما يحمل أيضًا من وجوب العناية بالقلب إنارةً وجلاءً كيما يكون دائمًا موصولاً بالله تبارك وتعالى، صالحًا للتلقي والفهم عن الله ورسوله بصفاء وإشراق يبعثان على حسن التذكُّر! ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[2].

وما أروع ما يحدث التذكر والذكرى من الطمأنينة القلبية التي يسعد بها المؤمن بعيدًا عن الحيرة والقلق والاضطراب النفسي ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[3].

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٦/ ١٩٨).
(٢) سورة قَ، الآية: ٣٧.
(٣) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

وهذا الذي نرى من الحسِّ الإيماني المرهف عند أبي المعتمر يقودنا إلى صورة أخرى من صور الصفاء الروحي واستنارة القلب المطمئن بذكر الله، إذ نراه يقول ـ كما حدَّث ابنه المعتمر عنه ـ: «**إن الرجل ليذنب الذنبَ، فيصبحُ وعليه مَذَلَّتُه**»[١].

ومما لا ريب فيه: أن بريد الكلمة إلى القلوب، وتفتُّحَ النفوس لها بالقبول، مردُّه إلى الإخلاص فيها، وهذا الإخلاص ـ وهو من أعمال القلوب ـ إنما يزداد وينمو بتقرب العالم الرباني إلى الله بمزيد من الطاعة، والصلة الإيمانية بالكتاب الكريم، وسنةِ النبي عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم؛ وهذا ما نجده عند سليمان التيمي؛ فإلى جانب عنايته برواية الحديث بأمانة وصدق، وسهره على تعليمه الناس بحكمة ورويَّة، نجده العابد المتهجِّد، الصوَّام القوَّام المتصلَ بالكلمة الهادية في القرآن اتصال تلاوة وتدبُّر؛ فالقلب خاشع، والعين باكية، والصدر منشرح للعطاء الرباني، وأكرم به من عطاءٍ غير مجذوذ!

حدث محمد بن الأعلى قال: قال لي معتمر بن سليمان: لولا أنك من أهلي ما حدثتك بذا عن أبي، مكث أبي أربعين سنة يصوم يومًا ويفطر يومًا، ويصلي صلاة الفجر بوضوء عشاء الآخرة، وربما أحدث الوضوء من غير نوم[٢].

وإذا كانت الخشية على قدر المعرفة، فحدث ولا حرج عما يُقذف في

---

(١) «الحلية» (٣/ ٣١)، «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٢٠٠).

(٢) «طبقات ابن سعد» (٧/ ١٨، ١٩)، «الحلية» (٣/ ٢٨)، «سير أعلام النبلاء» (٦/ ١٩٧).

قلوب هؤلاء العلماء العاملين الربانيين من النور الذي يتمثل في تفاعلهم مع المعاني القرآنية رغبة ورهبة، وهم يتلون الكتاب في صلاتهم وتهجدهم، ويعملون على تدبره آناء الليل وأطراف النهار، دون أن يقصروا في عمل يمكن إنجازه على صعيد نفع الخلق والإسهام في جلب الخير إلى الأمة.

ذكر مردويه عن فضيل بن عياض قال: قيل لسليمان: أنت أنت، ومن مثلك؟ قال: لا تقولوا هكذا، لا أدري ما يبدو لي من ربي عز وجل، سمعت الله يقول: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾[(١)].

وهذا الموقف قد صدر عن ربانيين آخرين أمثال محمد بن المنكدر وغيره. وهذا دليل اليقظة الإيمانية، وأن القرآن يتلى بقلب حاضر وبصيرة مشرقة بالتدبر والتذكر، والخوف من يوم الحساب. وسبحان القائل لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾[(٢)].

* * *

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٧، وانظر: «السير» (٦/ ٢٠١).
(٢) آخر سورة قٓ، الآية: ٤٥.

مع سليمان التيمي

ـ ٢ ـ

تبارك الذي أنار بصائر عباده الربانيين ورزقهم حسن الإنابة إليه، والتلذذ بطاعته والوقوف في محراب المناجاة خاشعين بين يديه، يظمئون نهارهم بالصيام، ويسهرون ليلهم متجافية قلوبهم عن المضاجع للقيام، لا يشغلهم عن تلاوة تنزيله الحكيم وتدبر آيه والاتعاظ بها شاغل، وتراهم إذا ذكر سبحانه وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعليه جلَّ شأنه يتوكلون.

وأنت واجد أن التعلم والتعليم والتربية والتدريس والسهر على الصلاح والإصلاح ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ والمشاركة الفعَّالة المثمرة في جلب الخير للأمة في دينها ودنياها، كل أولئك لا يحول دون الرباني ودون أن يكون قلبه ـ كما أسلفنا ـ معلقًا بالقرآن، يصحبه بروح التدبر والتذكُّر آناء الليل وأطراف النهار. يرغب فيما يرغِّب فيه، ويرهب مما يرهِّب منه، وتفيض دموعه في حالات الخوف والرجاء، ويعتبر عندما تواجهه آيات الاعتبار، وعندما يمر بالآيات المشرقة بالغيب وما سيكون يوم الوعيد: نراه كأن الغيب عنده من عالم الشهود، ووعدُ الله ووعيدُه هما في قلبه وعقله كأنه يرى ذلك ويلمسه.

وفي الماضي قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا**»؛ ذلك لأنه في الدنيا على يقين لا يتزعزع بما جاء به الخبر الصادق في كتاب الله أو حديث النبي عليه الصلاة والسلام؛ سواء في ذلك

ما كان من عالم الشهادة أو من عالم الغيب .

كان لابد من هذه الإلماحة العجلى بين يدي مواصلة الحديث عن العالم الرباني الإمام سليمان بن طرخان التيمي الذي كانت حاله مع القرآن حال تفاعل وتأثُّر، واتعاظٍ وتذكر، وقد أوردت من قبل شاهدًا على هذا يدل على ما أفاض الله عليه من نعمة الصلة العقلية والقلبية بالكتاب العزيز؛ ذلكم ما حدَّث فضيل بن عياض أنه قيل لسليمان: أنت أنت، ومن مثلك؟ قال: لا تقولوا هكذا، لا أدري ما يبدو لي من ربي عز وجل، سمعت الله يقول: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ .

إنه ـ رحمه الله ـ يخشى أن يفجأه يومَ الهول العظيم ما لم يكن في الحسبان، وربما يكون عَمِل في الدنيا أعمالاً حسبها حسنات فإذا هي سيئات، من هنا لم يُطق وهو على هذه الخشية أن يقال له: أنت أنت، ومن مثلك؟ .

وكنت أشرت من قبل إلى أن هذه الكلمات الهاديات بما تحمل من الوعيد، وتثير في القلب من اليقظة الإيمانية قد عملت عملها عند كثيرين من أهل الربانية والصلاح، والآية بتمامها في سورة الزمر هي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾[١] .

روى أبو نُعيم في «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» بسنده عن يحيى

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٧ .

ابن الفضل الأُنيسي قال: سمعت بعض من يذكر عن محمد بن المنكدر أنه بينا هو ذات ليلة قائم يصلي إذ استبكى وكثر بكاؤه حتى فزع أهله إليه، وسألوه ما الذي أبكاه؟ فاستعجم عليهم، وتمادى في البكاء، فأرسلوا إلى أبي حازم ـ سلمة بن دينار ـ، فأخبروه بأمره. فجاء أبو حازم إليه فإذا هو يبكي، قال: يا أخي، ما الذي أبكاك؟ قد رُعْتَ أهلك، أفمن علة، أم ما بك؟ قال: إنه مرت بي آية في كتاب الله عز وجل! قال: وما هي؟ قال: قول الله جل شأنه: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ قال: فبكى أبو حازم أيضًا واشتد بكاؤهما. قال: فقال بعض أهله لأبي حازم: جئنا بك لتفرِّج عنه فزدته، فأخبرهم ما الذي أبكاهما[(١)].

ويبدو أن تأثير الآية في قلب ابن المنكدر ظل يعمل عمله حتى الرمق الأخير من حياته، رُوي عن عكرمة بن إبراهيم عن ابن المنكدر أنه جزع عند الموت، فقيل له: لِمَ تجزع؟ قال: أخشى آية من كتاب الله ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾؛ فأنا أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أكن أحتسب[(٢)].

وإذا كان من أخص ما يتميز به الرجل الرباني المقدَّم في العلم والعمل: أن يكون قلبه متصلاً بمولاه، يخشع لذكره، خوفًا ورجاءً، فلا بِدع أن يُرى ذلك التفاعل الإيماني بتلكم الكلمات المباركات من سليمان التيمي وابن المنكدر وأضرابهما؛ ذلك بأن أخوف ما يخاف أهل القرب من الله أن يعكِّر

---

(١) «الحلية» (٣/ ١٤٦)، «السير» (٥/ ٣٥٥).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٥٥)، وانظر: «الحلية» (٣/ ١٤٦).

صفاء قلوبهم شيءٌ من الرياء أو الغفلة التي تتنافى مع التوحيد الخالص لله تبارك وتعالى. قال سفيان الثوري في شأن هذه الآية: ويل لأهل الرياء، ويل لأهل الرياء[١].

ولقد يكون من الخير أن نستذكر أن ما يأخذ الرباني نفسه من خشية الرحمن بالغيب والدأْب على طاعته، والإكثار من فعل ما يقرب إليه زلفى في تزكية للنفس وحملها على المركب الجادِّ الحازم في مراقي المحبة الصادقة التي يوفق لسلوكها عباد الرحمن المتقون المحسنون. . كل أولئك من أعظم ما يعين على إيصال النفع للآخرين تعليمًا وتربية ودلالة على ما به تصلح الشؤون الدينية والدنيوية، ويظفر فاعله بسعادة الدارين. وذلك ما نجده عند سليمان التيمي أعلى الله مقامه في الآخرين، يقول علي ابن المديني: **ذكرنا التيميَّ عند يحيى بن سعيد، فقال: ما جلسنا عند رجل أخوفَ لله تعالى منه**[٢].

وعن يحيى بن سعيد القطان قال: خرج سليمان التيميُّ إلى مكة، فكان يصلي الصبح بوضوء العشاء الآخرة، وكان يأخذ بقول الحسن: أنه إذا غلب النوم على قلبه توضأ، وكان يحيى يتعجب من صبر التيمي[٣].

ولكم يستوقفك ـ مع هذا الجدِّ في طاعة الله تعالى ـ خوفُهُ يومَ الحساب، وحرصُه ـ وقد حضره الموت ـ على ألا يلقى الله تعالى وهو

---

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ٣٥٠).
(٢) «الحلية» (٣/ ٢٨).
(٣) المصدر السابق (٣/ ٢٩)، «سير أعلام النبلاء» (٦/ ١٩٩).

حسن الظن به، كي يؤمِّنه في ساعات الهول والشدة من الخوف، ويكون من الناجين! يقول المعتمر بن سليمان: قال أبي حين حضره الموت: **«يا معتمر، حدِثني بالرخص، لعلي ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظن به»**(١).

وهو في هذا متمسك بهدي النبي عليه الصلاة والسلام في شأن حسن الظن بالله عز وجل وهو الرحيم الرحمن سبحانه. روى الإمام أحمد في المسند بسنده عن حِبَّانَ أبي النضر قال: دخلت مع واثلةَ بنِ الأسقع على أبي الأسود الجَرَشي في مرضه الذي مات فيه، فسلَّم عليه وجلس، قال: فأخذَ أبو الأسود يمينَ واثلة فمسح بها على عينيه ووجهِه لبيعته بها رسول الله ﷺ، فقال له واثلةُ: واحدة أسألك عنها، قال: وما هي؟ قال: كيف ظنك بربك؟ قال: فقال أبو الأسود ـ وأشار برأسه ـ أي حسن. قال واثلة: أبشر، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قال الله عز وجل: أنا عند حسن ظن عبدي بي، فليظنَّ بي ما شاء»**(٢).

وكم هو جميل أن يُقتدى به ـ وهو يربي بالقدوة ـ فيما كان من حرصه على أن يشاركه أهله مكابدة قيام الليل، والظفر بالأجر الكبير. حدث الأصمعي قال: بلغني أن سليمان التيمي كان يقول لأهله: **«هلموا حتى نجزِّئَ الليل، فإن شئتم كفيتكم أولَه، وإن شئتم كفيتكم آخره»**(٣).

وما أعظم ما كان يفعل القرآن في نفسه وهو يتلوه متهجدًا والناس نيام.

---

(١) «السير» (٦/ ١٩٩).

(٢) «المسند» (٣/ ٤٩١)، وانظر: «سنن أبي داود» كتاب الجنائز.

(٣) «الحلية» (٣/ ٢٩).

هذا مَعْمَرٌ مؤذنه يقول: صلى إلى جنبي سليمان التيمي بعد العشاء الآخرة، وسمعته يقرأ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، فلما أتى على هذه الآية ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ جعل يرددها حتى خفَّ أهل المسجد فانصرفوا. قال: فخرجت وتركته، قال: وغدوت لأذان الفجر، فنظرت فإذا هو في مَقامه، فسمعت فإذا هو فيها لم يَجُزْها وهو يقول: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

قال صاحب «الكشاف»: «وعن بعض الزهاد أنه تلاها في أول الليل في صلاته، فبقي يكررها وهو يبكي إلى أن نوى لصلاة الفجر، ولعمري إنها لوقاذة لمن تصور تلك الحالة وتأملها»[1].

* * *

(١) «الكشاف» للزمخشري (٤/ ١٢٥).

مع سليمان التيمي

ـ ٣ ـ

ما طالعتنا به المصادر من مواقف العالم الرباني الثبت سليمان التيمي، وما كان منه وقد حضره الموت من رجاء أن يلقى الله تعالى وهو حسن الظن به، ينهض دليلاً تصحبه أدلة أخرى على أدب هذا الإمام القدوة مع الله تعالى، **وهو الأدبُ الذي سما به إلى الشعور بقصوره عما يجب أن** يصحب حسنَ الظن بالله تعالى المطلوبَ من المسلم كما ثبت في السنة المطهَّرة، من صالح العمل والإنابة إلى الله عز وجل في الظاهر والباطن.

فهو يرى ـ من خشيته لله كما يبدو ـ أنه ـ على ما كان عليه من الإكثار من الطاعات وفعل القربات ـ ليس على حال تتسق مع دعوى حسن الظن بالله تعالى، **فحسن الظن هذا يقتضي إحسان العمل، وعلو الهمة في تحصيل ما يقرب إلى الله زلفى، وينجي صاحبه ـ بلطف الله وعونه ـ من نار وقودها الناس والحجارة يوم يحشر الناس لرب العالمين.**

أما أن يكون حسن الظن ملهاةً عن صالح العمل، واكتفاءً بأمانيِّ المغفرة والتجاوز عن الخطيئات، فتلك دعوى لا يقوم عليها دليل، بل إن من يدّعي أنه يحسن الظن بربه، وبينه وبين إحسان العمل مفاوز؛ مفترٍ على الحق، ودعواه أقربُ إلى الكذب منها إلى الصدق؛ لأنه لو أحسن الظن حقًا بربه، لأحسن العمل، وكان ذلك برهان صدق فيما يقول.

قال الحسن البصري يرحمه الله: «إن قومًا ألهتهم أمانيُّ المغفرة حتى

خرجوا من الدنيا وليس لهم حسنة؛ يقول أحدهم: أحسن الظن بربي، وهو يكْذِب؛ لو أحسن الظن بربه لأحسن العمل» وتلا قوله عز وجل: ﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1].

والحقُّ أن الشعور الحيَّ الذي ألفيناه في ربانية التيمي، مع دلالته على الأدب مع الله عز وجل، وأن خشية الله قد أخذت بمجامع قلب هذا العالم العامل، يضع أيدينا على سلامة فقهه للنص القرآني، وتفتُّح البصيرة في مخالطة معانيه، وأخذِها مأخذَ الجدية على ساحة القول والفعل والسلوك، وقد رأينا له فيما سبق أكثر من واقعة تشهد لذلك. بل قد ظل ذلك في حسه ومشاعره حتى الساعات التي يستقبل فيها داعي ربه في مرض الموت.

وهذه الآية الكريمة السابقة الذكر التي تحمل ما تحمل من توبيخ الكافرين، والتي استشهد بها سيد التابعين في عصره على سوء صنيع من يستبدل اللهو واللعب والاعتداء على حرمات الله، بالاستقامة والطاعة والتمسك بالدين مقترنًا ذلك بدعوى حسن الظن بربه عز وجل، قد سُبقت بآيات زاخرة بالعبرة لمن يخشى ويتدبر القول الرباني الحكيم!

يقول الله تعالى في سورة فصلت: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ

---

(١) انظر: «غيث المواهب العلية شرح الحكم العطائية» لابن عباد النفزي الرندي (١/٢٢٦).

سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1].

وفي توكيدٍ لذلك الوجهِ الآخرِ من وجوه الفهم للآية، فهمًا يتجاوز الكفار إلى غيرهم من أجل أن يتنبهوا ويحذروا مضلَّة الاعتماد على حسن الظن فحسب، دون ائتمار بأوامر الله واجتناب لمناهيه. قال معمر ـ كما جاء في مصنف عبد الرزاق ـ: وتلا الحسن: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله: أنا مع عبدي عند ظنه بي، وأنا معه إذا دعاني**»، ثم افترَّ الحسن ـ تبسَّم حتى بدت أسنانه من غير قهقهة ـ ينظر في هذا، فقال: **ألا إنما عملُ الناس على قدر ظنونهم بربهم؛ فأما المؤمن: فأحسن الظن بالله فأحسن العمل، وأما الكافر والمنافق: فأساء الظن بالله، فأساء العمل**. ثم قال: قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[2].

ومهما يكن من أمر فإن الانتفاع بهدي الآية الكريمة يقتضي المؤمنَ أن يُحسن الظن بالله تعالى، ويحسنَ العمل ويجوِّده، على عكس ما يكون من الكافر والمنافق من سوء الظن بالله الذي ينتهي بهذا الجاحد الأثيم إلى سوءالعمل ـ أعاذنا الله من ذلك ـ.

من هنا كان من التربية بالقدوة بمكان ـ وهي من أجل أنواع التربية ـ:

---

(١) سورة فصلت، الآيات: ١٩ ـ ٢٣.
(٢) وانظر: «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير: (٧/ ١٦٢).

ما يأخذُ به العالم الربانيُّ نفسَه من الاستقامة على طاعة الله تعالى قولاً وعملاً، بقلب حاضر تزينه خشية الله تعالى مع حسن الظن به سبحانه كالذي يُرى عند سليمان التيمي، حيث الجدِّيةُ في العمل ليوم الحساب، والبُعد عن العجز الذي هو اتباع الهوى، وتمني الأماني على الله تعالى، تذرعًا بحسن الظن به تباركت أسماؤه وصفاته، وذلكم هو المسلك الذي يتفق مع سنة الله في المسؤولية والجزاء، تلك التي دلت عليها نصوص قرآنية عدة، منها قول الله جل شأنه: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾(١).

وباب المغفرة والرحمة مفتوح لمن تاب توبة نصوحًا وأناب ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٢).

وكم نبّه أهل الصلاح المهديين من السلف الصالح على سوء القعود عن العمل ومحاسبة النفس والتلهي بكواذب الأماني التي كثيرًا ما تكون من تسويلات النفس وتزيين الشياطين! وتودي بصاحبها إلى التهلكة؛ **فالكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**.

جاء في واحدة من وصايا الحسن رحمه الله: «**عباد الله، اتقوا هذه الأماني، فإنها أودية الحمقى يحلُّون فيها، واللهِ ما آتى اللهُ عبدًا بأمانيِّه خيرًا**

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٣.
(٢) سورة النساء، الآية: ١١٠.

في الدنيا ولا في الآخرة»[١] .

وكتب أبو عمير المنصوري إلى بعض إخوانه : «**أما بعد، فإنك قد أصبحت تؤمل بطول عمرك، وتتمنى على الله الأماني بسوء فعلك، وإنما تضرب حديدًا باردًا**»[٢] .

ولا كذلك الربانيون الذين يعلمون الكتاب ويعملون به، ويعلِّمونه، ويدرسون دين الله من مصادره الأصلية ويدرِّسونه، ويربون الناس على ما يعلمونهم ويدرسونهم.

وقد رأينا من قبل أن التيميَّ رحمه الله كان لا يكتفي بالعناية بنفسه، بل يحرص على أن يشركه أهله في طاعة الله، والوقوف بين يديه تهجدًا وتلاوة للقرآن، في بعد عن الرجاء الكاذب، والأماني التي لا تغني عن المرء شيئًا، ذلكم ما كان يقول لأهله أجزل الله مثوبته : «**هلمُّوا حتى نجزِّئَ الليل؛ فإن شئتم كفيتكم أوله، وإن شئتم كفيتكم آخره**»[٣] وتتسع الدائرة حتى تشمل تعليمه وتربية من هم وراء أهله من الناس.

وجميل ما تطالعنا المصادر من قول بعض أهل السلوك : «**وأما الرجاء الكاذب الذي يُفتِّر صاحبَه عن العمل، ويجرئُه على المعاصي والذنوب، فليس هذا برجاء عند العلماء، ولكنه أمنية واغترار بالله تعالى.**

---

(١) «غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية» لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم النفزي الرندي : (١/ ٢٢٦).
(٢) المصدر السابق : (١/ ٢٢٧).
(٣) «الحلية» : (٣/ ٢٩).

وقد ذمَّ الله قومًا ظنوا مثل هذا، وأصروا على حبِّ الدنيا والرضا بها، وتمنوا المغفرة على ذلك، فسمَّاهم الله «خَلْفًا»، والخلف الرديءُ من الناس؛ فقال عز من قائل: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[1].

رحم الله أبا المعتمر سليمان التيمي وأجزل مثوبته عنده، وأعلى مقامه في الآخرين.

* * *

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٩، وانظر: «غيث المواهب العلية»: (١/ ٢٢٥).

مع العابد المجاهد التابعي
عمرو بن عتبة بن فرقدالسُّلميِّ الكوفيِّ

ـ ١ ـ

هذا العَلَم الرباني واحد من خيار التابعين الذين ذكرهم ابن سعد في الطبقة الأولى من أهل الكوفة، وهو يتحدث عن هؤلاء البررة في كتابه «الطبقات»[(١)] . روى ـ رحمه الله ـ عن عبد الله بن مسعود، وعن سبيعة الأسلمية ـ كما يقول الحافظ ابن حجر ـ كتابةً. وروى عنه عبد الله بن ربيعة السُّلميُّ، وحوط بن رافع العبيدي، والشعبي وآخرون[(٢)] .

وإذا كان الصحابة عليهم الرحمة والرضوان، هم الذين اختارهم الله لحمل الأمانة في نقل هذا الدين، إيمانًا وعلمًا وعملاً وأخلاقًا إلى الأمة، وجعل منهم أعدل الشهود على صدق رسالة الإسلام وأحقيتها، فإن هذا التابعي الجليل الذي عرف الحقَّ فلزمه، قد ظهرت آثار اتصاله العقلي

---

(١) (٦/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) انظر: «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر (٨/ ٧٥)، «الإصابة» له (٤/ ٣٢٤). وفي شأن سبيعة رضي الله عنها أورد الحافظ في الإصابة ما جاء في الموطأ وعند ابن منده وغيره عن أم سلمة قالت: ولدت سبيعة الأسلمية بعد وفاة زوجها بنصف شهر، فخطبها رجلان، أحدهما شاب والآخر كهل، فخُطبت إلى الشاب، فقال الشيخ: لم تحلّي بعد، وكان أهلها غُيَّبًا ورجا إذا جاء أهلها أن يؤثروه بها، فجاءت إلى النبي ﷺ فقال: «**قد حللتِ فانكحي من شئت**» . «الإصابة» (٤/ ٣٢٤)، «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٦/ ٢٠٧).

والقلبي بمن لقي من الصحب الكرام رضي الله عنهم وأرضاهم؛ فجمع إلى ما خالط قلبَه من بشاشة الإيمان، وما أشرقت به نفسه من حب الله ورسوله: حسن الصلة الإيمانية بالكتاب والسنة، وأخذ النفس بكل ما هو من تقوى الله بسبب. . إلى وفرة في العلم، واستنارة في العقل، ورضىً باليسير اليسير من الدنيا، وتفانٍ في طاعة الله تعالى، والجهاد في سبيله، والتبتُّل إليه على الأحوال كلها؛ الأمر الذي دلَّ على أنه قد فقِه عن الله ورسوله فقه عبودية وتدبُّر، وأنه قد تمَّ له التوافق الوضاء بين أعمال القلب وأعمال الجوارح، فكان على السنن الذي يوحي به قول الله جل ذكره في ختام سورة الكهف: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[1].

وقد كان من توفيق الله إياه: حرصه على إيصال الهداية إلى القلوب، بالكلمة النافعة والوصية الجامعة، والقدوة التي عنوانها حسن التأسي بإمام الهداة وسيد المتقين نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه، على بصيرة لا ينقصها الإخلاص، ولا يفارقها حب هذا النبي الكريم والحرص على طاعته؛ لأن الإيمان لا يكمل إلا بحبه، وطاعتُه ﷺ من طاعة الله.

ولا يعوزك الكثير من البحث في سيرة هذا الإمام الرباني الذي كان يعلِّم بسلوكه وفِعاله كما يعلِّم بمواقفه وأقواله، أن تجد فيه الصورة العملية المثلى للاستغراق في العبادة ـ بمفهومها الشامل ـ والزهادة في الدنيا، وطلب الشهادة تحت راية الجهاد في سبيل الله، حتى شغله ذلك عن الإكثار

---

(١) سورة الكهف، الآية الأخيرة.

من الرواية مع أهليته لها لو أراد، ولكنه ـ كما يبدو ـ آثر النهج الذي استغرقه؛ لعلمه أن هنالك من يقومون بهذه المهمة الثقيلة على خير وجه، وهم ـ بحمد الله ـ كثير.

جاء في «الطبقات الكبرى» لابن سعد، ما روى بسنده أن عمرو بن عتبة استُشهد فصلى عليه علقمة، وكان ثقة قليل الحديث[١].

وفي «الحلية» لأبي نعيم الأصفهاني قال الشيخ رضي الله عنه: **عمرو بن عتبة من كبار تابعي أهل الكوفة، مشهور بالتعبد والزهد، شغلته العبادة عن الرواية**. ذكر القاضي أبو أحمد العسَّال في تاريخه أنه لا يعرف له مسندًا[٢].

ومن قليل مشاركته ـ رحمه الله ـ في هذا الباب ما روى أبو نُعيم بسنده عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مسلم يبيت طاهرًا على ذِكْرٍ، فيتعارَّ من الليل، فيقوم فيسأل الله خيرًا من الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه**»[٣] وهو ـ كما ترى ـ حديث مرسل، لم يذكر فيه اسم العجلي على أنه ـ كما ذكرت المصادر الموثقة ـ من رواة النسائي وابن ماجه[٤]، وذكره ابن حبان في الثقات.

وفيما وراء الإقلال من الرواية كان دائم الصلة بالعلم النافع وأهله من

---

(١) «الطبقات»: (٦/ ٢٠٧).
(٢) «حلية الأولياء»: (٤/ ١٥٨).
(٣) المصدر السابق (٩/ ٣١٩).
(٤) انظر: «تهذيب التهذيب»: (٨/ ٧٥).

الصحابة رضي الله عنهم، ونقل ذلك في حدود المستطاع إلى الأمة بالكلمة والوصية والقدوة التي هي من أقوى ألوان التربية وأعظمها أثرًا في نفس المتلقي.

وفي عود على بدء، كم هو باعث لانشراح الصدر حقًا، ما نقع عليه من أمرٍ ثريٍّ بالندى والضياء، يهدينا بسهولة ويُسر إلى أن ما كان عليه تابعينا من هذا التكامل المستنير في شخصيته: هو من الفضل الإلهي الذي تمثل في إجابته ـ وهو الكريم المنان ـ دعوات جامعات دعاها رحمه الله من قلب خاشع خاضع مضمومًا إلى ذلك استعداده الذي فطره الله عليه، وما أُكرم به من نعمة أن يكون واحدًا من التلامذة الجادين المخلصين لبعض أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام.

قال عبد الله بن المبارك عن فضيل بن عياض عن الأعمش قال: قال عمرو بن عتبة بن فرقد: «**سألت الله ثلاثًا فأعطاني اثنتين وأنا أنتظر الثالثة؛ سألته أن يزهدني في الدنيا، فما أبالي ما أقبل منها وما أدبر، وسألته أن يقويني على الصلاة فرزقت منها، وسألته الشهادة فأنا أرجوها**»[1]، **وما رجاه من الشهادة في سبيل الله قد تحقق ولله الحمد والمنة**؛ إذ استجاب الله له سؤاله إياها، كما يأتي ذكر ذلك إن شاء الله.

وما أكثر الوقائع التي تعلن إعلانها بما أكرم الله به عَمْرًا من إجابة تلكم الدعوات! . جاء في «المصادر» أن هذا العالم العامل الزاهد المجاهد كان

---

(١) «الحلية»: (٤/ ١٥٥، ١٥٦)، «تهذيب التهذيب»: (٨/ ٧٥).

له كل يوم رغيفان، يتسحَّر بأحدهما ويفطر بالآخر[١]. ولا يخفى ما بين هذا الصنيع وبين ما كان عليه النبي ﷺ وكثير من الصحابة في كثير من الأحايين من نسب، كما لا يخفى ما لهذا اللون من التربية والتعليم من بالغ الأثر في التخفيف من الجشع، وأن تحلَّ لذة العبادة محلَّ التشهي الدائم للذائذ المتاع الزائل!.

ولكم نكون منصفين مع أنفسنا ومع أهلينا وذوينا ومن ولانا الله أمرهم ـ والحال هي الحال رغبة في الاستزادة من الاستمتاع بالشهوات، ونسيان المنعم رب البريات، حيث اهتزت القيم عند الكثيرين، والمعوقات في طريق التربية الصالحة تنمو وتتكاثر يومًا بعد يوم ـ لكم نكون منصفين إذا جدّدنا الصلة بالأسلوب الحكيم المؤثر، بين هؤلاء وأولئك، وبين هذه الصفوة من الربانيين **أمثال عمرو بن عتبة الذي لم تصرفه الزهادة في المتاع الزائل من الدنيا عن أن يكون في مقدمة المصلحين الذين يعيشون واقعهم، ويجاهدون في سبيل الله، ويسهمون إسهامًا حقيقيًا في بناء حضارة الإسلام**.

ومما يجب أن يوضع في الحسبان: أن هذا الإمام الرباني كانت الطريق ميسرة لديه لحيازة الدنيا والاستكثار من شهواتها وملذاتها، ولكنه آثر الباقية على الفانية، فكان همُّه الإنفاق في سبيل الله من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة، من هنا كان بذل المال على طريق الجهاد ـ مثلاً ـ أمنية غالية عنده ـ أكرم الله مثواه ـ ولذَّته في هذه السبيل تعلو على كل ما يجده

---

(١) «الحلية»: (٤/ ١٥٧).

طلاب الفانية في حيازة المال وجمع المتاع .

حدث عيسى بن عمرو عن السدي قال : «خرج عمرو بن عتبة بن فرقد، فاشترى فرسًا بأربعة آلاف درهم ، فعنفوه ، يسْتَغْلونَه» ، ولكن ما كان يتطلع إليه عمرو هو أعلى وأغلى من تلك الآلاف من الدراهم ؛ إنه يرجو أن ينادى يوم القيامة من باب الجهاد بالمال والنفس ؛ **قال رحمه الله لأولئك الذين عنفوه وقد هالهم ثمن الفرس : ما من خطوة يخطوها يتقدمها إلى عدو الله إلا وهي أحب إليَّ من الأربعة آلاف**[1] . .

أرأيت إلى هذا الإيمان العميق بما عند الله وما أعد ـ جلَّ شأنه ـ لأحبائه المجاهدين بالمال والنفس! **فأين المال وهو من حطام الدنيا مما للمؤمن عند مولاه عز وجل؟!** . إنه التذوق الإيماني لوعد الله ووعد رسوله عليه الصلاة والسلام ، وهو أمر وراء المعرفة ، وهنيئًا ثم هنيئًا لمن ينتفع بهذا التعليم الرباني ، ويكرمه مولاه بأن يسهم في بناء الحياة الإسلامية كما يحب ربنا ويرضى ، وهو سبحانه المستعان .

* * *

---

(١) المصدر السابق (٣/ ١٥٦ ، ١٥٧).

مع التابعي عمرو بن عتبة بن فرقد السُّلمي

ـ ٢ ـ

ما يزال الحديث موصولاً بالكلام على واحد من عيون الربانيين في أمتنا، وهو التابعي **عمرو بن عتبة بن فرقد** رحمه الله وأعلى مقامه في الآخرين.

ففي الوقفة اليسيرة التي كانت لنا من قريب أبصرنا جانبًا مما تحقق له بفضل الله وعونه من إجابة دعوته التي سأل الله فيها أن يزهده في الدنيا؛ حيث قال: سألته أن يزهدني في الدنيا، فما أبالي ما أقبل منها وما أدبر، هذا في الوقت الذي كانت أسباب اليسر والسعة الدنيوية متوافرة لديه، وأن المال الكثير موجود، وهنا كانت تكمن الزهادة الحقيقية التي ينبئُ عنها البذل والجهاد بالمال في سبيل الله.

وما أعظم ما أشرقت به الكلمة الهادية في كتاب الله العزيز من بشارة ونذارة في شأن هذه القضية ذات الأهمية في حياة المسلم؛ حيث قال الله تعالى في سورة الشورى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[1].

والحق أن الغنى غنى النفس كما بيَّن الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام بقوله ـ كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما من قوله ﷺ: «**ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى**

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٠.

النفس»[١] .

فما أكثر الفقراء الذين تفيض الثروة في أيديهم، ولكنهم كذلك؛ لأن نفوسهم تفتقد الغنى وتعاني من فقر مدقع؛ وما أكثر الأغنياء الذين قد لا يجدون إلا الكفاف يعيشون عليه مستغنين عن سؤال الخلق؛ لأن نفوسهم غنية بالرضا شاكرةٌ لله عدمَ الوقوع في مذلَّة سؤال الناس أعطَوْهم أو منعوهم. والعاقل من يفقه ويتعظ!!.

ومهما يكن من أمر، فإن ما كان عليه عمرو بن عتبة من الزهادة والرضا بالكفاف، لا ينسينا أن لله عبادًا تجتمع لهم الدنيا مع غنى النفس؛ وتراهم يؤدون الحقوق الواجبة في المال، ويتجاوزون ذلك إلى النوافل إنفاقًا في سبيل الله؛ لذا يكون لهم من تقواهم ومن التصديق الجازم بوعد الله ووعيده، ووعد الرسول ﷺ ووعيده، عندما يتوافر لهم المال أو أي لون من ألوان القدرة الاقتصادية، ما يجعلهم يسارعون إلى العطاء والنجدة في سبيل الله سرًا وعلانية راجين تجارة لن تبور. وهذا من أعظم أنواع الشكر لمولاهم المنعم المتفضل سبحانه.

وكم أسهم هؤلاء الموفقون عبر تاريخنا الطويل ويسهمون، في إحكام البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في المجتمع والدولة، ونماذج ذلك كثيرة في الماضي والحاضر ـ بحمد الله ـ بدءًا من أبي بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وأضرابهم، والخير في الأمة كثير لو توافرت السبل

---

(١) البخاري في الرقاق (١٥)، مسلم في الزكاة (١٢٠)، الترمذي في الزهد (٤٠)، ابن ماجه في الزهد (٩)، أحمد في «المسند» (٢/ ٢٤٣، ٢٦١، ٥٤٠).

الحكيمة لفتح مغاليق النفوس، وما به يزداد الإيمان بالغيب والحرص قلبًا وعقلاً على حسن العاقبة التي وُعد بها المنفقون في سبيل الله بعد أن زُكُّوا وتطهرت نفوسهم بأداء الزكاة.

على أن الهمم في الطاعة تتفاوت، والعزائم في الإقدام على العطاء في إقبال على الله تعالى ليست على سوية واحدة، والتفاضل حاصل في هذا الرزق العظيم! والموفق من هدي إلى أن يدور مع الحق الذي نزل به الكتاب حيث دار.

وهذا ما ينطق به سلوك تابعيِّنا عليه الرحمة والرضوان.

أرأيت إلى ما ردَّ به على أولئك الذين غالوا في لومه على دفع آلاف الدراهم ثمنًا لفرس يحمل مجاهدًا إلى ساحة المعركة في سبيل الله؟ لقد ردَّ بكلمات هي من معالم الثقافة الإيمانية المستنيرة في حضارتنا المثلى، قال لهم ـ كما أسلفنا من قبل ـ: **ما من خطوة يخطوها** ـ يعني الفرس الذي اشتراه ـ **إلا وهي أحب إليَّ من أربعة آلاف!!** وكأنه يقول: أين المال مهما كثر وتكدَّس مما للمؤمن المجاهد بماله ونفسه عند مولاه عز وجل؟!

من أجل ذلك يحرص المصلحون الذين تؤرقهم العملية التربوية على هذه الشاكلة التي ينشدها الربانيون، على أن يكون لهذه العملية النصيب الأوفى من الاهتمام في دنيا الأمة بمختلف الميادين.

إن هذا الذي رأينا عند هذا التابعي الجليل، ونظائره كثيرة ـ بحمد الله ـ في تاريخنا الماضي والحاضر: امتحانٌ للنفوس، أعزز به من امتحان يكشف عن مدى التصديق اليقيني بوعد الله ووعيده، وبرهانٌ أكرم به من برهان يُميط اللثام

عن مقدار صدق الوجهة في الفرار إلى الله والإخلاص في الدين؛ بحيث يستنير القلب وينأى عن أي مطلب يشغل عن صفاء التوحيد، ومتعلقاته ومستلزماته على صعيد الاستقامة على شرع الله، والتحلي بمكارم الأخلاق!

ولكم تستوقفك هذه الإضاءة الذهنية التي تنبئُ عن سلامة المحور الذي تتحرك حوله نظرات الحكم في مواجهة الواقع رغبًا أو رهبًا؛ **فالموفّق في نظر أهل السلوك الربانيين من يكرمه الله بأن يكون في حالات العسر واليسر والفقر والغنى، والشدة والرخاء، والمنشط والمكره، ملزمًا قلبه التقوى، جاعلًا إياها زاده الذي لا زاد يدانيه،** الأمر الذي يسعف في صواب العمل وسلامة الحكم على التصرفات، ناصبًا الآخرة أمامه؛ فالآخرة خير وأبقى كما هي وصية الإمام المبجَّل أحمد بن حنبل لصديقه وأخيه الإمام الحجة علي بن المديني رحمهما الله إذ قال له وهو يستوصيه: «**ألزم التقوى قلبك، وانصب الآخرة أمامك**»، وفي رواية: «**اجعل التقوى زادك وانصب الآخرة أمامك**»[(١)].

روى أبو نُعيم بسنده في كتابه «الحلية» عن عبد الله بن ربيعة قال: قال عتبة بن فرقد لعبد الله: يا عبد الله، ألا تعينني على ابن أخيك يعينني على ما أنا فيه من عمل ـ وكان واليًا على ماسَبَذان ـ فقال له عبد الله: يا عمرو، أطع أباك، قال: فنظر إلى مِعْضد وهو جالس، فقال له مِعضد: لا تطعهم واسجد واقترب. فقال عمرو: يا أبت، إنما أنا عبد أعمل في فكاك رقبتي، فدعني أعمل في فكاك رقبتي، قال: فبكى عتبة فقال: يا بني، إني لأحبك حُبَّيْنِ:

---

(١) انظر: «التقوى في الكتاب والسنة» لمحمد أديب الصالح (١/ ١٥٦).

حبًّا لله، وحبَّ الوالد لولده. قال عمرو: يا أبت، إنك قد كنت أتيتني بمال قد بلغ سبعين ألفًا، فإن كنت سائلي عنه فهو ذا فخذه، وإلا فدعني فأمضيه. قال له عتبة: فأمضه! قال: فأمضاه في سبيل الله، فما أبقى منه درهمًا»[١].

سبحان ربنا العلي الأعلى الوهاب، يؤتي فضله من يشاء وكما يشاء وهو ذو الفضل العظيم. **نقرأ نبأ هذه الواقعة في حياة هذا العَلَم من أعلام الإسلام الربانيين، وهي واقعة تنبئُ عن الزهادة الحقيقية في الدنيا؛ فالمال الوفير موجود، وصاحبه ينفقه في سبيل الله، ويرضى باليسير من الدنيا، والصبرِ على شظف العيش رغبة بما عند الله سبحانه لطلاب الآخرة المفلحين**، نقرأ نبأها فيحملنا ذلك على استذكار ما مرَّ بنا في صدر هذا الحديث من أنه ـ أجزل الله مثوبته في الآخرين ـ كان له كل يوم رغيفان، يتسحَّر بأحدهما، ويفطر بالآخر.

هذا ما رضيه لنفسه وأخذها به يرحمه الله، في تطلُّع إلى الآخرة ونعيمها الباقي الذي لا ينقطع ولا يزول، وصدق ربنا إذ يقول سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[٢].

* * *

(١) «الحلية» (٤/١٥٦).
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٩.

مع التابعي عمرو بن عتبة بن فرقد السُّلمي

ـ ٣ ـ

هذا أوان العود إلى الحديث عن التابعي الشهيد عمرو بن عتبة الذي وفِّق لوثيق الصلة بالربانية علمًا وعملاً وتعليمًا، ورغبة في الخير، وجهادًا وزهادة في الدنيا مع توافرها بين يديه، وشدة تمسك بالدين، وإكثارًا من العبادة والقربات.

ويقتضينا هذا العود استذكار ما حدّث به فضيل بن عياض عن الأعمش قال: قال عمرو بن عتبة بن فرقد: «**سألت الله ثلاثًا، فأعطاني اثنتين، وأنا أنتظر الثالثة، سألته أن يزهدني في الدنيا، فما أبالي ما أقبل منها وما أدبر، وسألته أن يقويني على الصلاة فرزقني منها، وسألته الشهادة، فأنا أرجوها**».

وقد وقَفْنا من قبل على العديد من الوقائع التي تنهض دليلاً قاطعًا على أنه ـ أكرم الله مثواه ـ قد ظفر بإزاحة قلبه عن الدنيا بزهادة حقيقية، جعلته لا يبالي ما أقبل منها وما أدبر، وكل ما يبتغيه منها قدر يسير يتبلَّغ به راضيًا شاكرًا على طريق الاستمساك بالدين، وطاعة رب العالمين.

وفيما وراء ذلك شهد القاصي والداني من سلوكه يدًا مبسوطة في الإنفاق في سبيل الله، بعيدًا ذلك كل البعد عن إتباع ما ينفق منًّا أو أذى، **وأبرز وجوه هذا الإنفاق عنده ما كان جهادًا بالمال في سبيل إعلاء كلمة الله يصحب جهاده بالنفس، وإنها لطريق مباركة تبدأ بهذا اللون من الجهاد**

بالمال والنفس وتنتهي بجنة عرضها السموات والأرض، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ومن النصفة أن نشير هنا إلى حقيقة أن الرباني - وهو يعلم بالقدوة تصحب الكلمة؛ والموقف يصحب الوصية - لا يحيد قِيدَ أنملة عن ضوابط الشريعة، ولكن الهمم تتفاوت، والعزيمةُ عند رجل من أهل القرب قد لا تجد نظيرها تمامًا عند غيره، والتابعون للصحابة بإحسان في عصرهم، هم في طليعة من كانوا يصدرون عن هذا النبع السلسبيل.

وهذا ما يدعو إلى القول بأن الزهادة في الدنيا، والاستعلاء على التراخي في طاعة الله نتيجة الاستمتاع بها، مع إمكان توافرها بين يدي العالم الرباني: هي - بتوفيق الله - من عمل أهل العزائم الذين يذوقون حلاوة الفقر في طاعة الله والتبتل إليه، أكثر مما يذوق غيرهم حلاوة الجِدَة مالاً وولدًا وجاهًا، فيتلهون بها عن ذكر الله وأداء حقوق الله وحقوق العباد؛ ذلك بأن **أهل الآخرة الموفقين الذين لا تستعبدهم الدنيا وملاذها وأهواؤها، يتطلعون - أبدًا - إلى حسن العاقبة، وما يكون الذخرَ الأبقى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرًا، وما عملت من سوء تودُّ لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا؛ فلا المال، ولا الجاه، ولا القوة التي يضعها الذين نسوا الله واليوم الآخر في خدمة الشيطان والهوى: بصارفهم عن ذلك الطلب العظيم والغاية المثلى.**

وبعد، فلا تثريب علينا أن نتجاوز الحديث عما ظفر به عمرو من إجابة الأولى من دعواته، وهي الزهادة في الدنيا إلى ما أكرمه الله به من إجابة

الثانية التي عبر عنها بقوله: «**وسألته أن يقويني على الصلاة فرزقني منها**».

والصلاة ـ وهي صلة بين العبد وربه ـ كم يغبط أهل القرب على ما يجدون فيها من لذة المناجاة والوقوف الخاشع الخاضع لمولاهم عز وجل، والأمر عند الربانيين مرتبط بما تكون عليه الحال يوم القيامة من نشر الصحف، والكشف عن حقيقة ما كان عليه العبد في صلته بربه وصلته بالآخرين، وهل يعطى كتابه بيمينه أم بشماله أو من وراء ظهره؛ لأن صحف الأعمال تطوى في نهاية الحياة، والعاقبة للمتقين، وكم كان شديداً خوف عمرو من طي الصحف ورفع الأعمال، كثيرًا لجوؤه إلى الصلاة صافًا قدميه، متهجدًا باكيًا حتى يصبح فيشهد صلاة الفجر مع الجماعة!!

حدث عيسى بن عمر قال: **كان عمرو بن عتبة بن فرقد يخرج على فرسه ليلاً، فيقف على القبور فيقول: يا أهل القبور، قد طويت الصحف، وقد رُفعت الأعمال، ثم يبكي، ويصف قدميه حتى يصبح، فيرجع، فيشهد صلاة الصبح**[١].

وروى أبو نعيم بسنده في «الحلية» عن ابن المبارك قال: حدثنا الحسن بن عمر الفزاريُّ قال: حدثني مولىً لعمرو بن عتبة قال: استيقظنا في يوم حارٍّ فطلبنا عمرو بن عتبة، فوجدناه في جبل وهو ساجد، وغمامة تظله، وكنا نخرج إلى العدو، فلا نتحارس لكثرة صلاته، ورأيته يصلي، فسمعنا زئير الأسد قريبًا وهو قائم يصلي لم ينصرف، فقلنا له: أما خفت الأسد؟

---

(١) «الحلية» (٤/١٥٨).

فقال : **إني لأستحيي من الله أن أخاف شيئًا سواه**[١] .

كما روي عن عبد الله بن أحمد قال : حدثني أبي قال : حدثنا سعيد بن عامر عن هشام الدَّسْتَوائي قال : «لما توفي عمرو بن عتبة بن فرقد، دخل بعض أصحابه على أخته، فقال : أخبرينا عنه، فقالت : قام ذات ليلة فاستفتح سورة حمٓ، فلما أتى على هذه الآية ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾، فما جاوزها حتى أصبح» أجل، فما جاوزها حتى أصبح، وحُقَّ له ذلك بما أوتي من صفاء القلب، وخشية الرحمن بالغيب، واليقين بيوم الحساب . . وشدة التأثر بما يكون عليه الناس يوم الآزفة الكبرى، وقد لفَّهم الهول الهائل، وضربت عليهم الشدة الشادَّة بالأسداد، حتى بلغت القلوب الحناجر حقيقةً أو تجوُّزًا، لما يلقى الناس من عظيم الهول والجزع، كما تقول العرب : **كادت نفسي أن تخرج**، وهذا المعنى ـ كما يقول العلامة ابن عطية ـ يجده المفرِّط الجزِع، كالذي يساق إلى القتل ونحوه[٢] .

وهنيئًا لعمرو بن عتبة وأضرابه من أولئك الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا . . . هنيئًا لهم ما يغمر قلوبهم من هذا الحسِّ الإيماني الدقيق الوضاء، القائم على التأثر البالغ بالكلمة القرآنية، والتصديق الجازم بما جاء به الخبر الصادق عن يوم القيامة، حتى كأنهم يرونه، ويحسُّون ما فيه، حيث لا فرق عندهم في هذه الحال بين عالم

---

(١) المصدر السابق (٤/ ١٥٧).
(٢) المصدر السابق (٤/ ١٥٨).

الغيب وعالم الشهادة!

هذا صفوان بن سُلَيْم المتوفى سنة اثنتين وثلاثين ومائة يقول فيه أبو ضمرة أنس بن عياض: «**رأيت صفوان بن سُليم ولو قيل له: غدًا القيامة ما كان عنده مزيد على ما هو عليه من العبادة**»(١).

وفي عود على بدء؛ يبدو ـ والله أعلم ـ أن الله أكرم عمرًا باستجابة دعوته الثالثة وهي **الشهادة في سبيل الله**، وقد مرّ بنا قوله راجيًا مولاه ذلك: «**وسألته الشهادة، فأنا أرجوها**».

قال عبد الله بن المبارك: أنبأنا عيسى بن عمرو عن السدي قال: حدثني ابن عم لعمرو بن عتبة قال: نزلنا في مرج حسن، فقال عمرو بن عتبة: ما أحسن هذا المرج! ما أحسن الآن لو أن مناديًا نادى: يا خيل الله اركبي! فخرج رجل، فكان في أول من لقي، فأصيبَ، ثم جيءَ به فدفن في هذا المرج.

قال: فما كان أسرع من أن نادى منادٍ: يا خيل الله اركبي، فخرج عمرو في سرعان الناس في أول من خرج، فأُتي عُتبةُ فأُخبر بذلك. فقال: عليَّ عَمْرًا، عليَّ عَمْرًا، فأرسل في طلبه، فما أُدرك حتى أُصيب. قال: فما أُراه دُفن إلا في مركز رمحه، وعُتبة يومئذ على الناس.

قال: وقال غير السُّدي: أصابه جرح فقال: والله إنك لصغير، وإن الله تعالى ليبارك في الصغير، دعوني في مكاني هذا حتى أمسيَ، فإن أنا عشت

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» (١٣/ ٢١، ٢٢).

فارفعوني. قال: فمات في مكانه ذلك[١].

وحدّث الأعمش عن إبراهيم بن علقمة قال: خرجنا ومعنا مسروق وعمرو بن عتبة ومِعضد غازين، فلما بلغنا ماسَبَذان وأميرها عتبة بن فرقد، فقال لنا ابنه عمرو بن عتبة: إنكم إن نزلتم عليه صنع لكم نُزُلاً، ولعله أن تظلموا فيه أحدًا، ولكن إن شئتم قِلْنا في ظل هذه الشجرة، وأكلنا من كِسَرنا، ثم رجعنا. ففعلنا.

فلما قدمنا الأرض قطع عمرو بن عتبة جبة بيضاء فلبسها، فقال: والله إن تحدُّر الدم لي على هذه لَحَسنٌ، فرُمِيَ، فرأيت الدم يتحدر على المكان الذي وضع يده عليه، فمات.

وفي رواية: فخرج عمرو بن عتبة وعليه جبة جديدة بيضاء، فقال: ما أحسن الدم يتحدَّر على هذه. قال: فأصابه حجر فشجه، قال: فتحدر الدم عليها فمات منها فدفناه[٢].

❊ ❊ ❊

(١) «الحلية» (٣/ ١٥٩)، «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٦٦).
(٢) المصدر السابق (٤/ ١٥٥).

الربانيّة.. وموقع الإنسان في الإسلام

ما نظرت في طرف من سير أعلامنا النبلاء صانعي تاريخنا الحقيقي المشرق بالقيم الإنسانية الرفيعة، وبُناة حضارتنا المثلى المستنيرة بضياء الهدي الرباني الحكيم، وبخاصة من غذوا أكثر وأكثر بلبان الربانية: إلا شهدت عظم موقع الإنسان في رسالة الإسلام، وما أعطي هذا الإنسان من اهتمام بالغ، ومن عناية فائقة تكرم إنسانيته وتقدر حريته قدرها، وتبنيه على منهج إيماني متكامل، لا ينبو عن الفطرة وتنمية الحوافز، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة من طاقاته، وألوان أهليته، ومقومات وجوده واستعداده: إلا وضعها موضعها من الحركة، وبواعث العطاء، وعمل على تناسق وظائفها على صعيدي البناء والنماء.

وهكذا كان هذا الفيض من عظمائنا وأعلامنا الربانيين وما بنوا من حضارة لا تجارى ـ بعد توفيق الله عز وجل ـ ثمرةً من ثمرات الوجود الحقيقي للإنسان، الوجود الذي لا تنتهك فيه حرمة، ولا تصادر حرية، ولا تمتهن كرامة، فعلَ الذين لا يرجون لله وقارًا.

إنها الحكمة البالغة في منهج يأخذ الإنسان فيه موقعه المناسب في اتساقٍ مع الكون والحياة؛ الأمر الذي يتيح له أن يؤدي ما ينبغي أداؤه في ظل هذا التناسق البديع!

وغير خافٍ أن هذا المخلوق الذي سوَّاه الله ونفخ فيه من روحه، وخلقه في أحسن تقويم وأسجد له ملائكته، قد فضّله ـ جل شأنه ـ على كثير ممن

خلق تفضيلًا، وأهَّل أفرادًا من بنيه للتسامي بصفاء بالغ على أوضار المادة، ونوازع الطين، والقدرة على تلقي وحي السماء ـ والله أعلم حيث يجعل رسالته ـ وكان خاتمهم وسيدَهم وإمامَهم صاحبُ المقام المحمود والحوض المورود والشفاعة العظمى نبينا محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

وعلى صعيد العبودية لله سبحانه الذي كرَّم هذا المخلوق ورزقه من الطيبات: لقي الإنسان في شرعة الإسلام وتعاليمه الربانية المتميزة، ومنهجه الفريد في التربية والإعداد ـ إلى جانب ما فُطر عليه من التوحيد، وما أودع الله فيه من الاستعداد والأهلية ما يرتفع به ـ أن لو جانب سبيل الغَي وتزيين الشياطين والهوى ـ إلى مرتبة حسن التلقي لأمر الله ونهيه، واستقبالِ دعوة الهداية بعقل نيِّر وقلب لا يعوزه الصفاء، وأهلية العمل **لأن تكون كلمة الله هي العليا في كل شأن من شؤون الدنيا والدين**، ناهيك عن أن يكون سيره في الحياة ـ على اختلاف الميادين وتنوُّع الواجبات والحقوق ـ سيرًا يتسم بعلو الهمة وصدق العزيمة والتضحية في سبيل الله، الأمر الذي يجعل من حركته ترجمانًا أمينًا لما يحمل بين جنبيه من صادق المعتقد، ولما طابت به نفسه ـ وقد خالط الإيمان بشاشة قلبه ـ من أحكام الدين الشاملة المتوازنة التي لكلٍ من النص والاجتهاد فيها مكانه الطبيعي، وأخلاقه العظيمة، وآدابه العالية الكلية. **وكل أولئك على قاعدة صُلبة ربانية من التعلم والتعليم، والدراسة والتربية والتدريس، والانتفاع بمعطيات العقل والعلم انتفاعًا يصحبه إدراك الواقع العام والواقع الخاص، وما يطرأ عليهما من تبدلات.**

وعندما تحقق هذا في حياة المسلمين، كان العطاء الكبير الذي لم تحدَّه الأوضاع الجغرافية، ولكن تعداها ليكون لخير الإنسانية جمعاء، ولإنشاء الحضارة التي تضمن الوجود الحقيقي للإنسان؛ حيث الإنسانيةُ، والكرامة، والحرية المنضبطة بضوابط الشرع والعقل السليم، والسبيلُ التي يظفرُ متبعوها بسعادة الدارين، وإنما يكون ذلك **لأن العبودية الصادقة لله تحرر الإنسان من أيِّ ذلةٍ أو خضوع لغير الله.**

هكذا تفجرت ينابيع الخير على يد هذا الإنسان حين امتدت إليه يد الإسلام الصناع بغرسة الإيمان، وأسلمته على صعيد الحركة والحياة، إلى منبع يضع إنسانيته موضعها اللائق، ويسير بكل أمر ينتمي إلى الإنسان، فطرةً، وميولاً، وغرائز، ومشاعر، وإمكانات مادية ومعنوية إلى حيث يؤدي كل منها وظيفته في حركته وعلاقته بالكون والحياة على النهج المرضي لخالق القوى والقدر الذي خلق فسوى، الذي قدر فهدى سبحانه.

وخرج إلى دنيا الناس ثروة عظيمة وطاقة فعالة مؤثرة على صعيد البناء المتكامل له وللحياة، قادرة على انتهاج السبيل الأقوم الذي يضمن ـ بعون الله ـ استدامة الخير والعطاء، في صعود متجدد على سلَّم العزة الإيمانية والتمكين؛ وهو صعود تظلُّه وتسدد خطاه العبودية الخالصة لله عز وجل، **العبودية التي تحرر الإنسان عقلاً وقلبًا وسلوكًا من كل طاغوت داخل نفسه أو خارجها، الأمر الذي يرقى بالمكلف إلى مرتبة التكامل في السلوك؛ حيث الجمع بين الإسهام بحركة الحياة وإعمار الأرض،و بين العمل الدائب بصفاء قلب واستنارة عقل على طريق النجاة يوم الدين وحسن**

العاقبة يوم العرض على رب العالمين، يوم يعرف المجرمون بسيماهم، فيؤخذ بالنواصي والأقدام، وترى الظالمين ـ وقد افتضح أمرهم على رؤوس الأشهاد ـ ما لهم من حميم ولا شفيع يطاع، **وهنالك تشهد الخلائق جميعها خيرية هذا الدين وصواب المستمسكين بحبل الله المتين**.

وبعد، فما أكثر ما يدل سلوك الرجل الرباني الذي يشرق في جنباته هدي قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ على هذه الحقائق بوضوح، والعهد قريب بما روى أبو نعيم عن حماد بن سلمة وهو يتحدث عن الإمام الرباني سليمان التيمي، الذي سعدنا فيما سبق من القول باصطحاب بعض من مآثره العلمية والعملية قال: «**ما أتينا سليمان التيمي في ساعة يطاع الله عز وجل فيها إلا وجدناه مطيعًا، إن كان في ساعة صلاة وجدناه مصليًا، وإن لم تكن ساعة صلاة وجدناه إما متوضئًا، أو عائدًا مريضًا، أو مشيِّعًا لجنازة، أو قاعدًا في المسجد، فكنا نرى أنه لا يحسن يعصي الله عز وجل**»[(١)].

هذا هو العلم الذي يصحبه العمل، وتلكم هي الطاعة القائمة على العلم، وذلك كله لم يحل دون عالمنا الرباني ودون مزاولة الحياة الاجتماعية مع جماعة المسلمين؛ فمن عيادة مريض إلى تشييع جنازة إلى قعود في المسجد مع الذاكرين وطلاب العلم النافع والمصلين، **وكل ذلك من مظاهر الأخوة في الله**، والعمل بسنة النبي عليه الصلاة والسلام.

---

(١) «الحلية» (٣/ ٢٨) وانظر: «التقوى في الكتاب والسنة» لمحمد أديب الصالح (١/ ١٥٦).

وهذا المسلك من التيمي صورة من صور التربية العملية بالقدوة، ودعوة صامتة إلى تهذيب النفس وأخذها بمَلء الوقت في طاعة الله .

ولسوف يظل هذا اللون من التربية بالعلم والعمل والقدوة ـ كما هو منهج الربانيين ـ بالغ النفع حسن التأثير في أولئك الموفقين الذين تنشرح صدورهم لذلك، ويزدادون إقبالاً على الله ـ كائنًا ما كان الثغر الذي أقام الله الواحد منهم عليه ـ، لما أنهم يقعون على أقوال تصدقها الأفعال، أصحابها بشر من البشر، همُّهم أن يعلموا ويعلِّموا ويعملوا، وأبلغ ما في الأمر أنهم يترجمون القيم إلى حركة منهجية فاعلة، وعمل صالح دؤوب .

ثم إن هذا العالم العامل لم يكن ـ وقد استغرقته الطاعة وشدة التمسك بالدين ـ قليل الاهتمام بأوضاع المسلمين، أو معتزلاً جماعتهم، بل نجده يتخذ من عون الله ثم من حركته التي تزدان بالشمول، وتشرق بالإخلاص وسيلة ناجعة للإسهام في بناء الحياة الإسلامية على الوجه الذي ينبغي، والمشاركة في تدبير شؤون المسلمين، وتحقيق وجودهم الذاتي في شتى ميادين الحياة، وتلك واحدة من خصال تكاد تعز على الحصر، يغبط عليها الرباني وهو يترقى في مدارج أهل الفلاح المقربين .

* * *

مع التابعي الثقة عبيد بن عمير

ـ ١ ـ

هو العالم العامل القارئُ المفسِّر الثقة عبيد بن عمير بن قتادةَ الليثيُّ ثم الجندعي أبو عاصم المكيُّ قاصُّ أهل مكة، توفي ـ كما يقول الذهبي ـ قبل ابن عمر بأيام يسيرة، وقيل: توفي سنة أربع وسبعين[١].

وقد روى عن أبيه ـ وله صحبة ـ وعن عمر بن الخطاب، وعلي، وأبيّ ابن كعب، وأبي موسى الأشعري، وعائشة، وأم سلمة، وأبي ذر، وابن عباس رضي الله عنهم، وطائفة. وروى عنه ابنه عبد الله، وعطاء بن أبي رباح، ومجاهد، وعبد العزيز بن رفيع، وابنا أبي مليكة عبدُ الله وأبو بكر وعمرو بن دينار ووهب بن كيسان وآخرون[٢].

وهو التابعي الثقة الذي أجمعت المصادر على أنه من **كرام التابعين وكبارهم**، قال ابن سعد في «الطبقات»: «**كان ثقة كثير الحديث**»[٣]، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يجلس إليه ويقول: «**لله در ابن قتادة، ماذا يأتي به**».

وكلمة ابن عمر هذه تدل على التميُّز الذي كانت تتسم به شخصيةُ عُبيد هذا، وهو تميُّز مبعثه ـ والله أعلم ـ عمله بعلمه، ومخالطة القرآن تلاوة

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٥٧).

(٢) انظر: «طبقات ابن سعد»: (٥/ ٤٦٣)، «الحلية» (٣/ ٢٦٦)، «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر (٧/ ٧١).

(٣) «الطبقات» (٥/ ٤٦٣، ٤٦٤).

وتدبرًا آناء الليل وأطراف النهار، وخشية لله في السر والعلن، مع ما كان عليه من الحرص على إيصال النفع إلى الآخرين؛ وترى أنه إلى جانب ما شهد له جهابذة العلماء أنه من ثقات التابعين، كان من أئمتهم بمكة، وكان يذكِّر الناس بصدق لهجة وأدب مع الله، فيحضر ابن عمر رضي الله عنهما مجلسه، والمعروف أن أول من قصَّ: عبيدُ بن عمير على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه(١).

وبجانب ذلك كله اشتهر ـ عمومًا ـ بعبادته وتقواه في الظاهر والباطن، ونظراته الثاقبة التي تنمُّ عن كثير من الحصافة واستنارة البصيرة، والانتفاع الفيَّاض بمن لقي من الصحابة رضي الله عنهم وروى عنهم وهم كثير، وكم قدّم التابعون بإحسان إلى الأمة من الخير، بمخالطتهم الصحابة فيما تيسر للواحد منهم من ذلك، وقرب العهد بعصر النبي عليه الصلاة والسلام، والوجه المشرق لهذا الخير ـ مع ما نقلوا من العلم ـ تربيتهم الناس بالقدوة التي تشرق بنور التأسي بمن جعله الله الأسوة الحسنة للأمة بنبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام.

ولم تكن مكانة عبيد غائبة عمن عاصروه وأدركوا أصالة النسب بينه وبين الربانية؛ فعندما كان يُذكر البحر عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما بإمامته في الفقه في الدين، وما علَّمه الله من التأويل مصداقًا لدعوة الرسول ﷺ له بذلك، كان يُذكر عبيد بن عمير بأنه قارئُ القوم، والقارئُ يومذاك يجمع إلى صحة التلاوة، والصدق في تعليم الكتاب العزيز: العلمَ الراسخ

---

(١) المصدر السابق (٥/ ٤٦٣)، «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٥٧).

والعملَ به. روى سفيان بن عيينة عن داود بن سابور، عن مجاهد قال: كنا نفخر بفقيهنا، ونفخر بقارئنا، فأما فقيهنا فابن عباس، وأما قارئنا فعبيد بن عُمير[(١)].

ولقد كان عبيد رحمه الله واحدًا من أولئك الصفوة الذين اتخذوا من العلم النافع تعلمًا وتعليمًا طريقًا إلى معرفة الله، فكان جسرَهم إلى الدأب على العبادة والتزود بالتقوى، حتى باتوا ـ بحق ـ من أهل الخشية لله تعالى الذين يصدق فيهم قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾[(٢)].

وهذا الذي كان له في ذاته حيث القلبُ المتصل بالله، والنفسُ المستنيرةُ بالتزكية المطلوبة للفلاح، أعطاه ـ بإذن الله ـ نوعًا من المهابة في النفوس، والقدرة على الموعظة البليغة التي تتسم ـ بما يصحبها من الإخلاص ـ بالنفاذ والتأثير، فهي من القلب وإلى القلب.

قال فيما روى عنه مجاهد: «**كان يقال إذا جاء الشتاء لأهل القرآن: قد طال الليل لصلاتكم، وقصر النهار لصيامكم؛ إن أَعظَمكُم هذا الليلُ أن تكابدوه، وبخلتم بالمال أن تنفقوه، وجبُنتم عن العدو أن تقاتلوه، فأكثروا من ذكر الله عز وجل**»[(٣)].

وفي فهم مشرق بنور البصيرة لكتاب الله تبارك وتعالى، نجد وراء

---

(١) «الحلية» (٣/ ٢٦٦، ٢٦٧)، «النجوم الزاهرة» لابن تَغْري بَرْدي (١/ ٢٦٧).
(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٨.
(٣) «الحلية» (٣/ ٢٦٧).

التفسير لظاهر اللفظ، كما تعطيه الكلمات روحًا تواقة إلى العمل بالكتاب بتدبر وتذكُّر، وقلبًا يحسُّ ما وراء الكلمات على خط الهداية الوضاء، فعن الأعمش عن أبي راشد عن عبيد بن عمير في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾[(١)] قال: «الأواب الذي يستذكر ذنوبه في الخلاء، ثم يستغفر الله تعالى لها»[(٢)].

أوَلا ترى ـ يا أخي ـ إلى هذا المعنى الذي قدَّمه عبيدٌ للأواب، إذ انتقل من ظاهر اللفظ ـ كما يقتضيه معهود العرب ـ في أن معنى الأوبة الرجوع، إلى أن حقيقة الرجوع إلى الله تعالى وطاعتِه بحق: إنما تكون بأن يتذكر المذنب ما اجترح من الذنوب خاليًا، ليس معه أحد يراه أو يسمعه إلا مولاه الذي يعلم السر وأخفى، وهو عليم بذات الصدور، ثم يرجو المغفرة منه سبحانه وتعالى لتلك الذنوب، وهو على هذه الحال التي يدرك معها أنه لا يغفر الذنوب إلا الله، وأنه لا ملجأ ولا منجى منه جل شأنه إلا إليه! على أن باب التوبة مفتوح لمن آب إلى ربه وأناب وصدق بتوبة نصوح.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن العلامة ابن عطية ـ يرحمه الله ـ قال بعد أن أورد عددًا من أقوال المفسرين في المعنى المراد من «الأوابين»: «وحقيقة اللفظة أنها من آب يؤوب إذا رجع، وهؤلاء كلهم لهم رجوع إلى طاعة الله تعالى، ولكنها لفظة لزم عُرفها أهل الصلاح»[(٣)]، وقال الشيخ معين الدين

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٢٥. وانظر: «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» لابن عطية (٩/٥٨ ـ ٦٠).

(٢) «الحلية» (٣/٢٦٨).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٩/٥٩) لابن عطية.

محمد بن عبد الرحمن الإيجي في كتابه «جامع البيان في تفسير القرآن»: «**هم التائبون من الذنب، الراجعون عن المعصية إلى الطاعة**»(١).

وإذا كان الخير يذكِّر بالخير، فلننظر إلى وجه من وجوه أسلوب عُبيد الموفّق في التذكير بالله ويوم الحساب؛ هاهو ذا يقدِّم لنا صورة المال والأهل والعمل، وأنه لاينفع المرءَ يوم تنزل به نازلة الموت، وينقطع عن الدنيا وما فيها، حيث لا يغني المال ولا الأهل والعشيرة، إلا عملُه! قال ـ أحسن الله جزاءه ـ: «كان لرجل ثلاثة أخلاء، بعضهم أخصُّ من بعض، فنزلت به نازلة، فلقيَ أخصَّ الثلاثة به، فقال: يا فلان، إنه نزل بي كذا وكذا، وإني أحب أن تعينني، قال: ما أنا بالذي أفعل. فانطلق إلى الذي يليه في الخاصة، فقال: يا فلان، إنه قد نزل بي كذا وكذا، وأنا أحب أن تعينني، قال: فأنطلق معك حتى تبلغ المكان الذي تريد، فإذا بلغتَ رجعتُ وتركتك. قال: فانطلق إلى أخص الثلاثة. فقال: يا فلان، إنه قد نزل بي كذا وكذا، فأنا أحب أن تعينني، قال: أنا أذهب معك حيث ذهبت، وأدخل معك حيث دخلت.

فالأول: مالُه، خلَّفه في أهله ولم يتبعه منه شيء. والثاني: أهله وعشيرته، ذهبوا معه إلى قبره ثم رجعوا وتركوه. والثالث: هو عمله، وهو معه حيثما ذهب، ويدخل حيثما دخل».

ألا ما أجلَّها موعظة تثير ـ وقد أشربت روح الهدي النبوي على هذه الساحة ـ كوامن الإيمان، وما أعظمها عبرة تأخذ بمجامع القلوب، ولكن

---

(١) «جامع البيان في تفسير القرآن» لمعين الدين الإيجي: (١/ ٣٩٦).

ما أكثر الآيات والعبر وأقلَّ أولي النهى المعتبرين! .

وغير خاف أن انتفاع أبي عاصم يرحمه الله بماورد في السنة عن هذا الأمر الجلل: انتفاعُ من عرف الحقيقة فاعتبر وتبصر، ورأى الآيات ففقه، وتذكَّر وذكَّر الآخرين واعظًا إياهم، قائلاً لهم في أنفسهم قولاً بليغًا ينتفع به أولو الأبصار الموفقون.

❊ ❊ ❊

عود إلى التابعي الثقة عبيد بن عمير

ـ ٢ ـ

هذه خطوة أخرى مع الحديث عن التابعي الرفيع القدر عبيد بن عمير ، جزاه الله عن الإسلام والمسلمين كل خير ؛ والحديث عنه حديث عن العالم العامل العابد الحريص أشدَّ الحرص على تذكير الناس بربهم ، والعمل على فتح مغاليق القلوب بالكلمةِ النافعة ، والموعظة التي تخرج من القلب ، فتنشرح لها الصدور ، وتأخذ طريقها المؤثرة إلى تلك القلوب ، لما يصحبها من الإخلاص في التذكير ، والأدب مع الله العلي الكبير .

والذي يؤكد ما كانت تفعله كلمات أبي عاصم في النفوس ، بنداها وشفافيتها الروحية المؤثرة : ما أسلفنا من أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه وهو من أفاضل الصحابة علمًا وعملاً وخشية لله عز وجل ، ومن أكثرهم حرصًا على التأسي بالرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام في كل صغيرة وكبيرة . . كان يحضر مجلس تذكير هذا التابعي الجليل ويقول : «لله در ابن **قتادة ، ماذا يأتي به**» ، وقال العوَّام بن حوشب : «رؤي ابن عمر في حلقة عبيد بن عمير يبكي»[(١)] .

ولقد كان من نصح عُبيدٍ للأمة دعوتُه المتجددة إلى التفقه في الدين ، وأن يصحب هذا التفقه الذي هو الأساس المكين للاستمساك بشرعة الحق المبين ؛ وعبادةِ رب العالمين : عملُ المتفقه بما علم ـ على ما تحمل كلمة

---

(١) انظر : «تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر» (٧/ ٧١) .

الفقه هنا من الشمول بمعناها اللغوي العام، لا بمعناها الاصطلاحي الخاص ـ وذلكم طريق التحرِّي للرشد، وأن يكون الفقه في شريعة الله ـ طريقًا لطاعة الله بإخلاص وإنابة ورجاء للقبول، فمن أراد الله به خيرًا فقهه في الدين وألهمه فيه الهداية والرشد.

قال أبو نعيم في «الحلية»: حدثنا أبو بكر بنُ مالك قال: حدثنا عبد الله ابن أحمد بن حنبل قال: حدثنا أبي قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا الأعمش عن سفيان عن عبيد بن عمير قال: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، ويلهمه فيه رشده**» كذا رواه وكيع عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا مثله[١].

وأنت واجد أنه بمقدار ما يرزق العالم الذي يقيمه الله على ثغر التذكير والدعوة: من خشية الله، والاستزادة من التبتُّل إليه والذلة بين يديه، مصحوبًا ذلك بالإخلاص والتواضع والرفق بمن يدعوهم ويذكِّرهم بعيدًا عن التعنُّت والاستكبار والنفاق.. بمقدار ما يتوافر له ذلك: تتفتح لموعظته القلوب، ويوضع لكلامه في الناس القبول.

من أجل هذا ترى العلماء العالمين لا يفتؤون يديمون الحرص على سلامة أعمال الجوارح وأعمال القلب جميعًا، وهنالك يعمل تذكيرهم عمله من طريقين: طريقِ الكلمة النيِّرة التي سَداها ولحمتُها ما يودَع فيها من نور الهداية ووضاءة الإخلاص، وطريقِ القدوة والتأسي، عندما يتقدمون إلى الناس، وأعمالُهم وسلوكُهم وأخلاقُهم ترجمان حقيقي لما يدعون

---

(١) «الحلية» (٣/ ٢٦٩).

إليه، ويذكِّرون به عباد الله، سواء أكان ذلك من عالم الشهود، أم كان من عالَم الغيب.

ولا تسل عما يفعله هذا النهج الطيب في النفوس، وما يفتح من أقفالٍ تكون على بعض القلوب. حدّث عبد الله بن عبيد بن عمير قال: كان عبيد بن عمير إذا دخل المسجد وقد غابت الشمس، فسمع النداء قال: **اللهم إني أسألك عند حضور إقبال ليلك، وإدبار نهارك، وقيام دعاتك، وحضور صلاتك، أن تغفر لي وترحمني، وأن تجيرني من النار**. وإذا أصبح قال مثل ذلك حتى يصليَ الفجر(١).

هذه النفحة العلوية ـ ومثلها كثير في سيرة هذا الرجل الرباني وأمثاله ـ لا تخفى دلالتها على المنهج الرضيِّ المسلوك عند هؤلاء المربين بالعلم والعمل والقدوة؛ لما أنهم كانوا على قدم أولئك الذين تلقَّوا عن رسول الله ﷺ بلا واسطة، وصدق فيهم القول الحكيم: **عرفت فالزم**.

وفي ضوء هذه الحقيقة يصلنا الحديث بكلمات عِذاب تكشف بسهولة ويسر عن مدى التفاعل القلبي والعقلي بالكلمة الطيبة «**لا إله إلا الله محمد رسول الله**» عند التابعي عبيد، وعن مدى حرصه على التعريف بواحدة من علامات محبة الله تعالى للعبد، كيما يكون ذلك حافزًا للمكلف على كمال الرضا عن الله ما دام قد أكرمه الله بالإيمان، وحببه إليه، وزينه في قلبه.

روى أبو نعيم بسنده عن مجاهد عن عبيد بن عمير قال: «**إن الله تعالى**

(١) المصدر السابق (٣/ ٢٦٩).

يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا لمن يحب؛ فإذا أحب الله تعالى عبدًا أعطاه الإيمان». قال أبو نعيم: وهذا أيضًا روي مرفوعًا عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ[١].

وبعد: فما أعظم ما غمر قلب هذا الرجل الرباني من النور الإلهي الذي فاض على علمه وعمله حتى استقام له هذا السلوك المتوازن وهو يؤدي رسالة التربية والتعليم والتذكير، منتفعًا ـ بعد توفيق الله ـ بما يأخذ عن الصحابة الذين لقيهم، فكان أن آتاه الله من القدرة على أن تأخذ كلماته طريقها الراشدة إلى النفوس والقلوب، وتعمل عملها في التغيير إلى ما هو الأفضل والأقوم بإذن الله.

وهذا يذكِّرنا بما كان له من البصيرة النافذة في نظراته إلى الأعمال ومقدار جدواها عند الله، حتى كان كبيرًا في نفسه الراضية عن الله، وقلبه المطمئن بذكر الله، وكل ما هو من ذكر الله، وطلب مرضاته بسبيل؛ فالتسبيحة الصادقة بحمد الله النابعة من القلب الذي صفا من الأكدار والشوائب، فلا سلطان عليه إلا للتوحيد الخالص، أين من وزنها عند الله يوم القيامة ملء الأرض ذهبًا! يقول سفيان بن عيينة: سمع عمرو بن دينار عبيد بن عمير يقول: «**تسبيحة بحمد الله في صحيفة مؤمن يوم القيامة خير من أن تسير معه الجبال ذهبًا**»[٢].

ولم لا يكون الأمر كذلك؛ فالتسبيحة المخلصة الصادقة لهذا

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٢٦٩، ٢٧٠).
(٢) «الحلية»: (٣/ ٢٧٢).

المؤمن في كفة حسناته، والدنيا ـ بما فيها ـ إذا لم يؤد حقوق الله وحقوق العباد، ويراقب مولاه، ويأخذ الحيطة لأمر عقباه: فهي عليه، في كفة سيئاته يوم يحشر الناس لرب العالمين: لا له، والمعاذ الله.

ولم يكن عجبًا من العجب أن يمتد رواء هذه الفطرة الإيمانية الفاحصة إلى علاقته بالآخرين؛ **فالأخ الحقيقي عنده هو الأخ في الله الذي تجمعه وإياه عبودية صادقة لله، وحرصٌ لا يدانيه حرص على أن تكون كلمة الله هي العليا وشريعته هي المحكمة في شؤون الدنيا والدين.**

والآخرة التي وُعد بها المتحابُّون في الله هي المؤثَرة؛ فهذا الأخ في الله هو الذي ينبغي أن يحب، وهو الجدير أن يؤثَر بالود والعطاء وكريم الدعاء؛ فمن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله كما ورد في الحديث الصحيح: «**رجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه**» وما أكثر النصوصَ الهاديةَ التي تدل على ما للمتحابين في الله من عظيم الفضل عنده سبحانه!

وشأن هذه الأخوة عظيم عند عبيد جدُّ عظيم، يكشف عن ذلك ما كان يصنعه إذا آخى في الله أحدًا.

روى أبو نعيم في «الحلية» بسنده عن غيلان عن عبيد بن عمير: «**أنه كان إذا آخى في الله أحدًا أخذ بيده واستقبل به الكعبة وقال: اللهم اجعلنا شهداء بما جاء به محمد ﷺ، واجعل محمدًا ﷺ شهيدًا علينا بالإيمان، وقد سبقت لنا منك الحسنى، غيرَ متطاوَل علينا في الآمال ولا قاسيةً قلوبنا، ولا قائلين ما ليس لنا به علم**»، وموعدنا صفحات أخر نتابع فيها تجلية هذا الموقف القدوة، والله ولي التوفيق.

مرة أخرى مع عبيد بن عمير

- ٣ -

يوم تتشعَّب بالأمة السبل، وتلبَّس على كثير من أبنائها المعالم، وتطِلُّ الفتن بظلماتها تريد أن تسدَّ عليها منافذ الوجود الحقيقي . . . يوم تقع الأمة تحت وطأة هذه الدواهي : تبدو حاجتها أكثر إلحاحًا إلى مزيد من التعرف إلى تلك النخبة المباركة من أبناء الأمة، وهم الربانيون الذين لهم من تكوينهم النفسي، وإضاءتهم الذهنية وصفائهم القلبي، والعلم الذي قامت عليه هذه الصفات، ما يجعلهم بعون الله قادرين على أن يسهموا في إعادة الثقة إلى نفوس أبناء الأمة، وإثارة الحوافز الفاعلة على طريق التحويل إلى ما هو الأصلح والأقوم .

وليس من مكرور القول أن نعود إلى توكيد أن هؤلاء الرجال الذين أُكرموا بلباس الربانية في نور قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ ، تراهم وقد استناروا ظاهرًا وباطنًا بهدي النبوة، ووردوا معينها العذب الزلال، فراحوا يعملون بما علموا، ولا يبخلون بجهد ممكن على ساحة الواجب في التربية والتعليم بالكلمة والقدوة، والموقف، والإسهام بكل تحرك يعود على الأمة بالخير في دينها ودنياها، طاعةً لله، وطلبًا لمرضاته سبحانه وتعالى .

وإذا كان للقيام بأمر الله تلك اللذة التي يتذوق حلاوتها المؤمن، فإن من آثار ذلك ما يرى من أن الربانيين تهون في أعينهم الدنيا وملاذها، ويتفانون في طلب ما عند الله .

وفي الوقت الذي يدأب الذين في قلوبهم مرض على تقحم الحطام من هنا وهناك قائلين: نخشى أن تصيبنا دائرة، ترى هؤلاء البررة صُدُق الاعتزاز بإسلامهم، يستعلون باستعلاء الإيمان على الصوارف مهما كان شأنها في الترغيب والترهيب، **فهم أعزة بعزة الحق، أقوياء باعتصامهم بالله، لأنهم عبيد له وحده، ولا سلطان على قلوبهم لأحد غيره؛ فله يركعون ويسجدون، وبين يديه يخضعون ويتذللون، وله وحده يتوجهون.**

وجميل ما يلاحظ من منهجيتهم في بناء الفرد والجماعة على حسن الصلة بالخالق جل وعلا في ظل الأخوة الإيمانية والتحابِّ في الله تعالى، الأمر الذي ينعكس على بُنى المجتمع وكيان الأمة التي جعلها الله بالإسلام خير أمة أخرجت للناس.

والعهد قريب بما رأينا عند التابعي الثقة المربي عبيد بن عمير من حرصه على سلامة الوجهة عند أخيه في الله حرصه على سلامتها عنده هو في ذات نفسه، كيما يكون ذلك مركب الواحد منهما على طريق النجاة في الآخرة يوم يقوم الناس لرب العالمين.

يتبيَّن ذلك فيما ورد من أنه كان إذا آخى في الله أحدًا أخذ بيده واستقبل به الكعبة وقال: «**اللهم اجعلنا شهداء بما جاء به محمد ﷺ، واجعل محمدًا ﷺ شهيدًا علينا بالإيمان، وقد سبقت لنا منك الحسنى غيرَ متطاوَل علينا في الآمال، ولا قاسيةً قلوبُنا، ولا قائلين ما ليس لنا بحق، ولا سائلين ما ليس لنا به علم**».

فالصلة بينه وبين أخيه في الله، الذي يشركه في التوجه إليه سبحانه بهذه الدعوات الغاليات في ظل الكعبة: ليست صلة لغرض قريب، ولا من

أجل مطمع يلهث وراءه أهل الغفلة الذين يطلبون الدنيا بأي ثمن! ولكنها صلة عروتها الوثقى أن يكون الإخوة في الله شهداء بما جاء به محمد ﷺ، لا يقولون ما ليس لهم بحق، ولا يسألون ما ليس لهم به علم.

وما أعظم وأكرم أن يستجاب لهم فيكونوا كذلك ـ وقد سبقت لهم من الله المنعم المتفضل الحسنى ـ وأن يكون نبينا المصطفى صلوات الله وسلامه عليه شهيدًا عليهم بالإيمان، **فيسعدوا بأن يردوا عليه الحوض، وأن يُكرَموا بشفاعته جزاه الله عن الأمة خير ما جزى نبيًا عن أمته**، وآتاه الوسيلة والفضيلة، وبعثه المقام المحمود، إنه ـ عز شأنه ـ لا يخلف الميعاد.

هكذا يلاحظ أن ما يشغل بال الرجل الرباني، ويقضُّ مضجعه دائمًا أن يكون على حال تزيده إيمانًا بما جاء به محمد ﷺ من البينات والهدى، وأن يكون هو وأخوه في الله شهيدين بذلك، راجيًا من الله تبارك وتعالى أن يكرمه وأخاه بأن يشهد عليهما محمد ﷺ بهذا الإيمان.

وهذا النهج يحمل ما يحمل من التربية بالقدوة، على علو الهمة في طاعة الله تعالى، وصدق العزيمة في شغل الوقت فيما ينفع عند أحكم الحاكمين، ناهيك عما يوجب من صدق التناصح بين المتحابين في الله.

حدث الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير قال: «**خير الإخوان الذي يقول لصاحبه: تعال نصم قبل أن نموت، وشر الإخوان الذي يقول لأخيه: تعال نأكل ونشرب قبل أن نموت**»[1].

---

(١) «الحلية»: (٣/ ٧١).

إنها دعوة إلى صورة نيِّرة من صور التناصح وصدق المحبة في الله؛ فالخيرية على هذه الساحة كائنة في أن يدعو الأخ صاحبه إلى الإكثار من الطاعات والقربات، ومن عيونها صيام النافلة بحيث يُستبدل الإمساك عن المفطرات تقربًا إلى الله تعالى وطلبًا لمرضاته بنية صالحة، من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس، ولذلك ما له من الأجر الكبير عند الله، بالإقبال الدائم على الاستمتاع بشهوة الطعام والشراب وغيرهما من المفطرات بنهم شديد، وغفلة تلهي عن الطاعة وتنسي ذكر المنعم سبحانه وتعالى، وذكر الأجل وما يكون بعده، وأن داعي الموت يمكن أن يدعو في كل لحظة؛ لأن الآجال بيد الله العليم الحكيم.

فالخير هنا بالنسبة إلى هذا الموضوع، والشر هناك في ضده؛ فلا تستوي الدعوةُ إلى معراج القرب إلى الله بعلو الهمة وترك مراد العبد إلى مراد مولاه، والدعوةُ إلى ما يُعقبُ التوانيَ عن الطاعات، ويوقعُ في حمأة الشهوات والغفلات.

وعندما يأخذ الربانيُّ نفسه بالحزم في سلوك السبيل الأقوم عند الله، وينصح لمن أحبه في الله أن يكون كذلك، يكون أقربَ إلى الحقيقة القرآنية التي قوامها أن الأخلاء في الدنيا إذا كانوا على غير هدىً وتقوى لله عز وجل، تنقلب خُلتهم عداوة يوم القيامة.

أما إذا كانوا من المهديين أهل التقوى: فخلتهم دائمة يوم القيامة، وتراهم في الجنة على سرر متقابلين، ذلكم ما أشرق به قول الله تبارك وتعالى في سورة الزخرف: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا

﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾[(١)]، يقول الإمام الطبري: «يقول تعالى ذكره: المتخالُّون يوم القيامة على معاصي الله في الدنيا بعضهم لبعض عدو، يتبرأ بعضهم من بعض إلا الذين كانوا تخالَّوا على تقوى الله»، وتأيَّد هذا المعنى بما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما، وما روى عن مجاهد رحمه الله[(٢)].

وجميل ما ذهب إليه الإمام ابن عطية في تفسير الآية من أن الله تعالى وصف بعض حال القيامة وأنها ـ لهول مطلعها والخوف المطيف بالناس فيها ـ يتعادى ويتباغض كل خليل كان في الدنيا على غير تقى؛ لأنه يرى أن الضرر دخل عليه من قِبَل خليله، وأما المتقون فيرون أن النفع دخل من بعضهم على بعض. هذا معنى كلام علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم[(٣)].

والذي عند النسفي في «مدارك التنزيل وحقائق التأويل»: «أي تنقطع في ذلك اليوم كل خُلة بين المتخالين في غير ذات الله وتنقلب عداوة. ومعناه إلا خلة المتصادقين في الله؛ فإنها الخلة الباقية»[(٤)].

* * *

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٧.
(٢) انظر: «جامع البيان»: (٢٥/٥٦) دار المعرفة.
(٣) انظر: «المحرر الوجيز» لابن عطية (١٣/٢٤٧)، «لباب التأويل في معاني التنزيل» للخازن (٤/١٠٩) مع تفسير النسفي.
(٤) انظر: «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» (٤/١٠٩) للنسفي مع تفسير الخازن.

مع الإمام الحافظ التابعي إبراهيم النَّخَعي

- ١ -

هذه رحلة عجلى أو شبه عجلى مع التابعي المجمع على كثرة محاسنه، البصير بعلم عبد الله بن مسعود، الإمام الحافظ فقيه العراق أبي عمران إبراهيم بن يزيد النخعي اليمانيِّ ثم الكوفي المتوفى سنة ست وتسعين.

لقد أدرك رحمه الله عددًا من أصحاب النبي ﷺ ودخل على عائشة رضي الله عنها وهو صبي. وكان واسع الرواية؛ فقد روى عن خاله الإمام القدوة الأسود بن يزيد، ومسروق، وعلقمة بن قيس، والربيع بن خثيم، وخالد بن عبد الرحمن بن يزيد، وخلق سواهم من كبار التابعين. كما روى عنه الحكم بن عُتَيبة، وحماد بن أبي سليمان تلميذه، وسِماك بن حرب، ومنصور بن المعتمر، وعبد الله بن شُبرمة وآخرون[١].

ومع سعة الرواية عنده وأنه كان صيرفيَّ الحديث، آتاه الله العلم الجمَّ وفقه النفس الذي يتيح لصاحبه وضع مقاصد الشريعة موضعها عندما يتعامل مع النصوص فهمًا واستنباطًا، وكان مفتيَ أهل الكوفة هو والشعبيُّ في زمانهما.

ولم يقتصر الأمر على ذلك؛ فقد كان رحمه الله ربانيَّ السلوك، يغلب

---

(١) «الطبقات» لابن سعد (٦/ ٢٧٠) فما بعد، «الحلية» (٤/ ٢١٩، ٢٢٣، ٢٢٤)، «السير» (٤/ ٥٢٠، ٥٢١).

عليه الصلاح وتقوى الله، في أخلاق مكينة وقلة تكلُّف وتواضع جمٍّ. وآثارُ انتفاعه علمًا وعملاً وسلوكًا بسيَر من أدرك من الصحابة واضح في عمله بالعلم وتعليمه وتربيته بالقدوة، وما يضيء نفسه من خشية الله تعالى وخوف سوء الحساب.

وانظر إلى النصفة عند العلماء الربانيين ـ وإبراهيم من عيونهم ـ وكيف يحرصون على إعطاء كل ذي حق حقه؛ عن شُعيب بن الحبحاب قال: كنت فيمن دفن إبراهيم النخعيَّ ليلاً سابع سبعة ـ أو تاسع تسعة ـ، ثم أصبحت فغدوت على الشعبي رحمه الله تعالى، فقال: أدفنتم صاحبكم! قلت: نعم، قال: أما إنه ما ترك أحدًا أعلم منه، أو أفقه منه؛ قلت: ولا الحسنَ ولا ابن سيرين؟ قال: نعم، ولا من أهل البصرة، ولا من أهل الكوفة، ولا من أهل الحجاز. وفي رواية: ولا من أهل الشام[1].

فهذا كما يدل على علو كعب إبراهيم في العلم ورسوخه فيه، يدل على تقوى عصريِّه الشعبي رحمهما الله وإنصافه في الحكم على الرجال وعدم بخس أحدٍ قدره.

وكم نحن بحاجة إلى الانتفاع بهذا الخلق الكريم، وأخذه مأخذ الجد في حياتنا، الأمر الذي يؤكد أهمية العطاء الذي يقدمه الرجل الرباني للأمة بالقدوة والعمل، وما ينبغي للأمة أن تصنعه حيال هذا العطاء؛ فكما يحسن العالم العامل في أداء الأمانة على هذا الوجه، فعلى الأمة أداء الأمانة في

---

(١) «الطبقات»: (٦/ ٢٨٤)، «الحلية»: (٤/ ٢٢٠)، «سير أعلام النبلاء»: (٤/ ٥٢٦، ٥٢٧).

حسن التلقي والحرص على الانتفاع في دينها ودنياها، وما من ريب في أن الإرث العظيم المتصل بنا من السلف الصالح أمانة ثقيلة في الأعناق! .

وروى أبو نعيم في «الحلية» بسنده عن جرير عن إسماعيل بن أبي خالد قال: **كان الشعبيُّ وإبراهيم وأبو الضحى يجتمعون في المسجد يتذاكرون الحديث، فإذا جاءهم شيء ليس عندهم فيه رواية، رموا إبراهيم بأبصارهم**[١] .

والحق أن تابعيَّنا أبا عمران ـ أجزل الله مثوبته ـ عَلَم بارز في أهل بيت صاحبَهم التوفيق الإلهي، فكانوا من رؤوس العلم والعمل الذين يقتدى بهم في البذل على طريق الهداية وجلب الخير للمسلمين. قال الحافظ الذهبي عند الكلام في «السير» على الإمام القدوة الأسود بن يزيد النخعي الكوفي خال إبراهيم: «وهو أخو عبد الرحمن بن يزيد، ووالد عبد الرحمن بن الأسود، وابن أخي علقمة بن قيس، وخال إبراهيم النخعي. فهؤلاء أهل بيت من رؤوس العلم والعمل»[٢] .

والأسود هذا خالُ إبراهيم كان نظيرَ مسروق في الجلالة والعلم والثقة والسن، يُضرب بعبادتهما المثل[٣] .

والناظر في مواقف إبراهيم يرحمه الله لا يخالجه شك في أنه كان ركنًا بالغ الثبات في الدعوة إلى الحفاظ على هدي الكتاب والسنة، حربًا على

---

(١) «الحلية»: (٤/ ٢٢١)، «سير أعلام النبلاء»: (٤/ ٥٢٢).
(٢) «السير»: (٤/ ٥٠).
(٣) المصدر السابق (٤/ ٥٠).

أهل الأهواء وما يبتدعون من أمور تنافي الأمر الأول. حدَّث إسماعيل بن زكرياء عن أبي حمزة الأعور قال: قلت لإبراهيم: إنك إمامي وأنا أقتدي بك، فدلني على الأهواء! قال: «**ما جعل الله فيها مثقال حبة من خردل من خير، وما الأمر إلا الأمر الأول**»[١].

وقال له مرة أخرى: يا أبا عمران، أما ترى ما ظهر بالكوفة من المقالات؟! فقال: «**أوَّه دقَّقوا قولاً، واخترعوا دينًا من قِبَل أنفسهم ليس من كتاب ولا من سنة رسول الله ﷺ، فقالوا: هذا هو الحق وما خالفه باطل، لقد تركوا دين محمد ﷺ؛ إياك وإياهم**»[٢].

وما أكثر الوقائع التي تدل على أن ما يشرق به سلوك الرجل الرباني من العمل بالعلم ومراقبة الله تعالى في السر والعلن، وخشيته في الظاهر والباطن، يعمل عمله في النفوس الخيِّرة في الأمة، **فيوقظ الغافل، ويشدُّ على يد البرِّ المستقيم**.

قال إبراهيم ـ أحسن الله جزاءه يوم الحساب ـ: «**إن الرجل ليتكلم بالكلام على كلامه المقتُ ينوي به الخير، فيلقي الله العذر في قلوب الناس، حتى يقولوا: ما أراد بكلامه إلا الخير، وإن الرجل ليتكلم بالكلام الحسن لا يريد به الخير، فيلقي الله في قلوب الناس، حتى يقولوا: ما أراد بكلامه الخير**»[٣].

---

(١) «الحلية»: (٤/ ٢٢٢).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٢٢٣).

(٣) انظر: «الحلية» (٤/ ٢٢٩، ٢٣٠).

ومن كلماته المضيئة قوله: «**لا بأس بذكر الله في الخلاء** - يعني حيث لا أحد - **فإنه يَصْعَد**» يشير - والله أعلم - إلى قوله ﷺ في شأن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «**ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»، وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[1].

والذي يدلك على حضور قلب هذا التابعي مع الله، وتبصُّره في الإعداد لسفر الآخرة الطويل، **علو همته في العبادة صلاةً وصيامًا وتلاوة للكتاب العزيز**.

ومن ذلك أنه كان يحرص على أن يصوم دائمًا صيام داود، يصوم يومًا ويفطر يومًا؛ فقد روى شعيب بن الحبحاب عن هنيدة امرأته أنه كان يصوم يومًا ويفطر يومًا[2].

وهؤلاء الربانيون الذين همُّهم حسن المعاملة فيما بينهم وبين مولاهم الرحمن الرحيم، تكون معرفتهم بربهم على درجة عالية رفيعة، من أجل ذلك تُضاعف خشيتهم منه سبحانه، ورهبتهم من المآل بعد الموت، لما أن الخشية على قدر المعرفة، **وليس بعد هذه الدنيا دار إلا الجنة أو النار**.

أخرج أبو نُعيم في «الحلية» بسنده من رواية وكيع عن سفيان عن زكرياء العبدي عن إبراهيم النخعي: أنه بكى في مرضه، فقالوا له: يا أبا عمران، ما يبكيك؟ قال: «**وكيف لا أبكي وأنا أنتظر رسولاً من ربي يبشرني إما بهذه وإما بهذه**».

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٠.

(٢) «الحلية» (٤/ ٢٢٤).

وفي رواية عن عمران الخياط قال: دخلنا على إبراهيم النخعي نعوده فإذا هو يبكي، فقلنا له: ما يبكيك يا أبا عمران؟ قال: «**أنتظر ملك الموت، لا أدري يبشرني بالجنة أم بالنار**»[١].

والحياء من الله الذي يثمر التواضع عند العالم العامل خَلَّةٌ يغبط عليها هؤلاء المقربون، وهي لون من ألوان التربية العملية بالقدوة لها كريم الثمرات في الدنيا والآخرة.

وهذا ما نجده عند أبي عمران على صورة جدٍّ بعيدة عن التكلف والتصنع. حدّث ميمون بن أبي حمزة الأعور قال: قال لي إبراهيم النخعي: «**لقد تكلمت ولو وجدت بدًا لم أتكلم، وإن زمانًا أكون فيه فقيه الكوفة لزمان سوء**»[٢].

* * *

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٢٢٤).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٢٢٣)، «السير» (٤/ ٥٢٦).

عود إلى الحديث عن الإمام إبراهيم النخعي

ـ ٢ ـ

حين يذكر رسوخ الرجل في العلم والعمل والتذكير : تتبدى محاسنُه ـ التي منها صفاء القلب ومراقبة الله في السر والعلن، والورع، والتواضع، وتوقي الشهرة أدبًا مع الله تعالى ـ : أكثرَ إشراقًا، وأوضحَ دلالة على الصدق في القول والعمل، والحرص على هداية الآخرين.

ولقد مرَّ بنا في رحلتنا القريبة مع الإمام الثقة إبراهيم بن يزيد النخعي أنه كان بصيرًا بعلم عبد الله بن مسعود، واسع الرواية، فقيه النفس، كبير الشأن، كثير المحاسن، رحمه الله وضاعف له الأجر والمثوبة يوم الدين[١].

ومن فقه نفسه وحصافته رحمه الله قوله : **«لا يستقيم رأي إلا برواية، ولا رواية إلا برأي»**.

ونذكر هنا قول إسماعيل بن أبي خالد : كان الشعبي وأبو الضحى وإبراهيم وأصحابنا يجتمعون في المسجد، فيتذاكرون الحديث؛ فإذا جاءتهم فتيا ـ أو رواية ـ ليس عندهم منها شيء، رموا بأبصارهم إلى إبراهيم النخعي[٢].

ويقول الأعمش : ما عرضت على إبراهيم حديثًا قط إلا وجدت عنده منه شيئًا[٣].

---

(١) انظر : «السير» (٤/ ٥٢١).
(٢) «الحلية» (٤/ ٢٢٩).
(٣) المصدر السابق (٤/ ٢٢١).

والإنصاف المعروف عن الشعبي ـ يرحمه الله ـ ينضم إليه هنا تعليله الدقيق لرسوخ إبراهيم في العلم، وأنه لم يخلِّف بعد موته مثله، قال حين بلغه موت إبراهيم: «مات الرجل؟ قيل: نعم! قال: لو قلت: أنعى العلم ما خلَّف بعده مثله ـ يعني ليس في ذلك شيء ـ وسأخبركم عن ذلك، إنه نشأ في أهل بيت فقه فأخذ فقههم، ثم جالسَنا، فأخذ صفو حديثنا إلى فقه أهل بيته، فمن كان مثله؟ والعجب منه أنه يفضل سعيد بن جبير على نفسه»[١].

ويقول عبد الملك بن أبي سليمان: سمعت سعيد بن جبير يُسأل فقال: تستفتونني وفيكم إبراهيم النخعي؟!

وفي قول الشعبي: «**إنه نشأ في أهل بيت فقه**» إشارة إلى أن خال إبراهيم ـ كما سبقت الإشارة ـ هو الإمام الثقة القدوة الأسود بن يزيد النخعي، والأسود هذا هو أيضًا أخو عبد الرحمن بن يزيد، ووالد عبد الرحمن بن الأسود، وابن أخي علقمة بن قيس، وأهل هذا البيت هؤلاء كلهم من رؤوس العلم والعمل، وأخذ إبراهيم بحظ وافر من ذلك، وسبحان من عطاؤه هو العطاء!

والمعروف عن الأسود بن يزيد رحمه الله أنه كان نظير مسروق في الجلالة والعلم والثقة والتنسُّك، يضرب بعبادتهما المثل، وكان يختم القرآن في رمضان في كل ليلتين، ويختمه في غير رمضان في كل ست ليال[٢].

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٢٢١).
(٢) «السير» (٤/ ٥٠، ٥١).

وليس من معاد القول التذكير بأن الحديث عن علم الرجل الرباني يقود بلا كلفة إلى الاستنارة بما عهد عنه من العمل بالعلم، وما يزين سلوكه من محاسن الأخلاق وصفات المنيبين المتقين.

هذا الأعمش يرحمه الله يقول في أبي عمران: «كان إبراهيم يتوقى الشهرة، فكان لا يجلس إلى الأسطوانة، وكان إذا سئل عن مسألة لم يزد عن جواب مسألته، أليس فيه كذا وكذا؟ فيقول: إنه لم يسألني عن هذا. وكان إبراهيم صيرفيَّ الحديث، فكنت إذا سمعت الحديث من بعض أصحابنا عرضته عليه»[١].

وما من ريب في أن مدعاة هذا الورع خوف زلة القدم والوقوع في قول ما ليس بحق، قال منصور بن أبي الأسود: «ما سألت إبراهيم قط عن مسألة إلا رأيت الكراهية في وجهه، يقول: أرجو أن تكون، وعسى»[٢].

وسأله بعضهم عن شيء فجعل يتعجَّب يقول: أحتيج إليَّ أحتيج إليَّ؟! وروى سفيان عن أبي حصين قال: أتيت إبراهيم أسأله عن شيء، فقال: ما وجدتَ أحدًا فيما بيني وبينك تسأله غيري؟.

وهذا النهج القائم على الحيطة والحذر في دين الله هو ديدن كثير من السلف الصالح بدءًا من علماء الصحابة عليهم الرضوان، ومرورًا برجال من أمثال سعيد بن المسيِّب ومالك وأحمد والشافعي رحمهم الله، ولكن إذا اقتضى الواجب الشرعي الفتوى والبيان، تجد هؤلاء الورعين لا يتخلفون

---

(١) «الحلية» (٤/ ٢١٩، ٢٢٠).
(٢) المصدر نفسه (٤/ ٢٢٠).

عن القيام بهذا الواجب بالقدر الذي يفي بالغرض.

والأخذ بالأمر الأول ـ كما يقول إبراهيم ـ وعدم التلفت إلى هنا وهناك، اقتداءً بمن كانوا يدورون مع الحق حيث دار، مستنيرة بصائرهم بهدي الكتاب والسنة، تكشف عن كثير من كلمات أبي عمران التي كان يرددها في هذا الشأن.

روى أبو نعيم بسنده عن الأعمش عن إبراهيم قال: «**كانوا يجلسون فيتذاكرون، فأطولهم سكوتًا أفضلهم في أنفسهم**». ومما روي عنه أيضًا قوله: «كانوا يرون ـ أو يقولون ـ: إن المشي في الليلة المظلمة موجبة»، والمراد بذلك أن **المشي في ظلام المخالفة عن أمر الله ورسوله اتباعًا للهوى وتسويلات الشياطين كبيرة من الذنوب توقع في النار والعياذ بالله.**

وانظر إلى ما ينقله إبراهيم عن السلف في شأن ضابط الأخذ عمن يراد الأخذ عنه، ذلكم قوله: «**كانوا إذا أتوا الرجل ليأخذوا عنه، نظروا إلى صلاته، وإلى هديه، وإلى سمته**»[١].

وهذا الذي يحكيه إبراهيم عمن سبق، ليس ترفًا ثقافيًا أو شيئًا للظهور وتزجية الوقت، ولكنه ـ كما تدل حاله من العمل بالعلم وأخذ النفس بالإكثار من الطاعة والورع في دين الله ـ تذكير لنفسه وللآخرين بهذا النهج المبارك الذي عنوانه **حسن التأسي بأولئك الربانيين الأطهار.**

قال أبو نعيم في الحلية: حدثنا إبراهيم قال: حدثنا محمد بن إسحاق

---

(١) المصدر نفسه (٤/ ٢٢٥).

قال: حدثنا قتيبة قال: حدثني جرير عن منصور عن إبراهيم قال: «**كانوا يستحبون أن يزيدوا في العمل ولا ينقصوه، وإلا فشيء ديمة**»، يعني إذا لم تكن زيادة فشيء ديمة. والدِّيمة ـ بكسر الدال ـ مطر يدوم في سكون بلا رعد وبرق[١].

رحم الله أبا عمران: إنه على وفرة علمه يتعلَّم بالعمل والقدوة، ويعلِّم بالكلمة والعمل والقدوة كذلك، ويحيي في النفوس عزيمة الاقتداء برجال أسلموا وجوههم بحق لله، وكانوا في طاعته وهم يتعلمون، وفي طاعته وهم يعلِّمون ويدرسون ويربون، وهجيراهم التوفيق لدوام شكره وحسن عبادته بعيدًا عن كل شائبة تعكر صفو توحيده وإسلام الوجه له.

مرة أخرى نعود إلى الأعمش رحمه الله، لنسمعه يقول: سمعت إبراهيم يقول: «**كانوا يكرهون أن يظهروا صالح ما يسرون، يقول الرجل: إني لأستحيي أن أقول: أفعل كذا وكذا، وأصنع كذا وكذا، ويكرهون أن يقولوا: أعطيك أحتسب به الخير، أو يقولون: حرٌّ لوجه الله، وكانوا يعطون ويسكتون ولا يقولون شيئًا. قال إبراهيم: وإني لأرى الشيء أكرهه في نفسي، فما يمنعني أن أعيبه إلا كراهيةُ أن أُبتلى بمثله**»[٢].

وفي تذكير بما ينبغي أن يكون عليه المسلم من العناية بصلاح قلبه أولاً، **صنيعَ السلف رحمهم الله**؛ لأن بصلاح القلب صلاح أعمال الجوارح: نجد إبراهيم يقول: «**كان من كان قبلكم في أشفق الثياب**

---

(١) انظر: «الحلية» (٤/ ٢٢٨)، «القاموس المحيط» مادة (دوم) ص١٤٣٢.
(٢) «الحلية» (٤/ ٢٣٠، ٢٣١).

وأشفق القلوب»[١].

ومن نصح إبراهيم للمسلمين وإشفاقه على من حوله أن تقسو قلوبهم فلا يعتبروا بالموت، ما كان من حرصه على بيان ما كان عليه السابقون من التأثر بحضور الجنازة، وتذكر أن الأجل المحتوم آت لا ريب فيه، وأن المصير إلى الجنة أو إلى النار، ذلكم ما حدّث عنه محمد بن سوقة من قوله: «**كانت تكون فيهم الجنازة، فيظلون الأيام محزونين، يعرف ذلك فيهم**». وعن محمد بن سوقة أيضًا قال: زعموا أن إبراهيم النخعي كان يقول: «**كنا إذا حضرنا الجنازة أو سمعنا بميت عرف فينا أيامًا؛ لأنه قد عرفنا أنه نزل به أمر صيره إلى الجنة أو إلى النار، قال: وإنكم في جنائزكم تتحدثون بأحاديث دنياكم**».

* * *

(١) المصدر نفسه (٤/ ٢٣٠).

مع القارئ الفقيه المعلم عبد الله بن مسعود

ـ ١ ـ

لله ما أعظم ما يقع عليه الناظر في حياة رباني هذه الأمة المحمدية من التكامل في البناء النفسي والقلبي والعقلي، ومن الجمع المرضيِّ المحبّب بين العلم النافع والتعليم، والدرس والتدريس، مضافًا إلى ذلك الاهتمام بمصالح الأمة، والإسهام في تدبير أمورها على الوجه الذي لا يعتريه لبْسٌ يعوق مسيرة الخير، ولا غبَشٌ يعكِّر صفو التوحيد والإخلاص لله عز وجل ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ .

هذا الحبر المجاهد أبو عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، يأخذ بمجامع قلبك حين تقرأ عن علمه وعظيم صلته بالقرآن والسنة، وما تربَّى عليه في خدمة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ثم لا تلبث أن تجد ما يثير كوامن الإيمان، ويهزُّ المشاعر، ويحرِّك العزائم، من أدبه مع الله جل شأنه وتواضعه الجم، وخوفه يوم الحساب، وهو يعمل بعلمه، ويتنسَّك ويجتهد في العبادة، مخبتًا لله تبارك وتعالى، لا يدع قُربة يستطيعها إلا أقبل عليها بعقل مستنير، وقلب خاشع موصول بالمولى عز وجلّ.

سئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن ابن مسعود فقال: «**قرأ القرآن ثم وقف عنده وكفى به، وعلم السنة**»[1].

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/٣١٨)، وصححه ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في «الحلية» (١/١٢٩).

وأخرج مسلم وغيره عن أبي الأحوص قال: أتينا أبا موسى، فوجدت عنده عبد الله وأبا مسعود، وهم ينظرون في مصحف، فتحدثنا ساعة، ثم راح عبد الله ـ يعني ابن مسعود ـ فقال أبو مسعود: **لا والله لا أعلم رسول الله ﷺ ترك أحدًا أعلم بكتاب الله من هذا القائم**[١].

ونظرات عمر رضوان الله عليه في الرجال. وما أدراك ما هي تلكم النظرات! تهدينا إلى حظ أوفر في أن نقدر أبا عبد الرحمن قدره فيما كان عليه من العلم والخَشية لله عز وجل.

أخرج ابن سعد في «الطبقات» وأبو نعيم في «الحلية» عن زيد بن وهب قال: إني لجالس مع عمر بن الخطاب، إذ جاء ابن مسعود، فكاد الجلوس يوارونه من قِصره، فضحك عمر حين رآه، فجعل عمر يكلِّمه، ويتهلّل وجهه، ويضاحكه وهو قائم عليه، ثم ولَّى فأتبعه عمر بصره حتى توارى. فقال: «**كُنَيْف مُلِئَ علمًا**»، وأخرجه يعقوب بن سفيان الفسوي في كتابه «البدء والتاريخ»[٢] وإسناده صحيح.

«**والكُنيف**» تصغير «كِنف» وهو الوعاء، وهو تصغير تعظيم. جاء في «المصباح المنير» للفيُّومي: «الكِنف: وزان حِمْل: وعاء يكون فيه أداة الراعي، وبتصغيره أُطلق على الشخص للتعظيم في قوله: «كُنَيفٌ ملئَ

---

(١) انظر: «صحيح مسلم» (٢٤٦١)، (١١٣)، «المعرفة والتاريخ» للفسوي (٢/ ٤١٤).
(٢) انظر: «الطبقات الكبرى» (٣/ ١/ ١١٠)، «الحلية» (١/ ١٢٩)، «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٤٣).

علمًا»(١) . وهذا التصغير للتعظيم معروف عند العرب كما في قول الحباب ابن المنذر : «أنا جُذيلها المحكك وعُذيقها المرجَّب»(٢) .

وهذا الذي شهد به عمر رضي الله عنه، كان رواؤه الظليل يمتد إلى تلامذة أبي عبد الرحمن وأصحابه، حيث يفيض عليهم - وهو الرباني المعلِّم - من علمه بالكتاب والسنة علم فقه وتدبر، وحكمة وتذكر، وما تميز به من تلاوة الكتاب العزيز غضًا طريًا كما أخبر عن ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام، يفيض عليهم ما به يستقيم سلوكهم وهم يبنون الحضارة المثلى فيعرفون الحلال من الحرام، ويضبطون تعاملهم مع الله جل شأنه وعباد الله بضوابط الشريعة المطهَّرة، كما يربيهم بالكلمة والقدوة والموقف، على أن يكونوا على المحجة البيضاء في دنياهم العاجلة متطلعين بإخلاص إلى ما فيه نجاتهم يوم الدين حيث العاقبة للمتقين .

حدَّث حبَّة بن جوين قال : لما قدم عليٌ رضي الله عنه الكوفة أتاه نفر من أصحاب عبد الله، فسألهم عنه حتى رأوا أنه يمتحنهم، فقال : «وأنا أقول فيه مثل الذي قالوا وأفضل ؛ **قرأ القرآن وأحلَّ حلاله وحرَّم حرامه، فقيه في الدين، عالم بالسنة**» . أخرجه ابن سعد في الطبقات(٣) .

وحين ينضَمُّ إلى بهاء التلاوة وحسنها تدبُّر المعاني، والفقه بمرامي النصوص بصفاء قلب واستنارة بصيرة، فحدث ولا حرج عما يكون وراء

---

(١) «المصباح» مادة (كنف) (٢/ ٥٤٢، ٥٤٣).

(٢) انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١/ ٤٩٠، ٤٩١) والحاشية.

(٣) (٣/ ١/ ١١٠)، وانظر: «السير» (١/ ٤٩٢).

ذلك من الخير للعالم الرباني في مدارج القرب من الله، ولمن يوليه الله أمرهم في الدلالة على ما فيه سعادة الدارين. قال الإمام الشعبي: «ما دخل أحد من الصحابة أنفع علمًا ولا أفقه صاحبًا من عبد الله»[(١)].

ولكم يعمل العلم الذي يراد به وجه الله عمله في نفوس الربانيين وقلوبهم، ولكم تزداد خشيتهم من الله كلما ازدادوا من ذلك العلم الذي كان تزودهم منه رغبةً في مرضاته سبحانه وتعالى!!

وما يعمله هذا العلم النافع المقترن بالخشية ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ يشرق به ما يكون من سلطانه على النفوس فيهذبها ويزكيها شأن طريق المفلحين، وعلى القلوب فينيرها ويصفيها من شوائب التلفُّت إلى غير الحق رب العالمين. وعندها يكون الإقبال على الطاعة في ازدياد، والهمة في علو متجدد في فعل القربات؛ ذلك بأن هؤلاء البررة على تذوق دائم لحلاوة الإيمان التي لا تنقطع، وانشراح صدر للعمل بالعلم، واستشعار لا يعتريه فتور لما يكون في لذة المناجاة والبكاء بين يدي علام الغيوب.

ومصداق ذلك في حياة أبي عبد الرحمن واضح لا يعتريه لُبس أو غموض؛ فعن عون بن عبد الله عن أخيه عبيد الله قال: «**كان عبد الله إذا هدأت العيون قام، فسمعتُ له دويًّا كدويِّ النحل**»[(٢)].

وروى الإمام أحمد بسند حسن عن علي رضي الله عنه قال: «**جالست**

---

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١/ ٤٩٤).

(٢) وانظر: «الإصابة» (٢/ ٣٧٠)، «صفة الصفوة» (١/ ١٥٨).

أصحاب رسول الله ﷺ فما رأيت أحدًا أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة، ولا أحب إليَّ أن أكون في مِسْلاخه من ابن مسعود»[١] .

في مِسْلاخه: أي في مثل هديه وطريقته، وفي رواية: «منك يا ابن مسعود».

وعن القاسم بن عبد الرحمن أن ابن مسعود كان يقول في دعائه: «**خائف مستجير تائب، مستغفر راغب راهب**»[٢] . أرأيت إلى هذا المتقلِّب في نور العبودية طمعًا في التوبة والغفران؟! والدعاء رغبًا ورهبًا في محراب الخوف والرجاء؟!

ثم إن حسن الظن بالله عز وجل ـ وهو المطلوب من المؤمن ـ لا يعني عند الربانيِّ الركون إلى الدعة، والقعود مع القاعدين أمنًا لمكر الله جل جلاله شأن الغافلين الخاسرين؛ أرأيت إلى أبي عبد الرحمن، ماذا قال عند قول رجل في مجلسه: ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين، وأن أكونَ من المقربين أحبُّ إلي؟ قال رضي الله عنه: «**لكن هاهنا رجل ودَّ إذا مات أنه لا يُبعث ـ يعني نفسه**»[٣] .

والرجل الرباني لا تشغله نفسه عن نصح الآخرين، بل يتقرب إلى الله تعالى بذلك، أخرج أبو نعيم في «الحلية» من رواية عبد الله بن الوليد قال:

---

(١) انظر: «الطبقات» لابن سعد (٣/ ١/ ١١٠)، «المعرفة والتاريخ» للفسوي (٢/ ٥٤٨)، «السير» (١/ ٤٩٤).

(٢) المصدر السابق (١/ ٤٩٦).

(٣) «الحلية» (١/ ١٣٣، ١٣٤)، وانظر: «السير» (١/ ٤٩٦، ٤٩٧)، «صفة الصفوة» لابن الجوزي (١/ ١٥٩).

سمعت عبد الرحمن بن حجيرة يحدث عن ابن مسعود أنه كان يقول إذا قعد: «**إنكم في ممر الليل والنهار، في آجال منقوصة وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، من زرع خيرًا يوشك أن يحصد رغبة، ومن زرع شرًا يوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارع مثل ما زرع، لا يُسبق بطيء بحظه، ولا يدرك حريص ما لم يُقدَّر له. فمن أعطي خيرًا فالله أعطاه، ومن وُقي شرًا فالله وقاه، المتقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة**»[١].

* * *

(١) (١/ ١٣٣، ١٣٤)، وانظر: «السير» (١/ ٤٩٦، ٤٩٧).

مع عبد الله بن مسعود أبي عبد الرحمن

ـ ٢ ـ

هذه متابعة لبعض من مناقب ربانيي أمتنا الماجدة من خلال الحديث عن الإمام الحبر المجاهد، فقيه الأمة الصحابي القرآني، العلم الذي شهد بدرًا والهجرتين أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وعندما ندير الحديث عن هذا الرجل الرباني علمًا وعملاً ورواية غزيرة للعلم وتنسكًا وزهادة وإسهامًا في تربية الجيل المسلم على الهدى والخير، ومعاونة جادَّةً على إحكام بُنى المجتمع المسلم . . لا نكون طمعنا في غير مطمع، ولكنها عودة إلى الظل الظليل في رحلة ميمونة مع القدوة الثقة الذي لم يغادر إرث النبوة في حياته الزاخرة بالمكارم، بل كان أبدًا على الهدي المحمدي، عن علم وبصيرة وإخلاص في الدين.

حدَّث منصور والأعمش عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: سمعت حذيفة يقول: «**إن أشبه الناس هديًا ودلاً وسمتًا وخطبة برسول الله ﷺ من حينِ يخرج من بيته إلى أن يرجع، لا أدري ما يصنع في أهله: لَعَبْدُ الله بنُ مسعود، ولقد علم المتهجدون ـ أو المجتهدون ـ وفي رواية: المحفوظون ـ من أصحاب محمد ﷺ أن عبد الله من أقربهم عند الله وسيلة يوم القيامة**». أخرجه الحاكم والبخاري بنحوه، وابن سعد، وأبو نعيم في «الحلية»[1].

---

(١) انظر: «الجامع الصحيح» مع «الفتح» (٧/ ١٠٢، ١٠٣)، «جامع الترمذي» (٥/ ٦٣١)، =

وروى الترمذي بسنده عن عبد الرحمن بن يزيد قال: «**أتينا على حذيفة فقلنا: حدِّثنا مَنْ أقربُ الناس من رسول الله ﷺ هديًا ودلاً، فنأخذَ عنه ونسمع منه؟ قال: كان أقربَ هديًا ودلاً وسمتًا برسول الله ﷺ ابن مسعود حتى يتوارى منا في بيته، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أن ابن أم عبد هو أقربهم إلى الله زلفى**». قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح[1].

وكانت المصادر الموثقة سخية في ذكر عدد وافر من الوقائع والبشريات النبوية التي تؤذن بعلو كعب أبي عبد الرحمن في الأمة، ورفعة قدره عند الله عز وجل، وذلك ما يدعو إلى مزيد من الوثوق بما كان ينشر من العلم بالقرآن والسنة، كما يدل على وضاءة المنهج الذي كان يسلكه في التربية والنصح للمسلمين، لما يحمل ـ مع المعرفة ـ من خيريّة العوامل التي تدعو الآخرين إلى حسن التأسي والاقتداء.

جاء في الحديث الصحيح الذي رواه أحمد وغيره عن علي رضي الله عنه أنه قال: «أمر رسول الله ﷺ ابن مسعود، فصعد شجرة يأتيه منها بشيء، فنظر أصحابه إلى ساق عبد الله، فضحكوا من حُموشة ساقيه، فقال رسول الله ﷺ: «**ما تضحكون؟ لرِجْل عبد الله أثقل في الميزان يوم القيامة من أُحد**»[2]. حموشة الساقين: دقتهما.

= «المستدرك» للحاكم (٣/ ٣١٥)، «السير» (١/ ٤٧٠)، «الطبقات» (٣/ ١/ ١٩١)، «الحلية» (١/ ١٢٦، ١٢٧).

(١) «جامع الترمذي» رقم (٣٨٠٩).

(٢) «المسند» (١/ ١١٤)، «الطبقات» (٣/ ١/ ١١٠)، «السير» (١/ ٤٧٧، ٤٧٨).

وفي رواية لأبي نُعيم في «الحلية»: «. . . فقال النبي ﷺ: «**ما يضحككم؟**» قالوا: من دقة ساقيه، قال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أُحُد**»[١].

ونقع على رواية أخرى عند الحاكم في «المستدرك» عن معاوية بن قرة عن أبيه قال: «كان ابن مسعود على شجرة يجتني لهم منها، فهبت الريح وكشفت عن ساقيه، فضحكوا، فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من أُحد**»». وصحح أبو عبد الله إسناده وحكم الذهبي بصحته[٢].

ولا تعجب بعد هذا إذا رأيت الرسول ﷺ يأمر بالتمسك بعهد هذا العلَم الرباني رضي الله عنه. قال الحافظ الذهبي: الثوري عن عبد الملك بن عمير عن مولى لِربعي عن ربعي، عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقتدوا باللذَين من بعدي أبي بكر وعمر، واهتدوا بهدي عمار، وتمسكوا بعهد ابن أم عبد**»[٣]. وأخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه مختصرًا وآخرون[٤].

وغني عن البيان أن الثِقل الذي عناه من لا ينطق عن الهوى صلى الله وسلم وبارك عليه، إنما هو ـ والله أعلم ـ ثِقل سَداه ولحمته بعد الإيمان:

---

(١) انظر: «الحلية» (١/ ١٢٧).

(٢) «المستدرك» (٣/ ٣١٧) مع «التلخيص» للذهبي.

(٣) «السير» (١/ ٤٧٨).

(٤) «المسند» (٥/ ٣٨٥، ٤٠٢)، «الجامع الصحيح» للترمذي رقم (٣٨١٠)، «سنن ابن ماجه» (٩٧) في المقدمة، «المستدرك» (٣/ ٧٥)، «المعرفة والتاريخ» للفسوي (١/ ٤٨٠).

العلم والعمل، والتأسي المستوعب بالرسول عليه الصلاة والسلام والحبُّ الصادق له، ناهيك عن الصدق في المواطن، والحرص على تنمية الصلة القلبية والعقلية بين المسلمين وبين كتاب ربهم وسنة نبيهم صلوات الله وسلامه عليه؛ وكم تسعف التربية بالأسوة وسلامة السلوك، في تحقيق الغايات الكبار على صعيدي الفرد والمجتمع في دنيا المسلمين!!

ولا يطول بنا اللُّبث حتى نقع على العديد من البشريات الأخر التي أملاها النبي ﷺ على التاريخ وهو يقول ما يرى أنه الحق في هذا التلميذ النجيب المتميز الذي كان يحرص على ألا تفوته شاردة ولا واردة من الخير، وأن ينقل هذا الخير ما استطاع إلى الأمة بأمانة وصدق بالغين، وكأنه كان على حال دائمة من الامتثال لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩﴾.

من ذلك ما أخرج الإمام أحمد في «المسند» بإسناد حسن من رواية عاصم بن أبي النَّجود عن زِرِّ بن حُبيش عن عبد الله: أن رسول الله ﷺ دخل المسجد وهو بين أبي بكر وعمر، وعبد الله قائم يصلي، فافتتح سورة النساء فسجَلها ـ أو يسجِلها ـ فقال ﷺ: «**من أحبَّ أن يقرأ القرآن غضًّا كما أُنزل فليقرأ على قراءة ابن أم عبد**»، فأخذ عبد الله في الدعاء، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «**سل تُعط، سل تُعط ـ أو سل تعطه، سل تعطه ـ**»، فكان فيما سأل: اللهم إني أسألك إيمانًا لا يرتد، ونعيمًا لا ينفد، ومرافقة نبيك محمد ﷺ في أعلى جنان الخلد. قال: فأتى عمر رضي الله عنه عبد الله ليبشره، فوجد أبا بكر رضوان الله عليه خارجًا قد سبقه، فقال: لقد كنت

سباقًا بالخير، وفي رواية أخرى له: يرحم الله أبا بكر، ما سبقته إلى خير قط إلا سبقني إليه»[١]. وأخرجه الحاكم بنحوه عن علي رضي الله عنه، وصححه ووافقه الذهبي في كتابه «التلخيص»[٢]، كما رواه أبو نُعيم في «الحلية»[٣].

معنى «سَجَلها»: قرأها قراءة متصلة، و«يسجِلها»: يقرأها قراءة متصلة. جاء في «النهاية» لابن الأثير: «افتتح سورة النساء فسجَلها» أي قرأها قراءة متصلة، من السَّجل: الصَّب.

يقال: سجلتُ الماء سَجْلاً: إذا صببتَه صبًّا متصلاً.

وفي حديث ابن الحنفية: قرأ ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠ ﴾، فقال: هي مُسْجَلةٌ للبر والفاجر، أي هي مطلقة مرسلة في الإحسان إلى كل أحدٍ، برًّا كان أو فاجرًا، والمَسْجَل: الماء المبذول[٤].

هذا، وجاء في رواية الحاكم أبي عبد الله: فأثنى عبد الله على ربه، وحمده وأحسن في حمده على ربه، ثم سأله فأجمل المسألة، وسأله كأحسن مسألة سألها عبدٌ ربه، ثم قال: اللهم إني أسألك[٥]. . . الدعاء.

* * *

---

(١) انظر: «المسند» (١/ ٤٤٥، ٤٥٤).
(٢) انظر: «المستدرك» (٣/ ٣١٧).
(٣) انظر: «الحلية» (١/ ١٢٤) فما بعدها.
(٤) «النهاية» لابن الأثير، مادة (سجل).
(٥) «المستدرك» (٣/ ٣١٧).

مع أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود

ـ ٣ ـ

كان من حكمة الله البالغة، وهو ـ جل شأنه ـ الحكيم الخبير، أنه كما اختار للرسالة الخاتمة نبيه المصطفى ورسوله المجتبى محمدًا عليه الصلاة والسلام، فأرسله كافةً للناس شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فأدى الرسالة، وبلغ الأمانة، وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين ـ اختار ـ جلَّ شأنه ـ لحمل هذه الرسالة، وحسن تلقيها ووعيها باستيعاب تفيض به العقول والقلوب والمشاعر، ويحرسه ـ بعد الإيمان ـ صدق اللهجة والإخلاص في المواطن. ثم نقلِها إلى الأمة غضَّة طرية تزخر بالحياة، نقلاً علميًا أمينًا بالرواية والدراية والتمرُّس.

اختار لذلك الأمر الجلل جيلاً متميزًا فريدًا هو جيل الصحابة الكرام عليهم الرحمة والرضوان، أولئك الذين آمنوا بالرسول ﷺ وبارك عليه، وعزَّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، وأحبوه أكثر من حبهم أنفسهم، وكانوا بإيمانهم وجهادهم، واستنارة بصائرهم، وما رزقوا من صدق العزيمة وعلو الهمة، الصورة الناطقة بحقيقة أن الإسلام منهج رباني يبني الحياة، ويأخذ بيد العباد أن لو عملوا به واستمسكوا بأحكامه إلى ما فيه سعادة الدنيا، والفوز بالنعيم المقيم يو م الدين.

ومن عيون هؤلاء البررة الأخيار صحابينا الجليل الإمام الرباني القدوة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، الذي كان على فقه تام لهذه الحقيقة،

حقيقة أن وراء اختيار من اختار ربنا جل ثناؤه من عباده، كيما يشرفوا ويسعدوا بأن يكونوا بقلوبهم وعقولهم وسواعدهم، وما لديهم من مواهب وعزائم وطاقات مع مصطفاه من خلقه ومجتباه من رسله سيد العالَمين محمد عليه الصلاة والسلام: حكمةً ربانية بالغةً، تؤذن ـ وله سبحانه الفضل والمنة أولاً وآخرًا ـ برفعة قدرهم وعظيم منزلتهم، كفاء المهمة الأكثر ثقلاً، تلك التي أُكرموا بأهلية القيام بأعبائها الجسام، طاعة لله وفي سبيل الله، والتي تتمثل بالإيمان الصادق، وجدية الاستمساك ظاهرًا وباطنًا بدين الإسلام، وهو الرسالة الخاتمة للإنس والجن، ونقل هديه الرباني بوعي وأمانة ودقة معاناة إلى أمة الشهادة على الناس، أمة النذير المبين محمد صلوات الله وسلامه عليه، الذي لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى حتى قام بتبليغ ما أنزل إليه خير قيام، وبيَّن للأمة ما يلزم بيانه أفضل بيان، الأمر الذي عمل عمله المؤثر في فتح مغاليق القلوب قبل فتح البلدان والأقاليم!

روى الإمام أحمد بسنده عن ابن أم عبد أبي عبد الرحمن رضي الله عنه قال: «**إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته. ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون عن دينه؛ فما رأى المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئًا فهو عند الله سيئ**»[1].

ولسوف تظل هذه الاستنارة في الفهم وعمق الإدراك عند صحابينا

---

(١) «المسند» (١/ ٣٧٩).

الرباني عبد الله رضي الله عنه معْلَمًا من معالم التكوين الثقافي الصحيح عند أجيال هذه الأمة يسعفهم في أن يفكروا بعقولهم لا بعقول الآخرين، ويقوِّموا الأشخاص والوقائع من خلال المناهج الذاتية للأمة، لا من خلال مناهج الآخرين، وبذلك يقفون على الجادة في حسن التصوُّر لموقع المهاجرين والأنصار عليهم الرحمة والرضوان من نصرة دينهم المرضيّ الله، والذود عن حياضه بما يملكون، والعمل على انتشار هديه، ورفع رايته في دنيا الناس وجمع شملهم عليها راضين طائعين. وأثمر ذلك ما أثمر من الحضارة المثلى على يد الأجيال المتعاقبة، والعمل على إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

والحق أنه لا يعوزك أن تقع على العديد من نصوص الكتاب والسنة التي تكشف عن خيرية سلوكهم على طريق الهداية إيمانًا وعلمًا وعملاً وجهادًا، وكبير الحجم الذي اشتمله موقعهم وهم يشهدون مسيرة الإسلام الظافرة بقيادة النبي عليه الصلاة والسلام، وإحكام بنيته الهادية في حياة الإنسان عاجله وآجله.

وقد بلغ ذلك مبلغ أن جاء الكتاب الكريم على بعض من فضائلهم وجميل صفاتهم بعد تقرير أنه ﷺ رسول الله وأنهم الذين معه، مبينًا أن تلكم الصفات ورد ذكرها في بعض الكتب السماوية السابقة، ومنها ما هو في التوراة، ومنها ما هو في الإنجيل.

وفي ذلك ما فيه من إيذان بعظيم منزلتهم ـ جزاهم الله عن الأمة كل خير ـ عند الله عز وجل، واستحقاقهم ثناءه سبحانه وهو ذو الفضل العظيم.

وأنت واجد أن ما ذكروا به كان مجامع الثناء عليهم بما يتخلقون به من أخلاق وما يتصفون به من صفات هي الذروة، إشراقًا وشمولاً على ساحة الحق ونصرة الحق؛ **فهم أشداء على الكفار لا يتخذون منهم وليًا ولا نصيرًا، رحماء بينهم يتعاونون على البر والتقوى في ظل أخوة الإسلام، حتى إنك لتراهم كالبنيان يشد بعضه بعضًا، تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، دأبهم المواظبة على طاعة الله خاشعين خاضعين؛ فهم ركَّعٌ سجَّدٌ، همُّهم أن يظفروا بفضل الله ورضوانه.**

وكان ذلك كله ـ وهم يستعذبون السير على الطريق الصاعدة ـ الأمر الذي جعل منهم قوة فاعلة مستنيرة بنور الله، تغيظ الكفار، وتشد أزر صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام، وهي قوة كان من معالمها، ذلك العمل الخالص بأحكام الدين، والاعتصام بحبل الله المتين، و ما يُرى من علو الهمة في نشر دعوة الحق في العالمين، وصدق العزيمة طاعةً لله ولرسوله في الذود عن حياض الإسلام، مجاهدين صابرين محتسبين.

ولما كان أمرهم على هذا المستوى من الفرار إلى الله تدرجًا في آفاق العطاء والرضى، فلا تسل عما أعدَّ الله لهم من المغفرة والأجر العظيم، جزاء إيمانهم المبرَّأ من الشوائب وعملهم الصالحات، بما يحمل العمل الصالح من اتقاء لله وشمول! **وتلكم هي الربانية التي يتجدَّد عطاؤها، ويسطع نورها داخل النفس وخارجها، وبذلك تعمل عملها الفاذَّ في بناء الفرد والجماعة والأمة، لا لشيء من متاع الدنيا الفانية، ولكن طلبًا لمرضاة الله وحسن العاقبة في دار البقاء.**

ومن أوضح النماذج في تمثل هذه الحقيقة والانتفاع بهذه الخصوصية عبد الله رضي الله عنه.

قال الله تعالى في خواتيم سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾[1].

* * *

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٩.

مع ابن مسعود أبي عبد الرحمن

ـ ٤ ـ

لعلي لا أقع في مكرور القول إذا عدت إلى رائعة من روائع ما جادت به ربانيَّة عبد الله بن مسعود أجزل الله مثوبته؛ كيما أتخذ منها عروة لحديث موصول بالكلام على بعض من مآثره التي ازدانت بها حركته على ساحة العقل عن الله ورسوله، والحرص على الاستدامة في تزكية لنفسه بالقرآن، والأخذ بيد إخوانه وأبنائه في المجتمع المسلم إلى ما فيه عزُّ الدنيا بالإسلام والنجاةُ يوم العرض على ذي الجبروت المنّان.

والرائعة التي أعنيها بالقول: قوله رضي الله عنه فيما روى الإمام أحمد في مسنده: «**إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه؛ فما رأى المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئًا فهو عند الله سيئٌ**»[1].

في ضوء ذلك أود الإشارة إلى ما أسلفتُ فيما سبق من القول من التذكير ببعض الحقائق عن الصحابة رضي الله عنهم من خلال ما توحي به خواتم سورة الفتح، وما تشرق به هذه الكلمات. والباعثُ على ذلك

---

(١) «المسند» (١/ ٣٧٩).

ـ حيث يدار الحديث عن واحد من هؤلاء البررة الذين وجد الله قلوبهم خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون عن دينه ـ ما تلد الليالي من جديد مكرور على بعض ألسنة وأقلام نفر من مرضى القلوب في شأن من صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وكان ديدنهم ـ وإن كانت العصمة للأنبياء ـ أن يدوروا مع الحق حيث دار.

وأكرم بمدرسة الهدي المحمدي، مدرسةً يكون من عيون أبنائها المجلِّين الربانيُّ عبد الله الذي كان لا يفتأ يدندن حول حسن التأسي، مرابطًا على إرث النبوة في مخالطة إيمانية عملية لكتاب الله الحكيم، والسنة النبوية المطهرة، حتى كان ـ كما دلت النصوص ـ أقرب هديًا ودلاً وسمتًا وخطبة بالرسول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه من حين يخرج من بيته إلى أن يرجع.

وقد وقفنا فيما سبق من القول على ما روى أحمد وغيره من بشارة النبي ﷺ له وهو يدعو في صلاته بقوله: «**سل تعط سل تعط ـ أو سل تعطه سل تعطه ـ**».

وهذا يقودنا إلى روايةٍ أخرى تحمل البشارة نفسها، ولكن مع اختلاف في الدعاء.

ذلكم ما أخرج أبو نُعيم في «الحلية» عن عبد الله بن عون بن عتبة قال: «بينما عبد الله يدعو بدعاء إذ مرَّ به رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر، فلما جاز به رسول الله سمع دعاءه ورسول الله لا يعرفه. فقال: **من هذا؟ سل تعطه، سل تعطه**. فرجع أبو بكر إلى عبد الله، فقال: الدعاء الذي كنت

تدعو به آنفًا، أعده عليَّ. فقال: حمدت الله ومجّدته، ثم قلت: «**لا إله إلا أنت وحدك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، ورسلك حق، وكتابك حق، والنبيون حق، ومحمد ﷺ حق**»[١].

ولعل من الخير أن أعيد إلى الأذهان أن الدعاء في الرواية السابقة: «**اللهم إني أسألك إيمانًا لا يبيد، ونعيمًا لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع** - أو قال: لا تبيد -، **ومرافقة النبي ﷺ في أعلى جنة الخلد**»[٢].

ومهما يكن من أمر، فإن في هذه الواقعة وأمثالها ترغيبًا أيَّ ترغيب للأمة بالاقتداء بصنيع أبي عبد الرحمن المشرق بالعبودية لله عز وجل، وقوفًا خاشعًا بين يديه، وذلة وخضوعًا في الضراعة إليه.

وهذا يقودنا إلى شذرات مضيئة أخر، تزيد الأمر تثبيتًا وتوكيدًا، وتستنهض الهمم لإحكام الصلة بكتاب الله تلاوة وتدبرًا آناء الليل وأطراف النهار، مصحوبًا ذلك بالعناية بالسنة المطهَّرة علمًا وعملاً وحسن تأسٍ بالنبي عليه الصلاة والسلام، وأن يكون ذلك بريد الإكثار من الطاعات وفعل القربات، ولزوم النهج المبارك الذي سلكه النبي ﷺ في بيانه للأمة وربى أصحابه عليه.

وما أعظم ما يقوم به المؤتمنون على التربية وإعداد الأجيال من تهيئة القنوات الخيِّرة بين هـذه القيم الربانية وبين الأجيال المسلمة ذكورها وإناثها - وهي أمانة ثقيلة في الأعناق، وحاجتها - وقد كثر الوافد الرديء من

---

(١) «الحلية» (١/ ١٢٧، ١٢٨).

(٢) وانظر: «الحلية» (١/ ١٢٨، ١٢٩)، «صفة الصفوة» (١/ ١٥٦، ١٥٧).

الأفكار والمصطلحات ـ متجددة إلى الانتفاع بعطاء الرعيل الأول من هؤلاء الربانيين على طريق الثقافة والتكوين، كفاء ما يغزوها من فكر الريبة والغواية، والتدليس في المصطلحات وضوابط الصعود والهبوط في حياة الأمة! والتشكيك في منابع قوتها، وما به كانت خير أمة أخرجت للناس، وحرصًا على الوقوف بعزة إيمانية لا تنقصها منهجية المعرفة في مواجهة التحديات!!

وغير خاف ما علم من صلة أبي عبد الرحمن المتميزة بكتاب الله العزيز حسن تلاوة، وجودة أسلوب في الإقراء والتعليم، ناهيك عن التدبر والتفاعل القلبي والنفسي الذي يشرق بسببه الإخلاص في عمل الجوارح، ويتيح للكلمة النافعة من المربي أن تأخذ طريقها إلى العقول والقلوب، فتنشرح لها الصدور وتؤتي أكلها على طريق القرب من رب العالمين.

وقد مرَّ بنا من قبل ما كان من عظيم ثناء النبي ﷺ على قراءة أبي عبد الرحمن والترغيب في القراءة على سننه؛ ومن ذلك ما أخرج الإمام أحمد بسنده عن عمرو بن الحارث بن المصطلق قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أحب أن يقرأ القرآن غضًا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد**»[1]، وفي رواية: «**فليسمعه من ابن مسعود**»، وأخرجه أبو نُعيم في «الحلية»[2] كما أورده الذهبي في «السير»[3].

---

(١) «المسند» (٤/ ٢٧٨، ٢٧٩).

(٢) «الحلية» (١/ ١٢٤).

(٣) «السير» (١/ ٤٧٦، ٤٧٧).

وانظر إلى ما ينبيك عن الآفاق التي يكشف عنها نور النبوة فيما هدى إليه الرسول ﷺ وهو يثني على عبد الله ويكشف عن منزلته في القراءة والإقراء؛ روى صاحب «الحلية» عنه أنه كان يقول: «**ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس يفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون** ـ يعني فرح بطر وأشر ـ **وبصمته إذا الناس يخلطون، وببكائه إذا الناس يضحكون** ـ أي لهوًا وغفلة ـ **وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًا من خشية الله محزونًا، حكيمًا عليمًا سكينًا، وينبغي لحامل القرآن أن لا يكون جافيًا ولا غافلاً، ولا صخابًا، ولا صياحًا، ولا حديدًا**»[1].

وجزى الله ابنه عبد الرحمن الذي روى أن رجلًا أتى أباه فقال: يا أبا عبد الرحمن، علمني كلمات جوامع نوافع، فقال: «اعبد الله ولا تشرك به شيئًا، ودر مع القرآن حيث دار، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيدًا بغيضًا، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه وإن كان حبيبًا قريبًا». رواه صاحب «الحلية»[2]، وهو كذلك في «صفة الصفوة»[3].

* * *

(١) «الحلية» (١/ ١٣٢).
(٢) (١/ ١٣٤).
(٣) (١/ ١٦٥).

مع ابن مسعود أبي عبد الرحمن

ـ ٥ ـ

الرحلة مع الحديث عن واحد من عباد الله الربانيين، وما تزدان به حياته من آفاق الضياء: تشعرك ـ مهما قلَّ زمنها وتضاءل حجمها ـ بما يغمر هذا العالم الربانيَّ من عطاء الكريم المنان جل ثناؤه فيما أودع فيه من الأهلية لسلوك المرتقى الصعب حيث الجنة محفوفة بالمكاره، وحيث النار محفوفة بالشهوات، وفيما رزقه من نور البصيرة الذي يحمل على سلوك الجادة، عملاً بالعلم، واتقاءً لله تبارك وتعالى، في ورع يحمل على ترك شيء مما لا بأس به حذر الوقوع فيما به بأس، مصحوبًا ذلك كله بالحرص على إيصال النفع للمسلمين بتعليم الكتاب والتربية والدرس، كما هو الشأن في أبرز سمات الربانيين ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ .

وهذا ما وجدناه ونجده في أخبار القارئ المقرئ البحر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي تربى في مدرسة النبوة، **المدرسة التي تجعل الإنسان يمشي على الأرض بطهر السماء**، وتجده ـ وقد تجاوز عقبة حب الدنيا وتحرر من سجن المراءاة وحب الظهور ـ أقوى من كل عوامل الترغيب والترهيب الأرضية، وأقدَر على أن يجعل التقوى زاده في كل شأن من الشؤون، وأن لا يشغله الإسهام في عمارة الأرض عن أن تكون الآخرة أبدًا نصب عينيه ذاكرًا ما جاء في الكلمات الهاديات من قوله سبحانه: ﴿ قُلْ

مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾[١] .

وقوله جل شأنه : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[٢] .

وماذا أنت قائل في هذا التلميذ البارع النابه الموفَّق، وهو واحد من مقدَّمي جيل الصحابة عليهم الرضوان الذين كان فيما جاء من الثناء عليهم قولُ الله تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[٣]، وقوله تباركت أسماؤه : ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٤] .

وتلكم هي النعماء التي منَّ الله بها على أبي عبد الرحمن فيمن منَّ عليهم بذلك، فشرفوا بخالص الإيمان الذي كان دائمًا في ازدياد، وبالمؤازرة الفاذّة للنبي عليه الصلاة والسلام وهو يبني المجتمع المسلم، ويُحكم وضع قواعد البناء للدولة الإسلامية، ويمهِّد لقوافل الخير أن تنشر دين الله في العالمين .

ولنترك لشذرات أخَر من أخبار العناية الإلهية والتوفيق : أن تقرر وتؤكد إشراقة هذه النعماء في حياة أبي عبد الرحمن، وما كان من فضل الله

---

(١) سورة النساء، الآية : ٧٧ .
(٢) سورة النازعات، الآيتان : ٤٠، ٤١
(٣) سورة الأنفال، الآية : ٧٤ .
(٤) سورة التوبة، الآية : ٨٨ .

في تأهيله لما كانت حاله من بعدُ عليه، وتذليل السبل الموصلة إليه!

أخرج أبو نعيم في «الحلية» من رواية الأعمش عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه قال: قال عبد الله: «**لقد رأيتني سادس ستة وما على ظهر الأرض مسلم غيرُنا**»، ورواه الحاكم في «المستدرك» وصححه ووافقه الذهبي[1]. كما أخرجه البغوي وآخرون[2].

وانظر كيف أن هذا السبق في الإسلام، تبعه بتقدير المولى عز وجل، شدة الرغبة في تعلُّم القرآن من الرسول عليه الصلاة والسلام، وشهادة الرسول الكريم له بأنه ملهم للصواب والخير.

روى الإمام أحمد عن زِرِّ بن حُبيش عن ابن مسعود قال: «كنت أرعى غنمًا لعقبة بن أبي معيط، فمرَّ بي رسول الله ﷺ وأبو بكر، فقال: «**يا غلام، هل من لبن؟**» قلت: نعم، ولكني مؤتمن، قال: «**فهل من شاة لم ينزُ عليها الفحل؟**» فأتيته بشاة، فمسح ضَرعها، فنزل لبن، فحلَب في إناءٍ، فشرب وسقا أبا بكر، ثم قال للضرع: «**اقلِص**»، فقلص، قال: ثم أتيته بعد هذا فقلت: يا رسول الله، علِّمني من هذا القول! قال: فمسح رأسي وقال: «**يرحمك الله، فإنك غُلَيِّم مُعَلَّمٌ**»، وفي رواية أخرى لأحمد: «فأتاه أبو بكر بصخرة منقورة، فاحتلب فيها، فشرب، وشرب أبو بكر، وشربت، قال: ثم أتيته بعد ذلك، قلت: علِّمني من هذا القرآن، قال: «**إنك غلام معلَّم**»،

---

(١) انظر: «الحلية» (١/ ١٢٦)، «المستدرك» (٣/ ٣١٣)، «السير» (١/ ٤٦٤).

(٢) انظر: «الإصابة» (٢/ ٣٦٩).

قال: فأخذت من فيه سبعين سورة»[١]. ورواه يعقوب بن سفيان الفسويُّ في كتابه «المعرفة والتاريخ»[٢]، وأبو نعيم في «الحلية»[٣]، والذهبي في «السير»[٤].

هكذا شهد أبو عبد الرحمن ـ وهو في مراحل تكوين شخصيته المبكرة ـ واحدة من معجزات النبي ﷺ حين مسح ضرع شاة لم يقربها الفحل؛ فهي ليست حاملاً ولا ذات ولد، فحفَل ضرعُها باللبن حتى شرب من اللبن هو عليه الصلاة والسلام وأبو بكر والغلام عبد الله، ثم أمر ﷺ الضرع أن يتقلَّص فتقلَّص وعاد إلى ما كان عليه قبل أن يجتمع فيه اللبن.

كما أبصر هذا التميُّز الوضيء بصلة أبي بكر بالرسول عليه الصلاة والسلام، وكان لهذا ما له في معرفة الرجال المنوط بهم حمل العبء الجسيم، وظفِر بعد سؤاله الرسول ﷺ تعليمه شيئًا من القرآن، بأن مسح عليه الصلاة والسلام رأسه ـ أمارة التحبب والرضا ـ، ودعا له مثنيًا مشجعًا بقوله: «**يرحمك الله، إنك غلام ـ أو غُلَيِّم ـ معَلَّم**» أي ملهَم للصواب والخير في القول والعمل.

وفي هذا الجمع بين التحبُّب والتلطُّف، وبين الدعاء والنطق بما يدل على الإعجاب والتفاؤل: ما يؤذن بلون من ألوان الضياء في منهج التربية النبوي، حين أخذ ﷺ بيد عبد الله إلى ساحة الجديَّة في التطلع إلى المعرفة

---

(١) «المسند» (١/ ٣٧٩، ٤٦٢).
(٢) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٣٧).
(٣) «الحلية» (١/ ١٢٥).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (١/ ٤٦٥).

أكثر وأكثر، وأشاع في نفسه الأنس والرغبة في الإقبال على العلم، وسلوك طريق الخير والصلاح، ناهيك عن إنارة قلبه وعقله بحبه عليه الصلاة والسلام حين فتح له هذه الآفاق، وارتقى به شعوريًا إلى مستوى أن يكون من أهل الصلة الحقيقية بالقرآن؛ والثمراتُ الطيبة لهذه المحبة الصادقة تعز على الحصر.

نذكر هذا ونذكر معه أن المعصوم عليه الصلاة والسلام رأى مخايل النباهة وتباشير العطاء في ابن مسعود، وأنه أهل للتشجيع على السلوك الأمثل من منابعه؛ كما أنه على قدر وافر من الاستعداد للعلم والعمل، والدرس والتعليم، وعلى قدر يماثله ـ والله أعلم ـ من الأمانة وكريم الأخلاق.

وقد آتى هذا الأسلوب التربوي الرفيع أُكُلَه على خير وجه في حياة أبي عبد الرحمن، وكان ذلك كلُّه صورة مشرقة من صور العناية الإلهية به ـ وهو في سن مبكرة ـ، حين يسَّر الله له أن يكون ـ وقد آتاه ما آتاه من الموهبة والاستعداد للعطاء ـ على النبع الزلال في هدي النبي عليه الصلاة والسلام وتربيته الحكيمة.

وما أعظم ما كان من شكره رضي الله عنه فيما بعد لهذه النعمى في نفسه بتلاوة القرآن وتدبره آناء الليل وأطراف النهار، وفي المجتمع المسلم بإقراء الناس هذا الكتاب غضًّا طريًا كما أنزل، وتعليمهم أحكامه على الوجه الذي يدعو إلى العمل به والانتفاع الشامل بهداه.

وتحسن الإشارة إلى أنه ما يزال في أرجاء المصادر الكثير الكثير من

الوقائع التي تزخر بالدروس والعبر، وتكشف أول ما تكشف عن رفيع المنزلة التي نالها أبو عبد الرحمن، وما كان لسلوكه من بالغ الأثر في تاريخ أمتنا الذي تميَّز بتقديم رجال أقل ما يقال فيهم بأن كلَّ واحد منهم ترجمان عملي بعمله وعلمه وسلوكه للإسلام الذي رضيه الله ديناً للعالمين.



مع ابن أم عبد رضي الله عنه

- ٦ -

القدر المستطاع من الإحاطة بالخبر الموثّق عن مراحل التكوين الأولى في شخصية الرجل الرباني المتألقة بنور العلم والعمل والحرص على نفع الآخرين كفيل - والله المستعان - بتزويد الناظر في حياة هذا العالم العامل الثبت المعلم، بتحقيق ما يعين على الإنصاف في الحكم على الرجال، وأثر كل منهم في بناء الحياة الإسلامية وحضارة الإسلام، والانتفاع - إذا صدقت الوجهة - بعوامل تكوينهم، وقد اختارهم الله للجُلَّى في ذوات أنفسهم، وفي تحصيل الهداية من منابعها الأصيلة للآخرين، انتفاعًا يعطي الأجيال على صعيد التربية والإعداد، مفاتيح حسن التأسي بأولئك الأخيار ظاهرًا وباطنًا، دون غفلة عن الواقع وتطور الوسائل، كيما تستمر سلسلة العطاء الذي لا يخرج على الأصول التي كانت به الأمة الوسط خير أمة أخرجت للناس، متصلة، آخذًا بعضها برقاب بعض.

ويتضح ذلك بقدر أوفى، إذا كنا على ذكر من واقع لا نُغْبَطُ عليه بُعدًا عن مقومات الوجود الذاتي للأمة والاعتزاز برسالتها وتاريخها، وإقبالاً غافلاً على موائد الآخرين بما لها وما عليها، وعلى يقين بالحاجة المتجددة إلى معرفة الماضي وحجم الإنسان الفاعل الخيِّر فيه، وما لذلك من أثر في إحكام بناء الحاضر على الوجه المطلوب، إحكامًا يصونه قدر الإمكان من عوامل التخلخل والأذى، وتجنب ما يوقع في الغفلة عن عظيم

أهمية ذلك في الإعداد للمستقبل المنشود بعون الله .

أقول هذا والحديث موصول بالعودة إلى خبر عن ربانيِّنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ينتمي إلى هذا القبيل من العوامل المؤثرة في التكوين، **ولم يتسع المقام لأكثر مما قدَّمنا عنه في كلمات قريبات؛ وذلك حرصًا على الانتفاع به وبموقعه من شخصية أبي عبد الرحمن**، كيما يكون ـ إن شاء الله ـ مرقاة لاصطحاب غيره على صعيد الاستفادة بالسَّنن المبارك الذي كان يصبح ويمسي عليه، حتى وافته المنية أكرم الله مثواه في الآخرين!

قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثني أبي قال: حدثنا أبو بكر بن عياش، قال: حدثني عاصم عن زِرٍ ـ هو ابن حبيش ـ عن ابن مسعود قال: كنت أرعى غنمًا لعقبة بن أبي معيط، فمرَّ بي رسول الله ﷺ وأبو بكر، فقال: «**يا غلام، هل من لبن؟** قال: قلت: نعم، ولكني مؤتمن، قال: **فهل من شاةٍ لم ينْزُ عليها الفحل؟** فأتيته بشاة، فمسح ضرعها، فنزل لبن، فحلبه في إناء، فشرب وسقا أبا بكر، ثم قال للضرع: **اقلِصْ**، فقَلَص. قال: ثم أتيته بعد هذا، فقلت: يا رسول الله، علمني من هذا القول! قال: فمسح رأسي وقال: **يرحمك الله فإنك غُلَيِّمٌ معلَّم**»[1]، وله في رواية أخرى « . . فأتاه أبو بكر بصخرة منقورة، فاحتلب، فشرب، وشرب أبو بكر، وشربت. قال: ثم أتيته بعد ذلك، قلت: علمني من هذا القرآن، قال:

(١) «المسند» (١/ ٣٧٩).

«**إنك غلام معلَّم**»، قال: فأخذت من فيه سبعين سورة»[١].

وهذه رواية أخرى عند الإمام أحمد فيها شيء من التفصيل، يقول فيها أبو عبد الرحمن رضي الله عنه: «كنت غلامًا يافعًا أرعى غنمًا لعقبة بن أبي معيط، فجاء النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه ـ وقد فرَّا من المشركين ـ، فقالا: **يا غلام، هل عندك من لبن تسقينا؟** قلت: إني مؤتمن ولست ساقِيَكُما، فقال النبي ﷺ: «**هل عندك من جذعة لم ينزُ عليها الفحل؟**» قلت: نعم، فأتيتهما بها، فاعتقلها النبي ﷺ، ومسح الضرع، فحفَل الضرع، ثم أتاه أبو بكر رضي الله عنه بصخرة منقعرة، فاحتلب فيها، فشرب، وشرب أبو بكر، ثم شربت. ثم قال للضرع: «**اقلِص**»، فقلص؛ فأتيته بعد ذلك، فقلت: علِّمني من هذا القول! قال: «**إنك غلام معلَّم**». قال: فأخذت من فيه سبعين سورة لا ينازعني فيها أحد»[٢].

عقبة بن أبي معيط: هو عقبة بن أبانَ بنِ ذكوانَ، كنيته أبو الوليد، وكنية أبيه أبو معيط، من مقدَّمي قريش في الجاهلية، كان ـ عليه وعلى أمثاله لعائن الله ـ شديد الأذى لرسول الله ﷺ بخاصة، وللمسلمين بعامة عند ظهور الدعوة. وظلَّ على شركه حتى أُسر يوم بدر وقُتل[٣].

والملاحظ أن الغلام اليافع عبد الله رضي الله عنه وأرضاه لم يمنعه شِركُ عقبة وأذاه للمسلمين من أن يكون أمينًا حقًا على ما ائتمنه عليه من

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٣٧٩).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٤٦٢).

(٣) «الروض الأنف» للسهيلي مع سيرة ابن هشام (٢/ ٧٦)، وانظر: «الأعلام» للزركلي (٤/ ٢٤٠).

الماشية ولبنها، وكان ما كان من قوله للرسول ﷺ وأبي بكر: إني مؤتمن ولست ساقيكما، ثم كانت المعجزة.

هذا، والضرع لذات الظِّلف ـ كما يقول أهل العربية ـ كالثدي للمرأة. وقول النبي ﷺ للضرع: «**اقلِص**»: أي اجتمع وعُد إلى ما كنت عليه قبل أن يحفَل اللبن، جاء في «النهاية» لابن الأثير: «ومنه حديث ابن مسعود: «ثم قال للضرع: «**اقلِص**» فقلص» أي اجتمع»[١] وجاء في «المصباح المنير» للفيومي: قَلِص الثوبُ: انزوى بعد غسله؛ فالواضح ـ كما أسلفنا ـ أن الرسول عليه الصلاة والسلام أمر الضَّرع الخاليَ من اللبن؛ لأنه ضرع شاة أو جذعة خالية من السبب الذي يجلب اللبن بمشيئة الله تعالى. . أمره أن يعود إلى ما كان عليه قبل أن يمتلئَ باللبن ببركة مسحه ﷺ إياه، ويشربَ منه الجميع. قال ابن الأثير: «ومنه حديث عائشة رضي الله عنها: أنها رأت على سعدٍ درعًا مقلَّصة، أي مجتمعة منضمَّة، يقال: قلَصت الدرع وتقلصت»[٢].

وقوله ﷺ لعبد الله بعد أن مسح رأسه ودعا له بالرحمة: «**إنك غُلَيِّم معلَّم**» كما في إحدى الروايات. الغُلَيِّم: تصغير غلام، وهذا التصغير هنا للتحبُّب، وهو ـ كما يدل على بلاغته عليه الصلاة والسلام ـ يدل على كريم لطفه وحكيم أسلوبه في مراعاة مرحلة العمر عند من يخاطبه، ومقدار استعداده لقبول ما يقول، وذلك وجه من وجوه البيان عنده عليه الصلاة

(١) «النهاية» مادة (ق ل ص)، وانظر: «لسان العرب» لابن منظور، «المصباح المنير» للفيومي المادة نفسها.
(٢) «النهاية» مادة (ق ل ص).

والسلام في وضع الأمور مواضعها!!

ومعلَّم: أي ملهم للصواب والخير ـ كما أشرت سابقًا ـ قال صاحب اللسان: «وفي حديث ابن مسعود: إنك غُلَيِّم معلَّم أي ملهم للصواب والخير، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾[1] أي: له من يعلِّمه. وقد سبق إلى القول بذلك ابن الأثير في «النهاية»[2].

ولقد يتأيد ذلك ـ وفيه ما فيه من قوة التشجيع والتحريض على علو الهمة عند عبد الله ـ بما ذهب إليه بعض أهل العلم من أن معنى قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾[3]، لذو عمل بما علمناه وهو يعقوب عليه السلام. قال الإمام القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن»: «وقيل: «لذو علم» أي عمل؛ **فإن العلم أول أسباب العمل، فسمي بما هو بسببه**»[4].

وروى الأزهري في كتابه «تهذيب اللغة» عن سعد بن زيد عن أبي عبد الرحمن المُقري أيضًا أن المعنى «لذو عمل بما علَّمناه، يقول سعد: فقلت: يا أبا عبد الرحمن ممن سمعت هذا؟ قال: من ابن عيينة! قلت: حسبي»[5].

وقد أخذ بهذا القول من المحدَثين العلامة الطاهر بن عاشور، فقال في

---

(١) سورة الدخان، الآية ١٤، وانظر: «اللسان» لابن منظور، مادة (ع ل م).
(٢) مادة (ع ل م).
(٣) سورة يوسف، الآية: ٦٨.
(٤) «الجامع لأحكام القرآن» (٩/ ٢٢٩).
(٥) انظر: «اللسان» مادة (ع ل م).

«التحرير والتنوير»: «وقد دل قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ ﴾ بصريحه على أن يعقوب عليه السلام عمل بما علَّمه الله. ودلَّ قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ بتعريضه على أن يعقوب عليه السلام من القليل من الناس الذين علموا مراعاة الأمرين ليتقرر الثناء على يعقوب عليه السلام باستفادته من الكلام مرتين: مرة بالصراحة ومرة بالاستدراك»[١] والله ولي التوفيق.

* * *

(١) «التحرير والتنوير» (١٣/ ٢٥).

مع أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود

ـ ٧ ـ

لله ما أكثر مواطن الاعتبار في حياة من سلك الله بهم طريق الربانية، فكانوا على السبيل المأمونة، مصابيحَ هدىً للأمة، يبصِّرونها طريق الأمنة والتمكين، فيأخذون بيد الناس ـ وفق منهج واقعي وأسلوب حكيم ـ إلى حيث الاستنارةُ بكتاب الله العزيز تلاوةً صحيحة سليمة، وتدبُّرًا لا يعتريه سقَم من سوء التأويل أو قصور الفهم، وبسنة النبي عليه الصلاة والسلام علمًا وعملاً.

وترى هجيراهم التعليمَ والدرسَ والتعليمَ، تفقيهًا في الدين، وتقويمًا للسلوك وتحريضًا دائمًا على طاعةِ رب العالمين، والفوزِ بالجنة دار المتقين.

ومن الأهمية بمكان ملاحظة أن أهلية الرباني للقدوة بما هو عليه من خشية الله والعمل بالعلم، والإخلاص في حمل الناس على المنهج السويِّ، تكاد تربو في بعض الأحايين على ما أوتي من العلم، وما رزق من حسن التأتي في التربية والتعليم!

وما كان ذلك ليكون في هؤلاء الربانيين العلماء، لولا أن الأخذ بالأسباب قد تقدَّم ما أنعم الله به عليهم من التوفيق لولوج أبواب الخير، وتيسير سبل الهداية والرشاد، وعندما دعا داعي تلك الهداية كانت استجابةُ القلب والعقل وفق ما أودع الله من الفطرة والاستعداد، فوقر الإيمان في

الصدر، وانعكس نوره على الجوارح، فاستقامت على طاعة الله.

ولا تسل عما يتبع ذلك من التوجه المرضي لله تعالى في السعي الدائب إلى ما فيه صلاح النفس وتقواها، وجلب الخير للناس في دينهم ودنياهم وآخرتهم، ابتغاء مرضاة الله الذي لا يُضيع أجر من أحسن عملاً.

أقول هذا وأنا بسبيل توصيل القول مرة أخرى في مآثر القارئ المقرئ الفقيه الثبت أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ لما أنه واحد من النماذج المضيئة التي أشرق في جنباتها التوفيق؛ وذُلِّلت لها أبواب الهداية والخير؛ فقد أنعم الله عليه ـ مع جدِّه واجتهاده ـ بأن كان ـ وهو غلام يافع ـ كما سلفت الإشارة، سادس ستة في الإسلام، ثم بما كان من شدة قربه من النبي عليه الصلاة والسلام؛ فقد أخرج الشيخان والترمذي والنسائي من حديث أبي موسى الأشعري قال: «**قدمت أنا وأخي من اليمن، فمكثنا حينًا، وما نحسَب ابن مسعود وأُمَّه إلا من أهل بيت النبي ﷺ، لكثرة دخولهم وخروجهم عليه**»[1].

وأخرج مسلم من رواية عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا عبد الله، إذنُك عليَّ أن يُرفعَ الحجابُ، وتسمعَ سِوادي حتى أنهاك**»[2].

---

(١) انظر: «الجامع الصحيح» مع «الفتح» الأرقام (٣٧٦٣)، باب فضائل عبد الله بن مسعود من كتاب الفضائل (٤٣٨٤)، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن في المغازي. «صحيح مسلم» (٢٤٦٠)، الفضائل، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه. «الجامع الصحيح» للترمذي (٣٨٠٨)، «المناقب» باب مناقب عبد الله، وينظر: «السير للذهبي» (١/٤٦٨).

(٢) «صحيح مسلم» (٢١٦٩)، باب جعل الإذن رفع حجاب أو نحوه من العلامات.

وأخرجه ابن ماجه في المقدمة، وابن سعد في «الطبقات»، وأبو نُعيم في «الحلية» وغيرهم[١].

السِّواد: السِّرار، جاء في «النهاية»: «وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال له: «**إذنك عليَّ أن يُرفعَ الحجابُ، وتستمعَ سِوادي حتى أنهاك**» السِّواد بالكسر: السِّرار، يقال: ساودتُ الرجلَ مساودَةً إذا سارَرتَه. قيل: هو من إدناء سَوادك من سَواده: أي شخصِك من شخصِه»[٢].

وهذا قليل من كثير؛ فقد مر بنا فيما سبق من أخباره شهوده إحدى معجزات النبي ﷺ، **حين مسح ضرع شاة خاليةٍ من أسباب وجود اللبن في ذلك الضّرع، فنزلَ لبن، فحلبه في إناء فشرب وسقا أبا بكر ـ وسقاه هو كما في بعض الروايات** ـ ثم قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ للضرع «**اقلِص**» فقلص. أي عاد إلى حالته قبل امتلائه باللبن، ولم يقتصر الأمر على ذلك؛ بل شهد في ملاطفة النبي ﷺ له أمرًا يدل على ما يتكشَّف بنور النبوة من الحقائق غير المنظورة للآخرين، إذ طلع عليه الرسول الكريم بما هو غاية في البعث على التفاؤل بما يمكن أن يكون عليه في قادمات الأيام من وثيق الصلة الإيمانية العالية بالكتاب العزيز؛ حفظًا وتدبرًا وما يتعلق بهما؛ ذلكم قوله ـ رضي الله عنه ـ: ثم أتيته بعد هذا، فقلت: يا رسول الله، علمني من هذا القول، قال: فمسح رأسي وقال: «**يرحمك الله، فإنّك غلَيِّمٌ مُعَلَّم**»،

---

(١) «سنن ابن ماجه» المقدمة (١٣٩)، «الطبقات» لابن سعد (٣/ ١/ ١٠٨، ١٠٩)، «الحلية» (١/ ١٢٦).

(٢) «النهاية» مادة (س و د).

وكان هذا في أول الإسلام كما يقول الحافظ ابن حجر[(١)] .

أرأيت؟ ! مَسَحَ رأسه ، ودعا له بالرحمة ، وبشَّره بما رأى ـ بنور النبوة ـ أنه غُلام ـ أو غُليّم تصغير غلام ـ معلَّمٌ ، أي مُلْهَمٌ للخير والصواب .

وبعد ، فهنيئًا ثم هنيئًا لهذا الغليِّم الذي أصبح فيما بعد من كرام من يقتدى بهم في دنيا المسلمين ؛ وعند الله علم ما فعلت هذه الدُّرر النبوية في نفس عبد الله ، وما زادت من شدة تطلعه الإيماني ـ وهو غلام حدث ـ إلى تعلُّم الكتاب الذي لا ريب فيه ، والاستنارة بتلاوته وحفظه وتدبره وتعليمه ، وشحذت من همته للعمل على تحقيق ذلك بإذن الله ، ناهيك عن زيادة إيمانه بالرسول ﷺ وشدة تعلقه به ، خصوصًا وأنه ﷺ شرع في تعليمه القرآن بقدر متَّسع ؛ إذ جاء في بعض الروايات عند أحمد قول عبد الله : «فأخذتُ من فيه سبعين سورة» ، وعند البخاري : «أخذت من في رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سبعين سورة» .

وهكذا تجد أنك لا تغادر مأثرة من مآثر هذا الرجل الرباني الذي صحبه التوفيق من حداثة سنه ـ حتى تقع على أخرى مثلها أو خير منها ، سواء في ذات نفسه ، أو في علاقته بالمسلمين .

وكل أولئك عنوان فضل الله ومنته على علَم القراءة والإقراء والفقه والتفقه في الدين . . الفضل الذي تعدَّى شخصه رضي الله عنه إلى الأمة ، فكان لها منه أوفى نصيب .

---

(١) «الإصابة» (٢/ ٣٦٩).

يشهد لذلك ما كان من دأبه في إحكام صلتها بالكتاب والسنة، وأن يكون الفقه في الدين ـ مقرونًا بالإخلاص لله عز وجل ـ هو محورَ الضبط الأكمل في حياتها وهي تعمر الأرض وتبني الحضارة، وتكدح إلى ربها طلبًا للنجاة، والفوز بحسن العاقبة يوم الدين.

وما كان لتاريخ الصراع بين الحق والباطل أن ينسى شجاعته الإيمانية في الجهر بالحق مهما كلَّفه ذلك من ثمن، ولا أدلَّ على هذا من أنه يوم كانت الشدة الشادة مرفوعة الراية في أذى المسلمين بمكة، وفتنتهم عن دينهم، وهم الفئة القليلة المستضعفة، كان رضي الله عنه أول من جهر بالقرآن بعد محمد عليه الصلاة والسلام.

قال ابن إسحاق في «السيرة»: حدثني يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه قال: «**أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله ﷺ عبدُ الله بن مسعود**»[(١)]. وأورد هذا الخبر الحافظ في «الإصابة» فقال: «**وهو أول من جهر بالقرآن بمكة**، ذكره ابن إسحاق عن يحيى بن عروة عن أبيه»[(٢)]، كما أورده الذهبي في «السير»[(٣)] وآخرون.

وكان ذلك منه ـ كما تدل الرواية بطولها ـ على الرغم من تحذير إخوانه إياه عدوان المشركين، وخشيتهم عليه. وقد أصابه بذلك من الأذى الشيء

---

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٨٨، ٣٨٩)، «السيرة النبوية في المصادر الأصلية» للأخ الفاضل الدكتور مهدي رزق الله (ص١٨٣).

(٢) «الإصابة» لابن حجر (٢/ ٣٦٩).

(٣) «السير» (١/ ٤٦٦).

الكثير. . وعندما قال له الصحابة: «**هذا الذي خشينا عليك! قال: ما كان أعداء الله أهونَ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدًا! قالوا: لا، حسبك؛ قد أسمعتَهم ما يكرهون**»[١] .

وهكذا يجتمع لأبي عبد الرحمن ـ مبتدأً مسيرة الإسلام في أرض التاريخ ـ العلمُ بالقرآن، والشجاعة في الجهر به في ذلك الجوِّ المكفهر بظلام الجاهلية والفتنة عن الدين.

ومن الأهمية بمكان أن يذكر لعبد الله أن شجاعته بالجهر بالقرآن في تلك الحِقبة الشديدة الوطأة على المسلمين ـ وهم الفئة القليلة المستضعفة يومذاك ـ حتى كان هو أولَ من جهر بالقرآن بعد محمد ﷺ: كما دلَّت على قوة إيمانه، واستعذابه الأذى في سبيل إعلاء كلمة الله، كانت هذه الشجاعة الإيمانية تؤذن التاريخَ ـ كما دلت وقائع حياته فيما بعد ـ بشدة حبه، وما ينطوي عليه من إعزاز وثيقٍ لكلام الله المنزل شفاءً ورحمة للمؤمنين، ويقينٍ بوجوب أن يأخذ الإقبال عليه تلاوة حق التلاوة، وتدبرًا حق التدبر، وإحلالاً لحلاله، وتحريًا لحرامه: **مكانه اللائق في حياة أهل الإيمان الذين رضوا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد عليه الصلاة والسلام نبيًا ورسولاً، فبه يخرجون من الظلمات إلى النور، وبه يهتدون للتي هي أقوم في عاجلهم وآجلهم، وبالأخذ بمنهاجه ينتصرون على الباطل وأهله، ويمكَّن لهم في الأرض، ويظفرون بدار المقامة يوم الدين. ولنا عودة إلى هذه الواقعة مرة أخرى إن شاء الله**.

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٣٨٨، ٣٨٩).

مع عبد الله بن مسعود أبي عبد الرحمن

- ٨ -

كان فيما أسلفت من القول ما صحَّ من أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان **أول من جهر بالقرآن بمكة بعد محمد عليه الصلاة والسلام**، وهي واقعة لا يقادر قدرها إلا إذا كنا على تصور واضح لتلك الحِقبة التي كان البلاء ينصب فيها على الفئة القليلة المؤمنة صبًّا، وألوانُ الأذى لفتن المسلم عن دينه لا تنحسر في ليل أو نهار.

علمًا بأن الخشية عليه رضي الله عنه من عدوان المشركين وأذاهم قد حملت إخوانه من الصحابة رضي الله عنهم عن صرفه عما عزم عليه من ذلك، ولكنه رأى أن ما أقدم عليه أكبر من أن ينصرف عنه مخافة الإهانة والتعذيب.

وهذه المأثرة العظيمة التي عملت عملها في شد أزر أهل الإيمان، وإعلان قوة الحق - على استضعاف أصحابه - في وجه أهل الشرك والطغيان وإسماعهم ما يكرهون . . ذاتُ دلالة عظيمة على شدة مخالطة الكتابِ كلامِ رب العالمين قلبَ وعقلَ ومشاعر أبي عبد الرحمن، كما أنها مؤذنة بأنه على يقين لا يتزعزع - كما دلت وقائع حياته فيما بعد - من وجوب أن يكون أهل الإسلام أبدًا ذكورُهم وإناثُهم - وهو واحدٌ منهم - جادِّين في أن يأخذ القرآن تلاوةً وتدبرًا وفقهًا لأحكامه وعملاً بها، مكان الصدارة في حياتهم، لما أنه منبع الهداية الأول، وأنه يُعلى ولا يعلى عليه، وبمنهجه الرباني شاء الله أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس.

ومما يذكر لعبد الله أن هذه الصلة المتميِّزة بالفرقان الحكيم: كانت مصحوبة بكثير من العناية بهدي المصطفى عليه الصلاة والسلام حفظًا ورواية وتبليغًا وتعليمًا؛ لما أن طاعة رسول الله من طاعة الله، **فالسنة النبوية ـ وهي البيان المتعدد الوجوه لكتاب الله ـ ما بدٌّ من أن يكون لها الوجود العملي المؤثر في حياةالمسلمين عقيدة وشريعة وأخلاقًا، على طريق الهداية والتمكين؛ لأن خطاب التكليف في القرآن وفيها واحد**، والمهم أن تصح نسبة القول أو الفعل أو الإقرار إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[١]، ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[٢].

وعلى هذا فعدم العمل بالسنة مؤذن بعدم العمل بالكتاب والتعطيل له ـ والعياذ بالله ـ. قال الحافظ الذهبي: الأعمش عن عروة بن مرة عن أبي البختري قال: أتينا عليًا رضي الله عنه فسألناه عن أصحاب النبي ﷺ، قال: «عن أيهم تسألونني؟ قلنا: عن ابن مسعود. قال: «**علم القرآن والسنة، ثم انتهى، وكفى به علمًا**..»[٣]. رجاله ثقات، وأخرجه الفسوي في «تاريخه» (٢/ ٥٤٠) من طريق أخرى عن الأعمش بهذا الإسناد.

من هنا يمكن القول بأن الحرص على الأخذ بالمنهج الرباني بقبول

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٠.
(٣) انظر: «السير» (٢/ ٣٨٨).

لا تشوبه في نفس المؤمن أثارةٌ من حرج، يعني الأخذ بالكتاب ـ وهو الوحي المتلوُّ المبيَّن ـ وبالسنة ـ وهي الوحي غير المتلوِّ المبيِّن ـ وذلكم صنيع الصحابة الكرام ـ وابن مسعود من عيونهم ـ، وصنيع من تبعهم ويتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وكم كان رضي الله عنه حريصًا على أن يكون ذلك نهجَ المسلمين في مختلف شؤون دينهم ودنياهم؛ لأن حقيقة الأخذ بالكتاب تعني الأخذ بالسنة التي هي بيانه.

أخرج أبو نعيم وغيره ـ واللفظ لأبي نعيم ـ من رواية عبد الله بن أحمد عن معنٍ قال: قال عبد الله بن مسعود: «**إذا سمعت الله يقول:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ **فأرعها سمعك؛ فإنه خير يأمر به أو شرٌّ ينهى عنه**». يعني استمع إليها استماع استجابة وحرص على التدبُّر يبعثان على امتثال التكليف الوارد بعد هذا الخطاب العذب المؤنس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، إنه التذكير بالقاعدة الإيمانية التي استنار القلب بضيائها، وكان العقل من هدايتها بحسبان. والسيرُ وفق هذه القاعدة يقتضي الائتمار إذا كان التكليف أمرًا، والانتهاء إذا كان التكليف نهيًا، وبهذا يتحقق إرعاء السمع المقصود بقول عبد الله: «**فأرعها سمعك**».

فإرعاء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ السمعَ: هو استماع مقرون بالإقبال على طاعة المؤمن مولاه فيما كلفه به.

وعلى هذا يكون الإرعاء في وصية عبد الله هو الاستماعَ المقترن بالحرص على الطاعة﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ لا كما قالت يهود: ﴿سَمِعْنَا

وَعَصَيْنَا﴾ . وقد علّل ذلك تعليلاً جوهريًا غايةً في الحسن ودقة الإقناع حين قال : «**فإنه خير يأمر به أو شرٌّ ينهى عنه**» .

فالله تعالى ـ وهو الهادي إلى سواء السبيل، الرحيم بعباده، العليم بما يُصلحهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم ـ إذا أمر عباده المؤمنين بأمر كان ذلك منه ـ سبحانه ـ أمرًا بالخير، وإذا نهاهم عن أمر كان ذلك منه نهيًا عن الشر، **وإذا كنا على ذكر من أن خطاب التكليف بـ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أمرًا ونهيًا في القرآن الكريم قارب وروده التسعين مرة : أدركنا عظمة هذا التوجيه من عبد الله رضي الله عنه الذي ينبئُ أول ما ينبئُ عن سعة الأفق ووضاءته في فهم النص القرآني**، وعما لخطاب التكليف في الكتاب العزيز من أبعاد، على المؤمنين أن يقفوا عندها، ولا يتعدوا حدود ما شرعت من أحكام وما أوصت به من آداب وأخلاق ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[١] .

ومن الجدير بالذكر : أن هذا المعنى الاصطلاحي ذو نسب إلى المعنى اللغوي، ولكنه أخصُّ منه، جاء في «اللسان» لابن منظور : « . . وأرعيتُ سمعي فلانًا إذا استمعتُ لما يقول وأصغيت» .

ولا يخفى أن القرآن قد اعتبر عدم استعمال العقول والأسماع والأبصار فيما خلقت لأجله من التفكر والنظر المؤديين إلى الإيمان الذي يقود إلى عبادة الله الواحد سبحانه، بمثابة تعطيل لوظائفها الحقيقية الأولية، **وحكم على الذين يقعون في هذه المهواة بأنهم الغافلون؛ فهم**

---

(١) سورة البقرة، الآية : ٢٢٩ .

كالأنعام بل هم أضلُّ؛ لأنهم استبدلوا الظلمات بالنور. ويا سوء ما يلقاه هؤلاء الغافلون في الآخرة من النكال والعذاب الأليم.

قال الله جلَّ ذكره في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1].

وما من ريب في أن التحقق بالذي أراده ابن مسعود يرتقي بالمؤمن إلى أن يكون من المتقين الذين ينتفعون بهداية القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[2].

وقد أنعم الله عليه كفاء إخلاصه في إحلال آيات الله البينات محلَّها من القلب والعقل والإخلاص في القراءة والإقراء، والتعلُّم والتعليم: أنه ـ بجانب ما رأينا من ثناء النبي ﷺ في ذلك ـ جعله رابع أربعة وأولهم ذكرًا على حالة من التميز في الإقراء والتعليم، يؤخذ القرآن ـ أو يستقرأ القرآن ـ معها منهم بسببها.

جاء في كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من الجامع الصحيح للإمام البخاري بالسند عن مسروق عن عبد الله ابن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**استقرئوا القرآن من أربعة: من عبد الله ابن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبيّ بن كعب، ومعاذ بن جبل**»[3].

---

(1) سورة الأعراف، الآية: 179، وانظر: «تفسير القرآن العظيم» للحافظ ابن كثير (4/ 516).
(2) سورة البقرة، الآية: 2.
(3) انظر: «الجامع الصحيح» مع «الفتح» (7/ 102) 3760.

وروى مسلم بسنده عن مسروق قال: كنا نأتي عبد الله بن عمرو فنتحدث إليه ـ وقال ابن نمير: عنده ـ فذكرنا يومًا عبد الله بن مسعود فقال: لقد ذكرتم رجلاً لا أزال أحبه بعد شيء سمعته من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خذوا القرآن من أربعة: من ابن أم عبد ـ فبدأ به ـ ومعاذ بن جبل، وأبيّ بن كعب، وسالم مولى أبي حذيفة**»(١) وفي رواية: «**استقرئوا**»، وجاء في رواية له ترتب الأسماء وفقًا لترتيب البخاري(٢).

ومن الأهمية بمكان: التنبهُ إلى أن كونَ القراء من الصحابة كُثُراً دعا العلماء لأن يجتهدوا في تبين سبب هذا التخصيص من النبي ﷺ.

قال الإمام النووي: «قال العلماء: سببه أن هؤلاء أكثر ضبطًا لألفاظه وأتقن لأدائه وإن كان غيرهم أفقه في معانيه منهم، أو لأن هؤلاء الأربعة تفرغوا لأخذه منه ﷺ مشافهة، وغيرهم اقتصروا على أخذ بعضهم من بعض، أو لأن هؤلاء تفرغوا لأن يؤخذ منهم، أو لأنه ﷺ أراد الإعلام بما يكون بعد وفاته من تقدم هؤلاء الأربعة وتمكنهم، وأنهم أقدر من غيرهم في ذلك، فليؤخذ عنهم»(٣).

هذا، والمظنون أن قولهم: وإن كان غيرهم أفقه في معانيه ليست على إطلاقها والله أعلم.

* * *

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٦/ ١٧، ١٨) فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما.

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٦/ ١٨)، فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضي الله عنهما.

(٣) المصدر السابق (١٦/ ١٧، ١٨).

أحب أن أسمعه من غيري

مع ابن مسعود

ـ ٩ ـ

قال **الإمام النووي** وهو يترجم لعبد الله بن مسعود في كتابه «تهذيب الأسماء واللغات»: «**وكان من كبار الصحابة وساداتهم وفقهائهم ومقدميهم في القرآن والفقه والفتوى، وأصحاب الخلق، وأصحاب الاتباع في العلم**»[١].

وفي عود على بدء: هذه كلمات يراد لها أن تكون بمثابة تمهيد يسير لمتابعة الحديث عن هذا الإمام الرباني، القدوة، الثَبت أبي عبد الرحمن، فأقول وبالله التوفيق:

القرآن الكريم وصلة النبي ﷺ النيِّرة المباركة إلى مولاه الرحيم الرحمن، وعلاقته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بهذا الكتاب الذي نزل به الروح الأمين على قلبه ليكون من المنذرين، علاقة تعزُّ على الوصف! آفاقها نورٌ من نور الله، وعطاؤها الربانيُّ الدائم في حياته الزاخرة بالتبليغ والتزكية والتعليم في نشرٍ لهدى الله: أكرم به من عطاء، وعظيم نعماء!.

وهو عطاء تعدَّى شخصه الكريم ـ فداه أبي وأمي ـ **إلى أصحابه الذين معه** ـ عليهم الرحمة والرضوان ـ **ومن مقدميهم وساداتهم عبد الله بن مسعود** ـ رضي الله عنه ـ **أولئك الذين عرفوا طريق الجنة بالقرآن وبهديه**

---

(١) «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي (١/ ٢٨٩).

عليه الصلاة والسلام، فلزموا هذه الطريق، ولم يعدلوا بها شيئًا؛ فكان دأبهم حسن التلقي وتجويد القراءة والفهم على سُلَّم العمل الصالح والجهاد.

ولطالما قرأ التالون لكتاب الله تلكم الآيات التي تُعْظم أمر التلاوة بالنسبة للنبي عليه الصلاة والسلام، التلاوة الحقة الأم التي حققت أغراضها في صلته بربه عز وجل وفي البلاغ والإنذار، والتي نجم عنها ما نجم من الخير في ذات نفسه وأبياته صلوات الله وسلامه عليه، وفي جماعة المسلمين ـ ذكورهم وإناثِهم ـ كلٌّ على قدْر ما صحبه من التوفيق قوة إيمانٍ وحسن استجابة لدعوة الحياة.

يقول الله تبارك وتعالى في خاتمة سورة «النمل» مخبرًا رسوله وآمرًا له أن يقول: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾[١].

ونقرأ في سورة الكهف قوله جل وعلا خطابًا للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا﴾[٢].

وفي سورة العنكبوت يقول الله تعالى آمرًا رسوله ﷺ بتلاوة القرآن وإبلاغه للناس: ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ

(١) سورة النمل، الآيتان: ٩١، ٩٢.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٧.

تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[1] .

والتصور - ولو على وجه التقريب - لتلكم العلاقة التي صُنعت على عين الله بين النبي عليه الصلاة والسلام وبين كلام رب العالمين؛ لابد له من استذكار **أنه ﷺ كان يتلقى هذا الكلام عن الله بقلبه، وعقله، ومشاعره بواسطة جبريل عليه السلام، ويعيش معه تبليغًا وتعليمًا وبيانًا، ويتلوه حقّ تلاوته في الصلاة وخارج الصلاة آناء الليل وأطراف النهار**، وكل أولئك مصحوب بما يجد عليه الصلاة والسلام من الشدة في تنزل الوحي، واللذة التي لا تدانيها لذة فيما هو فيه من اصطحاب هذا الكلام الذي يُلَقّاه من لدن حكيم عليم، ناهيك عما يتجدد له - بذلك من رفعة القدر، والترقي في مدارج القرب من مولاه العزيز الحميد.

وإذا كان الأمر كذلك: فالنبي ﷺ حقيق بأن تكون محبته الفريدة للقرآن: محبة هي الغاية عظمةً، وجلالاً، وسموَّ اتصال منوَّرٍ بالملأ الأعلى، وتظل الإحاطة بها علمًا عند الله الذي أودع في قلب عبده محمد ﷺ ما أودع، وأنزل عليه الكتاب ولم يجعل له عِوجا.

وتبلغ هذه المحبة مبلغ أن النبي عليه الصلاة والسلام - على ما كان عليه ظاهرًا وباطنًا من تلك الصلة العُلوية المكينة التي تستعصي على الوصف بالقرآن الكريم - كان يحب أن يسمعه من غيره، ودلالة ذلك لا تخفى على ذي بصيرة!!.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

أخرج الإمام البخاري في «فضائل القرآن» باب البكاء عند قراءة القرآن بسنده عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي النبي ﷺ: «**اقرأ عليَّ**، قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: **إني أحبُّ أن أسمعه من غيري**، قال: فقرأت النساء حتى إذا بلغت: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾[١] قال لي: **كُفَّ** ـ أو **أمسك** ـ فرأيت عينيه تذرفان»[٢].

وفي رواية له قال: «**إني أشتهي أن أسمعه من غيري**»، وفي غيرها: «فإذا عيناه تذرفان» وأخرجه مسلم والترمذي وغيرهما.

والذي عند مسلم: «.. فرفعت رأسي فرأيت دموعه تسيل»[٣]، ورواية الترمذي: «.. فرأيت عيني النبي ﷺ تهملان»[٤].

وقد استوقفت العلماء هذه الواقعة، فترجم البخاري لروايتين فيها بقوله: (باب البكاء عند قراءة القرآن) كما رأينا[٥]، وترجم الإمام النووي للروايات عند مسلم بقوله: (باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظه للاستماع والبكاء عند القراءة والتدبر)[٦].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤١.
(٢) «الجامع الصحيح» مع «الفتح» (٩/ ٩٨) ٥٠٥٥، ٥٠٥٦، وانظر ٥٠٤٩، ٥٠٥٠.
(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٦/ ٨٦، ٨٧)، «صحيح مسلم» (١/ ٥٥١) ٨٠٠ في المسافرين، باب استماع القرآن.
(٤) «جامع الترمذي» السنن ٣٠٢٥ في التفسير (٥/ ٢٢٢).
(٥) «الجامع الصحيح مع الفتح» (٩/ ٩٨).
(٦) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٦/ ٨٦).

ثم إن هذا الذي جرى بين النبي ﷺ وبين ابن أم عبد، يفيض هدايةً ونورًا من وجوه متعددة تنطق بها الواقعة.

وقد أورد الحافظ في «الفتح» قول الإمام النووي: «**البكاء عند قراءة القرآن صفة العارفين، وشعار الصالحين**؛ قال الله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾[١]، ﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾[٢]، والأحاديث فيه كثيرة»[٣].

ويبدو أن أقربَ تعليل لبكائه عليه الصلاة والسلام وهو يسمع ابن مسعود يقرأ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾، وقوله له: **حسبك**: إشفاقُه على أمته ـ وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ـ من شهادته عليها، مخافة ألا يكون العمل مستقيمًا عندهم، فيقعوا في مهواة غضب الله، ويستحقوا العقوبة!!.

قال ابن بطال: (إنما بكى ﷺ عند تلاوة هذه الآية؛ لأنه مثَّل لنفسه أهوال يوم القيامة، وشدة الحال الداعية إلى شهادته لأمته بالتصديق، وسؤاله الشفاعة لأهل الموقف، وهو أمر يحق له طول البكاء)[٤].

وعقّب الحافظ على ذلك بقوله: (والذي يظهر أنه بكى رحمةً لأمته؛ لأنه علم أنه لابد أن يشهد عليهم بعملهم، وعملُهم قد لا يكون مستقيمًا، فقد يفضي إلى تعذيبهم، والله أعلم)[٥].

---

(١) سورة الإسراء، من الآية: ١٠٩.
(٢) سورة مريم، من الآية: ٥٨.
(٣) «فتح الباري» (٩/ ٩٨).
(٤) «فتح الباري» (٩/ ٩٩).
(٥) المصدر نفسه (٩/ ٩٩).

وجزى الله الإمام النووي خير جزاء على ما قدَّم من فوائد استنبطها من الحديث الذي حوله ندندن، والذي أشرق بجملة من الحقائق لعل في مقدمتها بعد بكاء الرسول عليه الصلاة والسلام: إكرام ابن مسعود بأن كان هو المأمور بالقراءة، وقرأ ما قرأ من سورة النساء، وذلكم قوله وهو يشرح رواية مسلم للحديث: (وفي حديث ابن مسعود هذا فوائد؛ منها استحباب استماع القراءة والإصغاء لها والبكاء عندها وتدبرها، واستحباب طلب القراءة من غيره ليستمع له، وهو أبلغ في التفهم والتدبر في قراءته بنفسه، وفيه تواضع أهل العلم والفضل ولو مع أتباعهم)(١).

وجميل ما ذهب إليه صاحب «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» من التذكير بهول القيامة، وأن المشهود عليهم أولى بالخوف والبكاء!! قال بعد أن أورد الحديث: (فإذا كان هذا الشاهد ـ يعني النبي عليه الصلاة والسلام ـ تفيض عيناه لهول هذه المقالة، وعِظَم تلك الحالة! فماذا لعمر الله يصنع المشهود عليه، وكأنه بالقيامة وقد أناخت لديه)(٢).

* * *

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٦/ ٨٨).
(٢) «روح المعاني» للآلوسي (٥/ ٣٤).

أحب أن أسمعه من غيري

مع ابن مسعود

- ١٠ -

ماكان لنا أن نطوي الحديث عما كان من إكرام النبي ﷺ لعبد الله بن مسعود حين قال له: **اقرأ عليَّ**، قال: أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ قال: **إني أحب** - أو **أشتهي** - **أن أسمعه من غيري**. . . الحديث، دون الوقوف على رواية لابن أبي حاتم وأخرى للإمام الطبري فيهما شيء من التفصيل يلقي مزيدًا من الضوء على معاني الواقعة ومراميها.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو بكر بن أبي الدنيا، قال: حدثنا الصلت ابن مسعود الجَحْدَريُّ، قال: حدثنا فضيل بن سليمان، قال: حدثنا يونس ابن محمد بن فضالة الأنصاري عن أبيه قال: وكان أبي ممن صحب النبي ﷺ: «إن رسول الله ﷺ أتاهم في بني ظَفَر، فجلس على الصخرة التي في بني ظفر اليوم، ومعه ابن مسعود ومعاذ بن جبل، وناس من أصحابه، فأمر النبي ﷺ قارئًا، فقرأ، فأتى على هذه الآية: ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴾[1] فبكى رسول الله ﷺ حتى اضطرب لحياه وجَنباه، فقال: «**يا رب، هذا شهدت على من أنا بين ظهريه، فكيف بمن لم أره؟**»[2].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤١.

(٢) انظر: «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٢/ ٢٦٩)، و«فتح الباري» (٩/ ٩٩).

وروى شيخ المفسرين بسنده عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «**شهيدًا عَلَيْهم ما دمتُ فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد**»(١).

«لَحياهُ» مثنى لَحى وهو منبت اللحية. و«جنباه» مثنى جَنْب، والجَنْبُ شِقُّ الإنسان وغيره.

وقد أوردت من قبل ما عقّب به الحافظ ابن حجر على كلام ابن بطال تعليلاً لبكاء النبي ﷺ إذ قال في «الفتح»: (**والذي يظهر أنه ﷺ بكى رحمةً لأمته؛ لأنه علم أنه لابد أن يشهد عليهم بعملهم، وعملُهم قد لا يكون مستقيمًا، فقد يفضي إلى تعذيبهم، والله أعلم**)(٢).

ولعل من المفيد أن نعرِّج في ضوء ذلك على ما جنح إليه صاحب «التحرير والتنوير» من توسيع الدائرة في فهم النص، وتعليل ما بكى النبي ﷺ بسببه عند سماع الآية؛ فبعد أن أشار في تفسيره إلى أن القرآن أوجز في التعبير عن تلك الحال التي دلَّت عليها الآية في لفظ «كيف».

قال رحمه الله: (لا فِعْلَ أجمعُ دلالةً على مجموع الشعور عند هذه الحالة من بكاء رسول الله ﷺ؛ فإنه دلالةُ على شعورٍ مجتمعٍ فيه دلائل عظيمة: وهي المسَرَّة بتشريف الله إياه في ذلك المشهد العظيم، وتصديق

---

(١) انظر: «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» (٨/ ٣٧٠)، «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٢٦٩).

(٢) «فتح الباري» (٩/ ٩٩).

المؤمنين إياه في التبليغ، ورؤية الخيرات التي أُنجزت لهم بواسطته، والأسف على ما لحق بقية أمته من العذاب على تكذيبه، ومشاهدة ندمهم على معصيته، والبكاءُ ترجمانُ رحمةٍ، ومسرَّةٍ، وأسف، وبهجةٍ)[١].

ومهما يكن من أمر: فمن الوضوح بمكان أن هذه الواقعة المشرقة في حياة الرجل الربانيِّ أبي عبد الرحمن ـ رضي الله عنه ـ تدل ـ أول ما تدل ـ على شدة حب النبي ﷺ لكلام مولاه رب العالمين، وأن له عليه أَمْرَةً مطاعة، قِوامها الأسنى صفاء القلب ونقاؤه، في اشتياق دائم إلى تنزلات الرحمة بتنزيله، لما أنه الكتاب الذي نزل به الروح الأمين على قلبه ليكون من المنذرين، وأكرم بما يحصل له على هدي نور النبوة وأهلية التكوين ـ فهو من ذؤابة بني هاشم في قريش ـ من تذوق سامٍ لحلاوته وطلاوته، وعذوبة ألفاظه، وإعجاز أسلوبه، وجميل معانيه، وما لها من أبعاد خيِّرة تأخذ حظها من التأثير في القلب والعقل والمشاعر.

ويتعاظم هذا الحب في القلب الكبير حتى يبلغ مبلغ أن يتشوَّف صلوات الله وسلامه عليه بشوقٍ لأن يضيف إلى تلك المنارات الساطعة سماعَ هذا الكلام العلوي، فبات يحب أن يسمعه من غيره، مع كونه يوحى به إليه، وهو على حال يصحبه معها تلقيًا وبلاغًا، وبيانًا، وتعليمًا، وتلاوة خاشعة آناء الليل وأطراف النهار، وتدبُّرًا نبويًا مصحوبًا بمحبة المولى جل شأنه في حذر للآخرة ورجاء لرحمته سبحانه، لا يدع زيادة لمستزيد.

غير أنه ليس عجبًا من العجب أن تسلمنا الواقعة التي نسعد

---

(١) انظر: «التحرير والتنوير» لمحمد الطاهر بن عاشور (٥/ ٥٨).

باصطحابها ـ واقعة قوله عليه الصلاة والسلام لعبد الله : «إني أحب ـ أو أشتهي ـ أن أسمعه من غيري» بعد أن طلب منه ذلك ، وعجِبَ عبد الله لهذا الطلب ـ تسلمنا إلى إكرام الله لأبي عبدالرحمن أن وقع عليه اختيار النبي ﷺ لهذا الأمر العظيم الذي يحبه ويشتهيه ، وتضع أيدينا على ما يزدان به خلق صحابينا الرباني من الأدب الرفيع مع النبي ﷺ عند الخطاب ، تساؤلاً عن أمر ، أو طلبًا لمعرفة أمر ، في ظل حرية الرأي المنضبطة بوضع الأمور مواضعها ، والتي كانت لبنة مشرقة من لبنات المنهج النبوي في التربية والبناء ، ناهيك عما كان منه ـ رضي الله عنه ـ من حسن التأتي في سرعة الاستجابة لأمر النبي ﷺ بعد أن أصاب منه سؤله وطلبه .

وحسبك لتبيُّن ذلك كله أن تقرأ بعناية قوله ـ وقد أمره النبي ﷺ بالقراءة ـ : «يا رسول الله ، أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال عليه الصلاة والسلام : إني أحب ـ أو أشتهي ـ أن أسمعه من غيري» فشرع يقرأ .

وكم كانت بشرى عظيمة معبِّرة ، تلك التي آذن بها تأثر النبي ﷺ بقراءته إشفاقًا على أمته عند سماعه ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ الأمر الذي جاء ليكون توكيدًا عمليًا لقوله عليه الصلاة والسلام : «من أحب أن يقرأ القرآن غضًّا طريًا فليقرأ بقراءة ابن أم عبد» .

هذا : وحريٌّ بنا ـ والواجب معرفة الفضل لأهله ـ التنبُّهُ إلى أن ما حصل لابن مسعود على ساحة البر القرآني لابد أن نكون معه على ذكر من فضائل كثير من قراء الصحابة على هذه الساحة ، ومن مقدَّميهم أُبيُّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ الذي كان مما أكرمه الله به فضيلة لم يعلم أنه شاركه فيها أحد ؛

ذلكم: ما روى مسلم وغيره ـ واللفظ لمسلم ـ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك**: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، قال: وسماني لك؟ قال: **نعم**، فبكى» وفي رواية: «فجعل أُبي يبكي»[١].

قال الإمام النووي: (وفي الحديث فوائد كثيرة:

منها: استحباب قراءة القرآن على الحذاق فيه، وأهل العلم به والفضل، وإن كان القارئ أفضلَ من المقروء عليه.

ومنها: المنقبة الشريفة لأُبي بقراءة النبي ﷺ عليه، ولا يُعلم أحد من الناس شاركه في هذا.

ومنها: منقبة أخرى له بذكر الله تعالى له، ونصِّه عليه في هذه المنزلة الرفيعة.

ومنها: البكاء للسرور والفرح بما يبشّر الإنسان به ويعطاه من معالي الأمور . . .

إلى أن قال: واختلفوا في الحكمة في قراءته ﷺ على أُبي؟ والمختار أن سببها أن تستنَّ الأمة بذلك في القراءة على أهل الإتقانِ والفضل، ويتعلموا آداب القراءة، ولا يأنفَ أحد من ذلك.

وقيل: للتنبيه على جلالة أُبي وأهليته لأخذ القرآن عنه، وكان بَعْدَه ﷺ

---

(١) انظر: «صحيح مسلم بشرح النووي» (٦/ ٨٥) باب: استحباب قراءة القرآن على أهل الفضل والحذاق فيه.

رأسًا وإمامًا في إقراء القرآن، وهو أجلُّ ناشريه، أو من أجلهم، ويتضمن معجزة لرسول الله ﷺ.

وأما تخصيص هذه السورة ـ يعني سورة ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ـ فلأنها وجيزة جامعة لقواعد كثيرة من أصول الدين وفروعه، ومهماته والإخلاص وتطهير القلوب، والله أعلم)[١].

وصلى الله وسلم وبارك على معلم الناس الخير، ورضي الله عن ابن مسعود، وأُبي بن كعب، وسائر الصحابة أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



---

(١) المصدر السابق (٦/ ٨٦).

وما أنا بخيرهم
مع ابن مسعود
- ١١ -

ما وطَّن الربانيون أنفسهم عليه من العلم، والعمل، والدرس، ومن التربية بالكلمة النافعة، والقدوة الصالحة: يجعلهم - إذا توافرت للواحد منهم حرية الكلمة، وعمل ما من شأنه الصلاح والإصلاح - أكثرَ عطاءً، وأوفرَ حظًا في ساحة استكمال الفضائل وتحقيق الغايات الكبار، ما كان من ذلك في ذوات أنفسهم على صعيد الترقي في مدارج القرب إلى الله، وما كان في الجماعة على صعيد العمل الجاد في إيصال النفع للآخرين.

وما سعدنا بالوقوف عليه من مآثر الرباني عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - يسلمنا إلى ما يُشعر بأن أهل القرب هؤلاء تنمو معارفهم، وينمو معها تواضعهم وأدبهم مع الله. وما يحققونه من صنائع الخير والإحسان يكون باعثًا جديدًا على متابعة رحلة الربانيَّة المباركة ابتغاء مرضاة الله علمًا، وعملًا، وتربيةً لمن ولاهم الله أمرهم على ما فيه خير العاجلة والآجلة.

جاء في باب القرَّاء من أصحاب النبي ﷺ من كتاب فضائل القرآن في «الجامع الصحيح» للإمام البخاري قوله رحمه الله: حدثنا عمر بن حفص، قال: حدثنا أبي قال: حدثنا الأعمش قال: حدثنا شقيق بن سلمة قال: «**خطبنا عبد الله بن مسعود، فقال: والله لقد أخذت من فيّ رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبي ﷺ أني أعلمهم بكتاب**

الله، وما أنا بخيرهم قال شقيق: فجلست في الحِلَق أسمع ما يقولون، فما سمعت رادًّا يقول غير ذلك»[(١)] .

ومن الخير التنبه هنا إلى إنصاف عبد الله وتواضعه اللذين انضمّا إلى ما يراه حقيقة في شأن العلم بكتاب الله، ولم يردَّ عليه أحد بالمخالفة؛ إذ لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووه.

وضرورة هذا التنبه تأتي من حيث إنه ـ رضي الله عنه ـ شقَّ عليه ـ وهو من هو بعلمه بالقرآن تلاوةً، وإقراءً، وفهمًا ـ أن يقدَّم عليه في جمع القرآن على عهد عثمان ـ رضي الله عنه ـ زيد بن ثابت الأنصاري، وهو متقدم عليه، فهو أكبر سنًا، وزيد يصلح أن يكون ولده، ولكن عندما تبينت له الأمور، وعرف الأسباب الجوهرية لما حصل رجع بإنصاف، وتابع عثمان ـ رضي الله عنهما ـ، وحصل الإجماع على ما انتهجه الخليفة الثالث حين جهز المصاحف إلى الأمصار، وكان في ذلك الخير كلُّ الخير للمسلمين! .

قال الإمام الذهبي في «السير» تعليقًا على بعض الروايات في هذا الباب: (قلت: إنما شقَّ على ابن مسعود، لكون عثمان ما قدَّمه على كتابة المصحف، وقدَّم في ذلك من يصلح أن يكون ولده، وإنما عدل عنه عثمان لغيبته عنه بالكوفة؛ ولأن زيدًا كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ؛ فهو إمام في الرسم، وابن مسعود فإمام في الأداء. ثم إن زيدًا هو الذي ندبه الصديق لكتابة المصحف وجمع القرآن. . . إلى أن يقول: وقد ورد أن ابن مسعود

---

(١) انظر: «الجامع الصحيح مع الفتح» (٩/ ٤٧) ٥٠٠٠، «صفة الصفوة» (١/ ١٥٦)، «سير أعلام النبلاء» (١/ ٤٧٣ ـ ٤٧٥) مع الحواشي.

رضيَ، وتابعَ عثمانَ ولله الحمد.

واختتم الذهبي تعليقه بقوله: وأما زيد، فكان أحدث القوم بالعرضة الأخيرة التي عرضها النبي ﷺ ـ عام توفي ـ على جبريل)[١].

وما أكثر ما جنت الأمة من الخير الذي كان ثمرة من ثمرات إيمان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وإنصافهم، وحرصهم على أداء الأمانة في حمل رسالة الإسلام إلى الناس.

قال أبو موسى الأشعريُّ ـ رضي الله عنه ـ: «مجلس كنت أجالسه ابن مسعود أوثق في نفسي من عمل سنة». أخرجه الفسوي في «البدء والتاريخ»[٢]، وأورده الذهبي في «السير»[٣].

وهذه كلمات جوامع أجدر بها أن يعضّ عليها طلبة العلم والعلماء وطلاب المعرفة عمومًا بالنواجذ؛ لما أنها تضيء الطريق لإحكام البناء في ميدان العلم والعمل، وتَلمحُ في مراميها ضياء إرث النبوة.

روى أبو نعيم في «الحلية» عن عون بن عبد الله، قال: قال لي عبد الله: «**ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن العلم بالخشية**»[٤]، ويقول رضي الله عنه: «**إنما هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره**»[٥].

---

(١) انظر: «السير» (١/ ٤٨٨).
(٢) «البدء والتاريخ» (٢/ ٥٤٥).
(٣) «السير» (١/ ٤٩٣).
(٤) «الحلية» (١/ ١٣١).
(٥) المصدر السابق: (١/ ١٣١).

ولا يغرب عن البال أن العناية بالسنة ثم بالعلوم التي تخدِمُ الكتاب والسنة هي ـ بلا ريب ـ من العناية بالقرآن، وإن كان لابد من سلَّم للأولويات في الأخذ والتلقي، والمهم التنقيب في الزوايا عن النية، وما إذا كان القصد خدمة الكتاب والسنة، والوصول إلى سلامة الأخذ بهما ـ طاعة لله تعالى ولرسوله ﷺ، أم غير ذلك.

وصلى الله وسلم على إمام المربين النصحاء، وسيد المعلمين الأمناء بما وضع لعلاقة العمل بالنية قاعدته النورانية، التي لا يخبو نورها على الزمان بقوله فيما روى عمر ـ رضي الله عنه ـ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**» رواه البخاري ومسلم وغيرهما[1].

وكم كان ربانينا أبو عبد الرحمن على متن الصواب في استدامة الدعوة إلى أن يأخذ القرآن موقعه الملائم في حياة المسلمين علمًا بتلاوته وأحكامه، وإخلاص العمل بهداه، وذلك بأسلوب حكيم مشوِّق لا يحجز الكلمة فيه عن القلب أو العقل حاجز، إلا أن تكون القلوب غُلفًا، والعقول مضروبًا عليها بالأسداد.

ذلكم قوله ـ كما سبق ـ: «**إنما هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن،**

---

(١) «الجامع الصحيح» مع «الفتح» (١/١٣٥)، كتاب الإيمان ٥٤، «صحيح مسلم» ١٩٠٧.

ولا تشغلوها بغيره»[١] .

وروى صاحب «الحلية» بسنده عن أبي الأحوص، قال: قال ابن مسعود: «**إن هذا القرآن مأدبة الله، فمن استطاع أن يتعلَّم منه شيئًا فليفعل، فإن أصفر البيوت من الخير، البيت الذي ليس فيه من كتاب الله شيء، وإن البيت الذي ليس فيه من كتاب الله شيء كخراب البيت الذي لا عامر له، وإن الشيطان يخرج من البيت الذي تُسمع فيه سورة البقرة»**[٢] .

أصفر البيوت: من صفِر الشيء يصفر إذا خلا فهو صِفْرٌ ومنه قولهم: هو صِفر اليدين. وبيتٌ صِفْرٌ: إذا خلا من المتاع.

وهذا درس من رباني غيور طويل التجربة يحمل شديد التحذير من الخطيئة أن تكون سببًا في نسيان العلم، يقول ـ رضي الله عنه ـ: «**إني لأحسب الرجل ينسى العلم كان تعلَّمَه، للخطيئة يعملها»**[٣] .

وفي كلام عبد الله على ضرورة العلم النافع والعمل به، أوضح دلالة على ما كان يحمل بين جنبيه من غيرة صادقة على الأمة، ورغبة في أن تسلك الطريق المأمونة لعز الدنيا، والنجاة يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله.

والملاحظ حرصه على تعريف أهل العلم، بأن عمل العالم بعلمه وخشيتَه لله متلازمان، من هنا كان يوصي ويشدد في الوصية بالخشية، كما

---

(١) «الحلية» (١/ ١٣١).
(٢) المصدر السابق (١/ ١٣٠، ١٣١).
(٣) المصدر نفسه: (١/ ١٣٠ ـ ١٣١).

يوصي ويشدد في الوصية بالعمل؛ وذلك لأن العمل الحقيقي بالعلم إنما يكون بخشية الله، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، يقول ـ أجزل الله مثوبته ـ: «**تعلموا العلم، فإذا علمتم فاعملوا**».

وعن عدي بن عدي قال: قال ابن مسعود: «**ويل لمن لا يعلم، ولو شاء الله لعلّمه، وويل لمن يعلم ثم لا يعمل، سبع مرات**»(١).

وعن عمران بن أبي الجعد عن عبد الله قال: «**إن الناس قد أحسنوا القول، فمن وافق قولُه فعلَه، فذاك الذي أصاب حظه، ومن لم يوافق قوله فعله، فذاك الذي يوبخ نفسه**»(٢).

ويزداد تقريرك لهذا المنهج فيما يجب أن يكون عليه المسلم وهو يتزود من العلم النافع لينفع به نفسه، ويعمل على نفع الآخرين، ما كان عليه عبد الله ـ وهو يذكِّر بموقع هذا الأمر العظيم ـ من رسوخ في العلم وسعة في فقه الكتاب والسنة ـ.

قال مسروق ـ رحمه الله ـ: «جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذِ يروِى المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم فوجدت عبد الله من ذلك الإخاذ»(٣).

الإخاذ: هو مجتمع الماء، وجمعه أُخُذ ككتاب وكتب.

---

(١) المصدر السابق (١/ ١٣١).

(٢) «صفة الصفوة» (١/ ١٦٣).

(٣) المصدر نفسه (١/ ١٦٣)، «صفة الصفوة» (١/ ١٥٨، ١٥٩)، وانظر: «السير» (١/ ٤٩٣).

مع ابن أم عبد

- ١٢ -

الكلمة الصائبة الحكيمة في الخطاب التربوي لفطرة الإنسان التي فطره الله عليها قوة فاعلة تأخذ طريقها - بعون الله وفضله - إلى القلوب والعقول.

خصوصًا عندما تكون هذه الكلمة صادرة عن واحد من أولئك الأعلام الربانيين الذين يتقربُون إلى الله بالعمل على إنارة العقول بالعلم النافع، والفكر السليم، وتصفية القلوب على الوجه الذي يسمو بها إلى حسن الصلة بالله عز وجل، والفهم المستنير عن الله ورسوله عليه الصلاة والسلام؛ فتراهم وهمُّهم صلاح الأجيال على نور من الله الهادي إلى سواء السبيل.

وطريقُهم إلى أن يُكتَب لكلماتهم القبولُ: الإخلاص في القول والعمل، وأن يكونوا القدوة الصالحة التي تعطي الكلمة مضاءَها وقوة نفاذها، فلا يخالفون من يتوجهون إليهم بالتربية والتعليم إلى ما ينهونهم عنه، ولا يُفتقدون حين وجوب العمل بما به يأمرون، يجمعون ذلك إلى الأمانة العلمية في التبليغ، والحيطة البالغة في الفتوى والبيان.

وهذا ما نجده عند الإمام الحبر، فقيه الأمة، أحد النجباء العاملين، الذي روى للأمة العلم الكثير، الربانيِّ أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وأرضاه!

فلو رُحتَ تقوم بشيء من الموازنة بين نهجه المبارك علمًا، وتعليمًا،

وعملاً، ودرسًا، وبين ما يدعو إليه أمرًا ونهيًا، وتوصية، ونصحًا للمسلمين لراعك أن تجد العمل بالعلم، وعدم المخالفة عما يأمر به، أو ينهى عنه، وإحلال القدوة مكانها من بناء المسلم والمسلمة، وأن تجد هذه تكاد تكون أوفر حظًا في الحركة الناطقة بما يقوله ويرشد إليه.

قال أبو سلمة الكوفيُّ، تميم بن حَذْلَم ـ وهو من أصحاب عبد الله ـ رضي الله عنه ـ، وممن قرؤوا عليه، وأدرك أبا بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ: «**ما رأيت أحدًا أزهد في الدنيا، وأرغب في الآخرة، ولا أحبَّ إليَّ أن أكون في مسلاخه منك يا عبد الله** بن **مسعود**»[١].

في مسلاخه: في هديه وطريقته، جاء في «النهاية» لابن الأثير في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «**ما رأيت امرأة أحب إليَّ أن أكون في مسلاخها من سَوْدة**» كأنها تمنت أن تكون في مثل هديها وطريقتها. ومسلاخ الحية: جلدها. والسِّلخ ـ بالكسر ـ الجلد)[٢].

وحسبك من جودة ما تمناه تميم هذا وأحبه ـ يرحمه الله ـ وهو أن يكون في مثل هدي ابن مسعود، وطريقة قول الرسول ﷺ: «**قد رضيت لكم ما رضي لكم ابن أم عبد**»، وفي رواية أخرى: «**رضيت لأمتي ما رضي لها ابن أم عبد**» رواه الحاكم مطوَّلاً وصححه[٣]، ووافقه الذهبي كما أورده الذهبي

---

(١) انظر: «صفة الصفوة» (١/١٥٨)، وانظر للكلام على تميم: «طبقات ابن سعد» (٦/٢٠٦)، «تهذيب الكمال للمزي» (٤/٣٢٨)، «الجرح والتعديل لابن أبي حاتم» (١/١/٤٤٢)، «تهذيب التهذيب» (١/٥١٢).

(٢) «النهاية» مادة (سلخ).

(٣) انظر: «المستدرك» (٣/٣١٩).

في «السير»[١].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «**اقتدوا باللَّذَين من بعدي أبي بكر وعمر، واهتدوا بهدي عمار، وتمسكوا بعهد ابن أم عبد**» أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي[٢].

وهذا ما جعله كبيرًا في نفوس إخوانه، وموضع التقدير وحسن الظن عندهم.

وهذه إحدى شهادات عمر، جاء في «سير أعلام النبلاء»: (عبيد الله بن موسى، عن مسعر، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، قال: سافر عبد الله سفرًا يذكرون أن العطش قتله وأصحابه، فذُكر ذلك لعمر، فقال: «**لهو أن يفجِّر الله له عينًا يسقيه منها وأصحابه أظَنُّ عندي من أن يقتله عطشًا**»)[٣]، وأخرجه صاحب «المعرفة والتاريخ»[٤].

فإذا أضفتَ إلى ذلك ما لكلامه من ثِقَل في ميزان الحق، ووضاءة على طريق ما يتحقق به الوجود الذاتي للأمة بالإسلام، وتربية أجيالها على حقائق هذا الدين تربية نقية عن الغبش الجاهلي الطارىء، أو الموروث، متكاملة لا نقص ولا تخلخل: ألفيت ما هو خير على خير، ونورٌ على نور.

---

(١) انظر: «السير» (١/ ٤٧٩).

(٢) «المسند» (٥/ ٣٨٥ ـ ٤٠٢)، «الجامع الصحيح» للترمذي ٣٨١٠ في المناقب، «ابن ماجه» في المقدمة ٩٧، «المستدرك» (٣/ ٧٥)، «المعرفة والتاريخ» (١/ ٤٨٠)، وانظر: «السير» (١/ ٤٧٨).

(٣) انظر: «السير» (١/ ٤٩١).

(٤) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٤٣).

ولشدّ ما كان لهذا النهج المبارك الذي كان يسلكه أبو عبد الرحمن في التعليم والتزكية من أثر بالغ في نفوس من يعلمهم ويربيهم، أثرٍ يضعهم على جادّة الحق راضين مطمئنين، لما أنه كان يربيهم بالعمل كما يربيهم بالنصح والتوجيه.

والتابعي أبو سلمة تميم بن حذلم واحد من نماذج وفيرة لهذه الحقيقة.

وحدّث الأعمش عن إبراهيم عن علقمة، قال: (كنا عند عبد الله، فجاء خباب بن الأرت حتى قام علينا في يده خاتم من ذهب، فقال: أكلُّ هؤلاء يقرؤون كماتقرأ؟ فقال عبد الله: إن شئتَ أمرتُ بعضهم يقرأ، قال: أجل، فقال: اقرأ يا علقمة! فقال فلان: أتأمره أن يقرأ وليس بأقرئنا؟ قال عبد الله: إن شئتَ حدثتك بما قال رسول الله ﷺ في قومه وقومك. قال علقمة: فقرأت خمسين آية من سورة مريم، فقال عبد الله: ما قرأ إلا كما أقرأ. ثم قال عبد الله: ألم يَأْنِ لهذا الخاتم أن يُطرح؟ فنزعه ورمى به، وقال: والله لا تراه عليَّ أبدًا)[١].

ولما كان الربانيون يتقربون إلى الله بأن يظلوا على العهد علماء عاملين معلمين، وبناة مصلحين مربين، أمناء على الكلمة يطلقونها في الناس، أوفياء لمسؤوليتهم عن الإسهام الدائم في أن تظل الجماعة المسلمة ذكورها وإناثها على الطريق الصاعدة في حركة الحياة، والبناء الحضاري

---

(١) «السير» (١/ ٤٧٠، ٤٧١).

المتوازن، تدور مع الضوابط النورانية في الكتاب والسنة حيث دارت؛ ابتغاءً لمرضاة الله تعالى . . .

لما كان الأمر كذلك، لم يكن بدعًا أن نرى صحابينا الجليل أبا عبد الرحمن لا ينحسر عن حياة الجماعة، بل يخالط المجتمع باستنارة قيادية حكيمة ذات حظ وافر من إرث النبوة، ويعمل جاهدًا على أن يكون من أئمة المتقين في بناء شخصية المسلم بناءً يزينه التكامل والإحكام، كيما يكون هذا المسلم ـ ذكرًا كان أو أنثى ـ صادق الانتماء إلى الرسالة الخاتمة، يوالي من والاها، ويعادي من عاداها، لبنة قوية بقوة الإيمان والعمل الصالح تضمن ـ بعون الله ـ سلامة البنية للمجتمع الإيماني القدوة، لا أن يكون إنسانًا هملاً؛ لا لدينه ولا لدنياه، يعوق حركة العاملين، ويضيِّق الطرق على الصالحين المصلحين! .

حدث المسيِّب بن رافع قال: قال ابن مسعود: «**إني لأمقت الرجل أن أراه فارغًا، ليس في شيء من عمل الدنيا، ولا في عمل الآخرة**» رواه أحمد، وأورده ابن الجوزي في «صفة الصفوة»[1] .

وجاء اللفظ في «الحلية» من رواية يحيى بن وثاب: «**إني لأكره أن أرى الرجل فارغًا لا في عمل الدنيا، ولا في عمل الآخرة**»[2] .

ولئن كان يسوء أبا عبد الرحمن هذا الفراغ المعطِّل الذي يحول دون المسلم ودون أن يؤدي رسالته في الحياة ذاكرًا يوم المعاد؛ فلا هو للدين،

---

(١) انظر: «صفة الصفوة» (١/ ١٦٣)، «الحلية» (١/ ١٣٠).
(٢) المصدر السابق (١/ ١٣٠، ١٣١).

ولا هو للدنيا: **فإن ابن أم عبد ـ وهو العالم العامل المربي المدرك لأبعاد مسؤوليته ـ ليسؤوه كذلك أن ينسى العبدُ آخرته، فيكون همُّه أن يمضي نهاره سعيًا في حوائج دنياه، حتى إذا أمسى المساء وجنَّ عليه الليل كان من كلاله وتعبه كالجيفة؛ ليس به حَراك، فهو لا يذكر الله، ولا يتلو كتابه، ولا يجفو مضجعه ـ ولو بعض الشيء ـ رغبةً في عمل الآخرة كما يفعل الركع السجود.**

وببلاغته ـ رضي الله عنه ـ التي يصحبها الإخلاص، وأسلوبه الذي ينشرح له الصدر، ويرضى عنه العقل السليم، حذَّر شباب الأمة هذا المزلق الخطير!!.

أخرج أبو نعيم من رواية الأعمش عن خيثمة قال: قال عبد الله: «**لا ألفينَّ أحدكم جيفة ليلٍ قُطْربَ نهار**»[1]، وأنت واجد أن معنى كلمة قطرب يُكسب ما أراده عبد الله أهمية خاصة، ويكشف عن مدى ما يتحلَّى به من الحكمة والحزم وحسن استخدام ما يعرفه الناس من واقعهم؛ للوصول إلى ذلك المراد وهو التحذير من تلك الصفة الهابطة!.

جاء في «لسان العرب» للعلامة ابن منظور: (**القطرُب**: دويبة كانت في الجاهلية، يزعمون أن ليس لها قرار ألبتة، وقيل: لا تستريح نهارها سعيًا، وفي حديث ابن مسعود: «لا أعرفنَّ أحدكم جيفة ليل قطرب نهار». قال أبو عبيد: يقال: إن القطرب لا تستريح نهارها سعيًا؛ فشبَّه عبد الله الرجل يسعى نهاره في حوائج دنياه؛ فإذا أمسى أمسى كالاً تعِبًا، فينام ليلته حتى

---

(١) انظر: «الحلية» (١/ ١٣٠، ١٣١)، «صفة الصفوة» (١/ ١٦٣).

يصبح كالجيفة لا يتحرك، فهذا جيفة ليل قطربُ نهار)[١]. وسبق ابن الأثير إلى بيان ذلك باختصار[٢].

ألا ما أعظم أن يصحب النُّصحَ الرشيد، والتوجيه السديدَ بيان كبيان أبي عبد الرحمن يسهم أيّما إسهام في تحقيق المبتغى من وراء الموعظة والقول البليغ في النفوس.

❊ ❊ ❊

(١) «اللسان» مادة (قطرب).
(٢) «النهاية» مادة (قطرب).

مع ابن أم عبد

- ١٣ -

آية الصدق وعلو الهمة الإيمانية في سلوك الرجل الرباني : ما تنطق به الوقائع ويشهده أهل البصيرة من صادق النسب بين هذا السلوك وبين الهدي المحمدي، الذي ترك النبي ﷺ الأمة عليه بعد أن أدى الأمانة في تحقيق ما أخبر الله تعالى عنه بقوله سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ﴾[1] .

ولقد احتضن تاريخنا من مآثر صحابينا الرباني ابن أم عبد - رضي الله عنه - ما يمكِّن من القول بأن سلوكه - أعلى الله مقامه في الآخرين - ما كان ليشرق هذا الإشراق المزدان بالعلم والعمل، وهداية الناس إلى كل ما هو من البر بسبيل، وفق منهج متزن، وأسلوب حكيم : لولا حسن التأسي بالنبي عليه الصلاة والسلام، وحمل النفس على الأخذ بهديه القويم على نور من الله العليم الحكيم .

ومن المؤكَّد أنه لا يعوزك أن تقع على الكثير الكثير من الوقائع التي تدل على عظيم انتفاعه بصحبة المصطفى عليه الصلاة والسلام، على ساحة العمل والتطبيق، وأن تشهد لما كان لمحبته له، والعناية بتعليمه، وتزكيته، من آثار بالغة في حياته الحافلة بالخير والعطاء، علمًا وعملاً،

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢، ٣.

وأخذًا بيد المسلمين إلى حيث الاعتصام ـ أبدًا ـ بالهدي الرباني في كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام .

من ذلك ، ما روى مسلم وأحمد وغيرهما واللفظ لمسلم بسنده عن أبي الأحوص عبد الله أنه قال : **«من سرّه أن يلقى الله غدًا مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن ؛ فإن الله شرع لنبيكم سنن الهدى ، وإنهن من سنن الهدى ، ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيكم ، ولو أنكم تركتم سنة نبيكم لضللتم ، وما من رجل يتطهر فيحسن الطُّهور ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله بكل خطوة يخطوها حسنة ، ويرفعه بها درجة ، ويحط عنه بها سيئة ، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتى به يُهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف»**(١) .

وفي رواية لأحمد في المسند : وقال رسول الله ﷺ : **«ما من رجل يتوضأ فيحسن الوضوء ، ثم يأتي مسجدًا من المساجد فيخطو خطوة إلا رُفع بها درجة ، وحط بها عنه خطيئة ، وكتبت له بها حسنة ؛ حتى إن كنا لنقارب بين الخُطا ، وإن فضل صلاة الرجل في جماعة على صلاته وحده بخمس وعشرين درجة»**(٢) .

هكذا يدعو أبو عبد الرحمن إلى الالتزام بالمحافظة على الصلوات

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٥/ ١٦٥ ، ١٥٧) ، وانظر : «المسند» (١/ ٤١٥) .

(٢) «المسند» (١/ ٣٨٢) ، وانظر : «الجامع الصحيح» مع «الفتح» (٢/ ١٣١) فما بعد ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، «صحيح مسلم بشرح النووي» (٥/ ١٥١) فما بعد .

الخمس في المسجد؛ لما أنهن من سنن الهدى التي شرعها الله لنبينا عليه الصلاة والسلام، وكم كان موفقًا في ترغيبه وترهيبه بالأسلوب الحكيم الحازم المعتمد على الدليل، والمشرق بالغيرة على المسلمين ألاَّ يكون لهم في الآخرة أوفى نصيب!.

سنن الهدى: طرائق الهدى والرشاد والصواب والسداد. جاء في «النهاية» لابن الأثير، (وفيه أنه قال لعلي: «سل الله الهدى»، وفي رواية: «قل اللهم اهدني وسددني، واذكر بالهدى هدايتك الطريق، وبالسداد تسديدك السهم» الهدى: الرشاد والدلالة، ويؤنث ويذكر. يقال: هداه الله للدين هدىً، وهديتُه الطريق، وإلى الطريق هداية: أي عرَّفته. والمعنى: إذا سألت الله الهدى فأخطر بقلبك هداية الطريق، وسل الله الاستقامة فيه، كما تتحراه في سلوك الطريق؛ لأن سالك الفلاة يلزم الجادة ولا يفارقها؛ خوفًا من الضلال، وكذلك الرامي إذا رمى شيئًا سدّد السهم نحوه ليصيبه، فأخطر ذلك بقلبك ليكون ما تنويه من الدعاء على شاكلة ما تستعمله في الرمي)[1].

يُهادى بين الرجلين: أي يمسكه رجلان من جانبيه بعضديه يعتمد عليهما. وكل من فعل ذلك بأحد فهو يُهاديه.

وانظر إلى ما ظفر به أبو عبد الرحمن ـ وقد صدق الله في علمه وعمله وتعليمه الناس ـ من نور البصيرة وتفقيه الله إياه في الدين، وقيامه بحقوق ذلك؛ شأن الرباني المتصل قلبه بالله، المستنير عقله بنور الكتاب والحكمة.

---

(١) «النهاية» مادة (هدا).

قال عبد الله ابن الإمام أحمد: حدثني أبي قال: حدثنا أبو معاوية، قال: حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ كلمة، وقلت أخرى؛ قال رسول الله ﷺ: «**من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة**»، قال: وقلت أنا: «من مات يشرك بالله شيئًا دخل النار»(١).

وله في رواية أخرى عن أبي وائل شقيق بن سلمة أيضًا قال: قال عبد الله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من جعل لله ندًّا جعله الله في النار**»، قال: وأخرى أقولها لم أسمعها منه: «من مات لا يجعل لله ندًّا أدخله الله الجنة . . .» الحديث(٢).

أرأيت إلى فقه النفس في الفهم السليم للنصوص، والقدرة على الاستنباط بعقل نابه كيف يكون؟!.

ومما هو جدير بالكثير من العناية والاهتمام من قبل المؤتمنين على التربية والدعوة: الجدِّيةُ في طَرق باب الانتفاع بما كان من نهجه ـ رضي الله عنه ـ وهو يؤدي أمانة العلم والدعوة ووعظ الآخرين؛ حيث الحرص على كمال التأسي بصنيع النبي ﷺ من تعهُّد الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بالموعظة، واختيار الوقت المناسب الذي يجعل المخاطب بكلمة الخير أقدر على إرعاء السمع وحسن التلقي دون ملل أو سآمة.

حدّث أبو وائل شقيق بن سلمة، قال: كان عبد الله يذكِّر كل خميس أو

---

(١) «المسند» (١/ ٣٨٢ ـ ٤٦٢).
(٢) «المسند» (١/ ٤٠٢).

اثنين الأيام. . قال: فقلنا ـ أو قيل ـ: يا أبا عبد الرحمن، إنا لنحب حديثك ونشتهيه، ووددنا أنك تذكرنا كلَّ يوم، فقال عبد الله: **إنه لا يمنعني من ذاك إلا أني أكره أن أُمِلَّكم، وإني لأتخولكم بالموعظة كما كان رسول الله ﷺ يتخولنا**» رواه أحمد في مسنده[١].

وأخرجه البخاري في كتاب العلم من «الجامع الصحيح» بلفظ: «كان عبد الله يذكر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكَّرتنا كل يوم. قال: **أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أُملَّكم، وإني أتخوَّلكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخوَّلنا مخافة السآمة علينا**»[٢] ورواه مسلم في باب الاقتصاد في الموعظة من صحيحه[٣].

ومن فقه الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ أنه أتى برواية أخرى يقول فيها عبد الله: «**كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة كراهة السآمة علينا**»، وترجم لها بقوله: (باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا)[٤].

يتخولنا بالموعظة: أي يتعهدنا من قولهم: خال المالَ يخوله تخوُّلاً: إذا تعهده وأصلحه وقام به. قال الخطابي: والمعنى كان يراعي الأوقات في تذكيرنا، ولا يفعل ذلك كل يوم لئلا نمل، وجميل قول الإمام النووي: وفي هذا الحديث الاقتصاد في الموعظة لئلا تملها القلوب فيفوت

---

(١) المصدر السابق (١/ ٤٦٥، ٤٦٦).
(٢) «الجامع الصحيح» مع «الفتح» (١/ ١٦٣، ١٦٤) رقم ٧٠.
(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٧/ ١٦٣، ١٦٤).
(٤) المصدر السابق (١/ ١٦٢، ١٦٣) رقم ٦٨.

مقصودها[١] .

وروي عن أبي عمرو الشيباني أنه كان يقول: الصواب يتحولنا. بالحاء أي يطلب الحال التي ينشطون فيها للموعظة، فيعظهم فيها، ولا يكثر عليهم فيملوا، وكان الأصمعي ـ كما يقول ابن الأثير ـ يرويه يتخوّننا. بالنون: أي يتعهدنا، من تخوّن الشيء إذا تعهَّده وحفظه.

وذهب الحافظ إلى أن الصواب من حيث الرواية: الأولى وهي «يتخولنا» بالخاء، وإذا ثبتت الرواية وصح المعنى بطل الاعتراض[٢] .

وبعد: فالدرس العظيم كان في حرص عبد الله على الاقتداء بالرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، وسلوكُه عين الحكمة في التربية، والتعليم، والتبليغ.

* * *

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٧/ ١٦٤).
(٢) «الفتح» (١/ ١٦٢، ١٦٣).

مع أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود

ـ ١٤ ـ

العاصم الأمثل من المخالفة عن الحق، والوقوع فيما يعكِّر صفاء الوجهة عند الرجل الرباني: ما يأخذ به نفسه ويستعين الله عليه من الإخلاص في الدين، والتأسي المبصر بالرسول المصطفى ﷺ عملاً بسنته المطهَّرة، واستمساكًا بهديه المكين، شأن أهل الصدق المتقين.

وهذه واحدة من المسلَّمات في سلوك هؤلاء المنعم عليهم بأن يكونوا من البررة الذين ينالون شرف العمل بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾.

والحق أنه لا يعوزك مطلقًا أن تقع على الكثير الكثير من مؤيدات ما نقوله في هذا السلوك؛ عِلمًا كان ما يواجهك، أو عملاً، أو درسًا وتدريسًا، أو نصيحة وفتوى، وغير ذلك من كل ما هو إسهام في المقدور عليه من جلب الخير للآخرين، على منهج قوامه الهدى والنور، وابتغاء مرضاة ربنا السميع العليم.

وبعد: فلتكن كلماتنا هذه مرقاتنا لكلمات أخر عن ابن أم عبد ـ رضي الله عنه ـ روى البخاري بسنده عن أبي وائل شقيق بن سلمة الأسدي، قال عبد الله ـ يعني ابن مسعود رضي الله عنه ـ: «**لقد أتاني اليوم رجل فسألني عن أمرٍ ما دريت ما أردُّ عليه، فقال: أرأيت رجلاً مؤديًا نشيطًا يخرج مع أمرائنا في المغازي، فيُعزم علينا في أشياء لا نحصيها. فقلت له: والله لا أدري**

ما أقول لك، إلا أنا كنا مع النبي ﷺ، فعسى ألا يعزم علينا في أمر إلا مرة حتى نفعله، وإن أحدكم لا يزال بخير ما اتقى الله! وإذا شك في نفسه شيء سأل رجلًا فشفاه منه، وأوشك ألا تجدوه، والذي لا إله إلا هو، ما أذكر ما غبر من الدنيا إلا كالثَّغب شُرب صفوه، وبقي كدره»[1].

إنها واحدة من مآثر ربانينا أبي عبد الرحمن في التثبت في الفُتيا، والشجاعة الأدبية في قول: ما دريت فيما لا يدري، مصحوبًا ذلك بالتذكير بالهدي النبوي، وما كان عليه هو وإخوانه من السمع والطاعة لرسول الله عليه الصلاة والسلام، وتوكيد أن يكون محور التصرف ـ فعلاً، أوتركًا ـ تقوى الله عز وجل، فذلك مناط رضاه سبحانه وتوفيقه، وأنه لابد من سؤال العالم عند الشك في مسألة ما؛ فجواب العالم العامل يشفي من القلق والحيرة.

هكذا حملت مخافة الله أبا عبد الرحمن على ألا يجد غضاضة في أن يقول ردًا على سؤال هذا الرجل التام السلاح، الكامل في أداة الحرب في ساحات الجهاد، النشيط في ذلك: «ما دريت ما أرد عليه»، **وهذا عند أهل الخشية العلماء العاملين، هو ما تقتضيه الأمانة العلمية؛ فمع التثبت قد يتوقف الواحد منهم عن الجواب مادام الحكم في النازلة غير متضح لديه.**

وما سأل عنه الرجل: هو حكم طاعة الأمراء في المغازي حين يعزمون على الجنود في أشياء لا يطيقونها، وقد عبر عن ذلك بقوله: (فيُعزم علينا في أشياء لا نحصيها) أي لا نطيقها؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ﴾،

(1) «الجامع الصحيح» مع «الفتح» (6/119، 120) كتاب الجهاد، رقم 2964.

وقيل: لا ندري أهي طاعة أم معصية.

وكان من فقه الإمام البخاري أن ترجم لهذا الحديث بقوله: (باب عزم الإمام على الناس فيما يطيقون).

ولم تكن هذه نهاية المطاف؛ بل إن عبد الله خرج بهذا المسلم الفارس المجاهد إلى الجو الأرحب، وهو إنارة طريقه بما كان عليه هو وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ من المسارعة إلى طاعة النبي ﷺ فيما يأمر وفيما ينهى، فبعد أن أكَّد له عدم درايته ما يقول له لعدم اتضاح الأمر عنده قال: «إلا أنا كنا مع النبي ﷺ، فعسى ألا يعزم علينا في أمر إلا مرة حتى نفعله» وبهذا توقف ـ رضي الله عنه ـ عن خصوص جواب الرجل، وعدل إلى الجواب العام؛ للإشكال الذي وقع له من ذلك.

والربانية عند أبي عبد الرحمن في التربية والتعليم قادت إلى تذكير السائل بالمعيار الذي يجب أن يكون ذا السلطان على التصرفات وهو تقوى الله تعالى فيما يأخذ المسلم وفيما يذر «وإن أحدكم لا يزال بخير ما اتقى الله».

فما دام المسلم على اتقاء الله ظاهرًا وباطنًا فهو في بحبوحة من الخير في دنياه وأخراه، وكأنه يقول له: استفت قلبك في ضوء تقوى الله، كيما تكون الطاعة أو عدمها على نور من هذه الخليقة المباركة.

وكان من حصافته ـ رضي الله عنه ـ وسلامة منهجه في الفتيا والتوجيه أنه مع توقفه عن الفُتيا لعدم اتضاح الأمر لديه، **ووصية السائل بتقوى الله تعالى، أكَّد ما يجب من سؤال أهل الذكر العاملين بعلمهم عندما يعرض**

للمسلم شيء يشك في حله أو حرمته، «وإذا شك في نفسه شيء سأل رجلاً فشفاه منه، وأوشك ألا تجدوه».

فمن تقوى الله والحرص على طاعته ـ سبحانه ـ ألا يقدم المرء على ما يشك فيه حتى يسأل من عنده علم، فيدله على ما فيه شفاؤه من الشك الذي يبعث على الخوف من الوقوع في المخالفة.

وقول أبي عبد الرحمن: «**شك في نفسه شيء**» هو من المقلوب، والتقدير: شك نفسه في شيء، أو أنه ضمَّن شك معنى لصِق، والمراد بالشيء ما يتردد في جوازه وعدمه[1]، كما أسلفت.

من هنا كانت صفوة القول في صنيع عبد الله، عند الحافظ رحمه الله في «الفتح» ما حاصله:

أن الرجل سأل ابن مسعود عن حكم طاعة من له الأمر في المغازي؛ فأجاب ابن مسعود بالوجوب بشرط أن يكون المأمور به موافقًا لتقوى الله تعالى[2].

وتسلمنا واقعة أبي عبد الرحمن مع ذلك الرجل المجاهد المؤدي النشيط، إلى ما يجب من استذكار أن أبناء الآخرة في حصن من أن يكون للتعلق بلذائذ الدنيا وشهواتها إلى قلوبهم من سبيل؛ فهي دار ممر لا دار مقر، وهي العاجلة، والآخرة هي دار المقامة الآجلة، وأكدارها هي الأغلب دائمًا، بل إن صفوها مشوب بالكدر.

---

(1) انظر: «فتح الباري» (٦/ ١١٩)، «عمدة القاري» للعيني (١٤/ ٢٢٦).
(2) انظر: «فتح الباري» (٦/ ١٢٠).

وهذا ما دعا ابن مسعود ـ وقد صدق الله في نظرته إلى الدنيا التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة، راجيًا لقاء ربه في دار النعيم المقيم الذي لا يعكر صفوه شيء من الأكدار ـ هذا ما دعاه إلى القول المصدَّر بالقسم: «**والذي لا إله إلا هو، ما أذكر ما غبَر من الدنيا إلا كالثَّغب شُرب صفوه، وبقي كدَرُه**»[(١)].

غبَر: بغين وباء مفتوحتين: أي مضى، وهو من الأضداد؛ يطلق ـ كما يقول الأزهري ـ على ما مضى وعلى ما بقي. قال الحافظ: وهو هنا ـ يعني في كلام عبد الله ـ محتمل للأمرين، ثم نقل عن ابن الجوزي أنه بالماضي هنا أشبه كقوله: «ما أذكر»[(٢)].

والثَّغْب: بثاء مفتوحة، وغين ساكنة، ويجوز فتحها. . . «ثَغَب»: الغدير يكون في ظل فيبرد ماؤه ويروق، وقيل: هو ما يحتفره السيل في الأرض المنخفضة، فيصير مثل الأخدود، فيبقى الماء فيه، فتصفِقُه الريح، فيصير صافيًا باردًا، وقيل: هو نُقرة في صخرة يبقى الماء فيها كذلك[(٣)].

وجاء في النهاية» لابن الأثير في حديث عبدالله: «**ما شبَّهت ما غبر من الدنيا إلا بثَغْبٍ ذهب صفوه وبقي كدره**»: الثَّغب ـ بالفتح والسكون ـ الموضع المطمئن في أعلى الجبل يستنقع فيه ماء المطر. وقيل: هو غدير

---

(١) المصدر نفسه (٦/ ١١٩، ١٢٠)، وانظر: «عمدة القاري» (١٤/ ٢٢٥، ٢٢٦).
(٢) «الفتح» (٦/ ١٢٠).
(٣) المصدر نفسه (٦/ ١٢٠).

في غِلظٍ من الأرض، أو على صخرة ويكون قليلاً»[١] .

والمهم أنه رضي الله عنه شبَّه ما مضى من الدنيا بما شُرب من صفوه، وما بقي منها بما تأخر من كدره. وهذا لفرط إحساسه الإيماني بما هو للدنيا ومنها وما هو للآخرة ومنها عند الله!.

جزى الله خير جزائه أبا عبد الرحمن؛ كم كان معلمًا بارعًا، وناصحًا أمينًا، ومربيًا قدوة على السنن النبوي الذي يتجدد عطاؤه في الأمة أن لو استمسكت بعراه ما تعاقب الليل والنهار.

* * *

---

(١) «النهاية» مادة (ثغب).

الأسلوب... والتكامل
مع ابن مسعود أبي عبد الرحمن
- ١٥ -

الأسلوب الحكيم في التربية والتزكية، وفي التعليم والإقناع بما هو الحق - من النعم الإلهية التي يؤتيها العليم الحكيم جل شأنه من يختارهم للجلِّى في الدعوة إلى الله، وتزويد الأمة بالعلم النافع، وتربية الأجيال على المعرفة الحقة، ناهيك عن تزكية الأنفس بالتقوى والعمل بالعلم، على نور من الإخلاص وابتغاء مرضاة المولى سبحانه.

وبمقدار ما يتوافر هذا الأسلوب - الذي يضع الأمور مواضعها - في الخطاب، مصادفًا أهلية المخاطب للتلقي، تكون النتائج الخيِّرة أغزر وأوفى.

وما أكثر ما نجد مصداق ذلك في صنيع الربانيين وهم يترسمون منهاج النبي عليه الصلاة والسلام الذي شاء الله - كما جاء في مواطن عدة من التنزيل - أن تكون أولى مهامه أن يتلو على المؤمنين آياته سبحانه، وأن يزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون.

قال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥١.

وقال جل شأنه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[1].

وإذا كان الأمر كذلك، فليس بدعًا أن تقودنا هذه الحقيقة إلى واحدة من الوقائع المشرقة على هذه الساحة في حياة الربانيِّ المعلِّم عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ تنير السبيل مرة أخرى لتبيُّن ما كانت تزدان به شخصيته ـ وهو يبلغ شِرعة الإسلام وآدابه ـ من قدرة على العطاء بالأسلوب الحكيم المتميز الذي له من إرث النبوة أوفى نصيب، والقدوة التي ما بدٌّ من أن تعمل عملها، في تحقيق طيب الغرس، والتأثير المرضي الهادي في النفوس.

روى الشيخان وأحمد، وأصحاب السنن، والدارمي، وغيرهم[2] ـ واللفظ لمسلم ـ عن علقمة عن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: «**لعن الله الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، المغيِّرات خلق الله**» قال: فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها: أم يعقوب ـ وكانت تقرأ القرآن ـ فأتته فقالت: ما حديث

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٤.

(٢) «الجامع الصحيح» مع «الفتح» (٨/ ٦٣٠)، كتاب التفسير، باب: «وما آتاكم الرسول فخذوه» رقم ٤٨٨٦، وينظر ٥٩٤٣، ٥٩٤٨. وانظر: «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٤/ ١٠٥ ـ ١٠٧)، «سنن أبي داود» رقم ٤١٧٠، «الجامع الصحيح للترمذي رقم ٢٧٨٢، «سنن النسائي» رقم ٥٠٩٩، ٥٢٥٣، «مسند أحمد» (١/ ٤١٥، ٤٥٤)، «سنن ابن ماجه» النكاح ١٩٨٨، «سنن الدارمي» الاستئذان ٢٦٥٠.

بلغني عنك أنك لعنت الواشمات والمستوشمات، والنامصات والمتنمصات، والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله؟! .

وفي رواية للبخاري: «إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت» فقال عبد الله: «ومالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ، وهو في كتاب الله! فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته. فقال: لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه. قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[١]، ـ وعند البخاري: فإنه قد نهى عنه.

فقالت المرأة: فإني أرى شيئًا من هذا على امرأتك الآن ـ وعند البخاري: فإني أرى أهلك يفعلونه ـ قال: اذهبي فانظري. قال: فَدخَلَتْ على امرأة عبد الله فلم تر شيئًا، فجاءت إليه فقالت: ما رأيت شيئًا، فقال: أما لو كان ذلك لم نجامعها»[٢].

قال جماهير العلماء: معناه لم نصاحبها ولم نجتمع نحن وهي، بل كنا نفارقها[٣].

وفي رواية لأحمد عن مسروق عن عبد الله: «**فإني سمعت رسول الله ﷺ نهى عن النامصة والواشرة، والواصلة والواشمة إلا من داء**»[٤]، وقوله: «قرأتيه، وجدتيه» بالياء في الفعلين هو من إشباع الكسرة بالياء؛ فالأصل

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٤/ ١٠٥ ـ ١٠٧)، «صحيح مسلم» رقم ٢١٢٥، كتاب اللباس والزينة.

(٣) انظر: «شرح النووي لصحيح مسلم» (١٤/ ١٠٧).

(٤) «المسند» (١/ ٤١٥، ٤١٦).

«قرأتِه وجدتِه» بالكسرة فقط، ولكن بالإشباع صارت «قرأتيه» بالياء، «وجدتيه» بالياء أيضًا[١].

أرأيت إلى ما كانت عليه المرأة المسلمة ـ وهي قارئة للقرآن ـ من وعي، وحرص على معرفة أحكام الدين في الحلال والحرام؟ وكيف أعطاها الإسلام حرية القول فيما ينفع، فجاءت إلى أبي عبد الرحمن، وهو علم من أعلام الصحابة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ جاءت إليه تجادله في مقالته التي سمعتها عنه تقول: «إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت» وكأنها تقول له: من أين جئت بهذا؟ كما جاء في بعض الروايات.

وبأسلوبه الحكيم الذي أشرنا إليه، والذي يُبتغى من ورائه هداية الخلق: دلها على أن الرسول ﷺ مبلغ عن الله عز وجل؛ فطاعته صلى الله وسلم وبارك عليه من طاعة الله؛ فما يقوله في كتاب الله، وليس من عنده.

ولم تكتف أم يعقوب بهذا، بل تابعت ـ بما لها من حرية القول ـ تقول: لقد قرأت ما بين لوحتي المصحف فلم أجده، ولم يضق عبد الله ـ رضي الله عنه بجدلها المؤدَّب ـ الذي يراه حقًّا لها ـ بل اتسع صدره ليقول لها: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، ثم دلَّها على موضع الحجة في ذلك بأن ذكَّرها بقوله تعالى في سورة الحشر: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ فإنه قد نهى عنه.

والسياق يدل على أن أسلوب ربانيِّنا عبد الله أجدى معها ـ رحمها الله ـ؛ لأنها إنما أرادت من وراء مجادلتها العلمية المؤدبة الوصول إلى الحقيقة

---

(١) انظر: «عمدة القاري» (١٩/ ٢٢٦) للعيني.

والتفقه في الدين.

ولكن قارئة القرآن أم يعقوب العجوز ـ كما في بعض الروايات ـ تحوَّلت إلى ما يشبه اتهام عبد الله بعدم أخذ أهله بما عنه ينهى هذا النهي الجازم؛ ذلكم قولها: «فإني أرى أهلك يفعلونه»، وهنا أيضًا لم يُستثر، ولم يتبرَّم، بل قال لها قولاً ميسورًا حين أمرها أن تذهب إلى بيته وتنظر؛ كيما تتحقق مما تدعيه. وفعلاً ذهبت أم يعقوب ـ وهذا دليل انصياعها للحق ـ وعادت لتشهد شهادة الصدق بأنها لم تر في أهله شيئًا يخالف ما هو عليه ـ رضي الله عنه ـ.

وتحسن الإشارة هنا إلى ما نبه عليه الحافظ في «الفتح» من أن أم يعقوب المذكورة في هذا الحديث لا يعرف اسمها، ولم يقف لها على ترجمة، ومراجعتها ابن مسعود تدل على أن لها إدراكًا، والله أعلم بالصواب[١].

ومما يستوقف الناقد البصير: أنه لم يصدر عن أبي عبد الرحمن أيُّ لون من ألوان العتب على هذه السائلة الجريئة فيما ترى أنه الحق المتمرسَةِ بالحجاج والقدرة على المتابعة؛ لأن الأهمَّ عنده طاعة الله تعالى في إيصال الهداية إلى النفوس، وأن يكون المسلمون والمسلمات على مستوى السمع والطاعة لحكم الله ورسوله برضىً وطمأنينة وتسليم، ذاكرين حقيقة أن الرسول ﷺ مبلِّغ عن الله عز وجل، وأن من قبل عن رسول الله عليه الصلاة

(١) انظر: «الفتح» (١٠/ ٣٧٣).

والسلام ـ كما يقول الإمام المطلبي ـ فعن الله قبل .

وغير خافٍ أن ربانية ابن أم عبد كانت الحارس الأمين الذي جعله ـ بتوفيق الله ـ على طريق صاعدة من طاعة الله تعالى في التعليم، والتزكية والتذكير، ووضع حرية القول موضعها الذي وضعها فيه الإسلام، وهو الوضع الحكيم في الاستفهام والتفهيم، والعلم والتعليم، وما إلى ذلك، وأن النساء شقائق الرجال في حمل أمانة التكليف ـ على وجه العموم ـ وأن هذا كلَّه مراعىً فيه الانضباط بما سنته الشريعة المطهَّرة من أحكام وآداب وأخلاق لكل من الرجل والمرأة على حد سواء .

وعلى هذا السنن : نذكر ما ينطق به سلوكه أجزل الله مثوبته ـ وهو يزاول عملية البناء تعليمًا وتربية ـ من حقيقة أن عمل العالم بعلمه هو الطريق الأمثل لنفاذ كلماته إلى القلوب، وبريدُ قبولها القبول الحسن في العقول، بعد أن يكون على الجادة في استيعاب العلم، والإخلاص لمن هو أغنى الأغنياء عن الشرك سبحانه ! .

إنه يخاف الله في أن يخالف المسلمين والمسلمات إلى ما ينهاهم عنه قبل أن يخاف من يخاطبهم بذلك، وهنا معترك الأقران! جاء في رواية للإمام أحمد من طريق مسروق : « . . قالت المرأة : فلعله في بعض نسائك، قال لها : ادخلي! فدخلت ثم خرجت فقالت : ما رأيت بأسًا . قال : ما حفظت إذن وصية العبد الصالح ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ﴾[١]، يعني ما جاء في سورة هود على لسان شعيب عليه السلام .

---

(١) سورة هود، الآية : ٨٨، وانظر : «المسند» (١/ ٤١٥، ٤١٦).

أراد تذكيرها بذلك ـ وهي أهل لهذا التذكير ـ؛ فما كان له أن ينهى مسلمًا أو مسلمة عن شيء، ويقع هو أو أهله فيما نهى عنه ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

بل إن عبد الله فوق هذا كله، كان كل ما يتمناه القبول عند الله عز وجل، وكم كان وجل القلب ألا يتحقق له ذلك.

روى أحمد عن عبد الرحمن بن زيد، عنه ـ رضي الله عنه ـ قال: **صليت مع رسول الله ﷺ بمنى ركعتين، ومع أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ ركعتين، ومع عمر ـ رضي الله عنه ـ ركعتين، فليت حظي من أربع ركعات ركعتان متقبلتان»**.[1]

* * *

(١) «المسند» (١/ ٤١٦).

ابن مسعود... والتكامل

- ١٦ -

شهادة عمر بالرجال، وما أدراك ما شهادة عمر بالرجال - ومن عيونهم الإمام الرباني الملهم عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: تؤكد ما كانت تضيء به شخصيته من الإيمان الصادق، والعلم الجم المقترن بالعمل، والفقه في دين الله من نبعه السلسبيل في الكتاب والسنة، ناهيك عما أوتي من قدرة على إيصال الخير للأمة في دينها ودنياها بأسلوب حكيم، لا ينقصه الورع وشدة التثبت. وهو أسلوب ما تزال آثاره الخيِّرة تعمل عملها عند أولي النهى في الحفاظ على كيان الأمة وبُناها المختلفة، وكلِّ ما به يتحقق وجودها الذاتي في ضوء خيرة الله لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

جاء في «أُسد الغابة» لعز الدين ابن الأثير: (ومن مناقبه - رضي الله عنه - أنه بعد وفاة رسول الله ﷺ شهد المشاهد العظيمة، منها أنه شهد اليرموك بالشام، وكان على النَفَل، وسيَّره عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى الكوفة، وكتب إلى أهل الكوفة: «**إني قد بعثت عمار بن ياسر أميرًا، وعبد الله بن مسعود معلمًا ووزيرًا، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل بدر، فاقتدوا بهما، وأطيعوا واسمعوا قولهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي**»)[١].

---

(١) «أُسد الغابة في معرفة الصحابة» (٣/ ٣٨٨). وانظر: «تذكرة الحفاظ» للذهبي (١/ ١٤).

أرأيت إلى هذه القَوْلةِ العمرية التي لها دلالتها في تقويم واحد من بناة مجد الإسلام: «وقد آثرتكم بعبد الله على نفسي».

قالها ـ رضي الله عنه ـ وهو يتابع بقوته المعروفة في دين الله مراحلَ البناء الشامخ لدولة الإسلام، ويعمل على نشر دعوته في العالمين، ورفع الظلم والحيف ـ بسلطان العدل الإلهي ـ عن عباد الله المستضعفين.

أجل أرسله إلى أهل الكوفة معلمًا ووزيرًا ـ وكم يحمل ذلك من حسن الظن بأهليته وكفايته ـ وآثرهم به على نفسه، وهو فيما هو بسبيله من القيام بتلكم المهام الجسام والأمور العظام.

ومما يضاعف من قدر هذه الشهادة من عمر ـ رضي الله عنه ـ أن بعض الروايات حملت إلينا إقسامه على هذا الإيثار؛ فقد روى ابن سعد عن الإمام الشعبي أن مهاجَر عبد الله كان بحمص، فحدره عمر إلى الكوفة، وكتب إليهم: «**إني والله الذي لا إله إلا هو آثرتكم به على نفسي فخذوا منه**»[١].

وكان أبو عبد الرحمن ـ بتوفيق الله وعونه ـ عند ظن الخليفة الراشد، فقام ـ كما دلت الوقائع على وجه اليقين ـ بالمهام الموكولة إليه خير قيام؛ فلم يؤثر عنه أيُّ توانٍ في القراءة والإقراء، والدرس والتدريس، والتعليم والتزكية، ولا في الأداء المتميز لما هو مسؤول عنه من الإسهام في تدبير شؤون المسلمين في دينهم ودنياهم، على الوجه الذي يجعل المسلم والمسلمة على الصراط السويِّ في محابِّ الله ومرضياته في العاجلة

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٣/ ١٥٦)، «سير أعلام النبلاء» (١/ ٤٩١).

والآجلة، عزيز الجانب مستعصيًا على الضعف والهوان.

ولنذكر بعد هذا أن أبا حفص ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ وهو من هو علوَّ همة، وصدق عزيمة ـ عندما كان ينصح للأمة في إحسانه اختيار الرجال الأقوياء الأمناء، لحمل أمانة البناء في مختلف الميادين، ومن ذلك ما كان من اختيار ابن أم عبد لما ندبه إليه في الكوفة بعد أن طالت تجربته الحكيمة الناجحة في غيرها. . . لنذكر أنه ـ والله أعلم ـ لم يغب عن ذهنه المتألق ما كان عليه أبو عبد الرحمن من المكانة المرضية عند النبي عليه الصلاة والسلام، والتي نجم عنها ما زفَّ إليه من بُشريات كريمة سبقت الإشارة إلى بعضٍ منها فيما سبق.

وأخرج أبو نُعيم وغيره من طريق الأعمش عن إبراهيم عن علقمة بإسناد صحيح، قال: **جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال: إني جئتك من عند رجل يملي المصحف ـ أو المصاحف ـ عن ظهر قلب، ففزع عُمر وَغَضِبَ،** وقال: **ويحك انظر ما تقول! قال: ما جئتك إلا بالحق. قال: من هو؟ قال: عبد الله بن مسعود.**

فقال: ما أعلم أحدًا أحقَّ بذلك منه، وسأحدثك عن عبد الله: إنا سمرنا ليلة في بيت أبي بكر في بعض ما يكون من حاجة النبي ﷺ، ثم خرجنا ورسول الله ﷺ يمشي بيني وبين أبي بكر، فلما انتهينا إلى المسجد، إذا رجل يقرأ، فقام النبي ﷺ يستمع إليه. فقلت: يا رسول الله، أعتمتَ، فغمزني بيده: **اسكت،** قال: فقرأ وركع وسجد، وجلس يدعو ويستغفر. فقال النبي ﷺ: «**سَلْ تُعطه**» ثم قال: «**من سرَّه أن يقرأ القرآن رطبًا كما أُنزل**

فليقرأ قراءة ابن أم عبد» فعلمت أنا وصاحبي أنه عبد الله .

فلما أصبحت غدوت إليه لأبشره، فقال: سبقك بها أبو بكر، وما سابقته إلى خير قط إلا سبقني إليه[١] .

واستنارة شخصية الرجل الرباني التي يجتمع لها الخير من أطرافه لا تخفى على ذي بصيرة .

روى ابن سعد في «الطبقات» بسنده عن حَبَّة بن جوين القرني قال: كنا عند عليٍّ فذكرنا بعض قول عبد الله، وأثنى القوم عليه، فقالوا: **يا أمير المؤمنين، ما رأينا رجلًا كان أحسن خلقًا ولا أرفق تعليمًا، ولا أحسن مجالسةً، ولا أشد ورعًا من عبد الله بن مسعود، فقال علي ـ رضي الله عنه ـ نشدتكم الله، أهو الصدقُ من قلوبكم؟ قالوا: نعم، فقال: اللهم إني أشهدك ـ أو اللهم اشهد ـ أني أقول فيه مثل ما قالوا أو أفضل**[٢]، وأخرجه الحاكم في «المستدرك»، وابن الأثير في «أُسْد الغابة»، وآخرون[٣] .

ولفظ الحاكم: «أن ناسًا أتوا عليًا، فأثنوا على عبد الله بن مسعود، فقال: أقول فيه مثل ما قالوا وأفضل؛ قرأ القرآن، فأحلَّ حلاله، وحرم حرامه، فقيه في الدين، عالم بالسنة»[٤] .

---

(١) انظر: «الحلية» (١/ ١٢٤)، «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٣٨)، «السير» (١/ ٤٩٩، ٥٠٠).

(٢) انظر: «الطبقات الكبرى» (٣/ ١٥٦).

(٣) انظر: «المستدرك» للحاكم (٣/ ٣١٥)، كتاب معرفة الصحابة، «أسد الغابة» لعز الدين ابن الأثير(٣/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٤) «المستدرك» (٣/ ٣٤٥)، وانظر: «الطبقات الكبرى» (٣/ ١٥٦، ١٥٧).

ويبدو أن حرصَ أبي عبد الرحمن على التفقيه والتعليم، ورفقَه في ذلك، وحكمته في إيصال المعلومة إلى الآخرين، طلبًا لمرضاة الله في هدايتهم، كل أولئك من الأمور التي كانت شائعة ذائعة عنه، وأصبحت عبر تاريخنا أمانة في أعناق من أقامهم الله على ثغر التربية والتعليم، وإعداد المؤمن القوي والمؤمنة القوية: أن يولوها في المناهج والتطبيق ما هي جديرة به من صادق الاهتمام.

ومواقف الربانيين الأقوياء بربهم، المعتزين بإيمانهم، الجادين في حمل الأمانة، تنبئ عن مدى يقينهم بالحق الذي يتحركون تحت رايته، وعظيم تصديقهم بما وعد الله تبارك وتعالى أحباءه الصادقين الصابرين على ما يصيبهم في سبيله ما دام هو ـ سبحانه ـ راضيًا عنهم.

وهذا ما نلمسه في واحد من مواقف ابن أم عبد ـ أجزل الله مثوبته ـ في عهد مبكر من عمر الدعوة المحمدية؛ حيث كان ـ كما أسلفنا من قبل ـ أول من جهر بالقرآن بعد الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام، جهر بالقرآن ونار الفتنة عن الدين يشتد أوارها يومًا بعد يوم، بل ساعة بعد ساعة، وكان لهذا الجهر أثره الطيب في شد عضد الفئة القليلة المؤمنة، وتخطي استكبار سدنة الشرك والضلال بالقرآن.

نجد تفصيل ذلك فيما روى محمد بن إسحاق قال: حدثني يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه قال: كان أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله ﷺ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، اجتمع يومًا أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط، فمن رجل

يُسمعهم؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا، فقالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة تمنعه من القوم إن أرادوه! فقال: دعوني، فإن الله سيمنعني.

قال: فغدا عبد الله حتى أتى المقام في الضحى وقريش في أنديتها حتى قام عند المقام، ثم قال: «بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾» فاستقبلها فقرأ بها، فتأملوا فجعلوا يقولون: ما يقول ابن أم عبد؟ ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد! فقاموا، فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ.

ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثّروا في وجهه، فقالوا: هذا الذي خشينا عليك! فقال: ما كان أعداء الله قط أهونَ عليَّ منهم الآن، وإن شئتم غاديتهم - أو لأغادينَّهم - بمثلها غدًا! قالوا: لا، حسبك! قد أسمعتهم ما يكرهون[١].

رضي الله عن أبي عبد الرحمن في أهل الصدق المقربين، وأورثه جنة الخلد التي وعدها المتقين، ونفع بصحبته وربانيته وجهاده أجيال المسلمين.

* * *

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» مع «الروض الأنف للسهيلي» ص ٢٠١، «سيرة ابن هشام» (١/ ٣١٤، ٣١٥)، «أسد الغابة في معرفة الصحابة» لابن الأثير (٣/ ٣٨٦، ٣٨٧).

ابن مسعود... والتكامل

- ١٧ -

ظاهرة العطاء المتنوِّع المتجدد في حياة الرجل الرباني القائم في حدود الله وطاعته؛ ارتيادًا لآفاق المعرفة، واستزادة من العلم النافع وتعليمه والعمل به، ودأبًا على محاسبة النفس، وجلاء القلب، ناهيك عن الاجتهاد في التقرب إلى الله بإيصال الخير للآخرين، والصبر على ما يعتريه من الأذى في مخالطة الناس، وخوض غمار المجتمع . . .

هذه الظاهرة مردها - والله أعلم - بعد توفيق الله تعالى، إلى الشمول في فهم الإسلام، وحسن التقدير للمسؤولية، في حرص على أداء أمانتها والوفاء بعهد الله، مضمومًا إلى ذلك ما يلاحظه القاصي والداني هنا وهناك من أهلية، وتكامل في البنية الذاتية تكاملاً يمهِّد لنشدان البر والهدى، على أساس من وضع الأمور مواضعها، وإعطاء كل ذي حق حقه، وسعي جاد إلى الإسهام في تحقيق الوجود الذاتي للأمة، **وهو وجود عنوانه الصادق أن تكون كلمة الله هي العليا، وما أعزَّ هذا المطلب، وأكرم طالبيه.**

أقول هذا، والعهد قريب بالحديث عن جملة مباركة من مآثر واحد من كبار حملة العلم في الصحابة، الإمام الرباني المعلم ابن أم عبد، أبي عبد الرحمن، وهي مآثر تضيء الطريق لعديد غيرها من الفضائل، الأمر الذي يشعر بظاهرة العطاء آنفة الذكر، ويبعث على الاعتقاد بوجود تكامل متميز في شخصية هذا العلم المربي - رضي الله عنه - الشخصية التي تناولتها

بالتربية والإعداد يد خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام الصناع منذ بشره ﷺ بما رأى فيه بنور النبوة من أهلية للخير والعطاء منَّ الله بها عليه، وقال له: «إنك غلام ـ أو إنك غليِّم ـ مُعَلَّم» أي ملهم».

وما أحوج الأمة إلى أن يكون ذلك كله موضع دراسة متأنية من قبل المؤتمنين على تربية الأجيال المسلمة وإعدادها، والقائمين على توجهات الأمة الثقافية والحضارية في هذه الحِقبة التي تمور بدواعي التمحُّض على صعيدي الزمان والمكان.

ومن هذا العديد المومى إليه من الفضائل والمآثر في حياة هذا الرباني القدوة: أنه ـ رضي الله عنه ـ لم تشغله رحابة الآفاق التي كانت تشهد حركته الدائبة قراءة وعلمًا، وتعليمًا، وتربية، وتزكية لنفسه وللآخرين، في تعاون مع إخوانه على البر والتقوى طمعًا في جلب الخير للمسلمين.. لم يشغله ذلك عن الجهاد في سبيل الله، وشهود المشاهد كلها مع الرسول عليه الصلاة والسلام، وما يتصل بذلك من سبب، وما أروع هذا الشمول في الفهم، والتكامل في بنية شخصية أبي عبد الرحمن القادرة ـ بعون الله ـ على العطاء المتنوِّع المتجدد، وفي ذلك قدوة نعمّا هي من قدوة.

جاء في «الطبقات الكبرى» لابن سعد: (قالوا: وشهد عبد الله بن مسعود بدرًا، وضرب عنق أبي جهل بعد أن أثبته ابنا عفراء، وشهد أحدًا والخندق، والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ)[1].

---

(١) «الطبقات الكبرى» (٣/ ١٥٢).

ونجد عند الإمام النووي في «تهذيب الأسماء واللغات»: (. . وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة وشهد مع رسول الله ﷺ بدرًا وأحدًا، والخندق، وبيعة الرضوان، وسائر المشاهد، وشهد اليرموك وهو الذي أجهز على أبي جهل يوم بدر، وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة)[١].

أجل، وهو الذي أجهز على أبي جهل يوم بدر إذ جاءه وما يزال به رمق بعد أن أثبته ابنا عفراء.

فكلما ذكرت هذه المعركة التي كانت كلها ضياء ونورًا وفرقانًا على طريق المسلمين عبر التاريخ . . **ذكر معها ما طُوِّقه ابن مسعود من الفضل؛ أن كان هو الذي قام بالمرحلة الأخيرة من القضاء على فرعون هذه الأمة الذي أعمته الجهالة والاستكبار**، ولم يأل جهدًا في العمل على إجهاض الدعوة الإسلامية في مهدها بشتى أساليب الفتنة عن الدين، وإلحاق شديد الأذى بالمسلمين، وبخاصة منهم المستضعفين، بله النبي عليه الصلاة والسلام!! وإيذاؤه لابن مسعود وأضرابه مشهور ومعروف.

ويستوقفك أنه ـ وعبد الله يذفِّف عليه وينهيه بسيفه ـ ظلَّ ينطق بالهُجر من القول الذي يشير بإصراره على العتوِّ عن أمر الله والاستكبار عن الحق، وساءه أن تكون نهايته على يد شاب ليس له ذلك الظهور الاجتماعي في عرف الجاهليين، وكم كان يعامله بغطرسة واستعلاء.

جاء عند أحمد، والبخاري، وابن إسحاق، وغيرهم بروايات فيها

---

(١) «تهذيب الأسماء واللغات» (١/ ٢٨٨)، وانظر: «الإصابة» (٢/ ٣٦٩).

المختصر ـ كما عند البخاري ـ وفيها المطوَّل ـ كما عند أحمد وابن إسحاق، وغيرهما ـ أنه لما بردت الحرب في غزوة بدر يوم الفرقان، وولَّى قبيل الشرك منهزمين، قال رسول الله ﷺ: «**من ينظر لنا ما صنع أبو جهل؟**» فانطلق ابن مسعود ـ وكان في ميعة الشباب ـ فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد ـ أي ظلَّ به رمق ـ وأخذ بلحيته، فقال: أنت أبو جهل؟ فقال: لمن الدائرة اليوم؟ فقال: لله ولرسوله، وهل أخزاك الله يا عدو الله؟ فقال: وهل فوق رجل قتلتموه، أو رجل قتله قومه؟[(١)]، فقتله عبد الله، ثم أتى النبي ﷺ، فقال: قتلته، فقال: «**آلله الذي لا إله إلا هو؟**» فرددها ثلاثًا، ثم قال: «**الله أكبر، الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، انطلق أرنيه**» فانطلقنا، فأريته إياه، فقال: «**هذا فرعون هذه الأمة**»[(٢)].

وفي رواية لأحمد: « . . . فخرج يمشي معي حتى قام عليه، فقال: «**الحمد لله الذي أخزاك يا عدو الله، هذا كان فرعون هذه الأمة**»[(٣)].

ونجد عند ابن هشام في «السيرة النبوية» شيئًا من التفصيل يسعف في الإحاطة بمزيد مما حصل في هذه الواقعة بشأن نهاية أبي جهل والإجهاز عليه؛ ذلكم قوله في الكلام على بدر وما حصل فيها: (. . فمر عبد الله بن مسعود بأبي جهل حين أمر رسول الله ﷺ أن يُلتمس في القتلى، وقد قال

---

(١) انظر: «الجامع الصحيح» مع «الفتح» (٧/ ٢٩٢).
(٢) المصدر السابق (٧/ ٢٩٢)، «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٨٨، ٢٨٩)، «مسند أحمد» (١/ ٤٤٤) (٣/ ١١٥).
(٣) المصدر السابق (١/ ٤٤٤)، وانظر: «زاد المعاد» لابن القيم (٣/ ١٨٥).

لهم رسول الله ﷺ - فيما بلغني - **انظروا إن خفي عليكم في القتلى إلى أثر جرح في ركبته، فإني ازدحمت يومًا أنا وهو على مأدُبة لعبد الله بن جدعان، ونحن غلامان، وكنت أشَفَّ منه بيسير، فدفعته، فوقع على ركبتيه، فجحش في إحداهما جحشًا** - أي خدشًا أو أكبر منه - **لم يزل أثره به**.

قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: فوجدته في آخر رمق، فعرفته، فوضعت رجلي على عنقه. قال: وقد كان ضَبَثَ بي مرةً بمكة، ولكزني، ثم قلت له: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ قال: وبماذا أخزاني؟ أعْمَدُ من رجل قتلتموه - أو قتله قومه - أخبرني لمن الدائرة اليوم؟ قال: قلت: لله ولرسوله، قال ابن هشام: ضَبَثَ به: قبض عليه ولزمه[1].

ولما كان أبو جهل - وقد تمرَّغ بالذلة - يريد أن يدفع العار عن نفسه، قال لعبد الله: أعمد من رجل قتلتموه: أي هل فوق رجل قتله قومه! أي: ليس عليه عار، وقد يكون المعنى كما يقول السُّهيلي في «الروض الأنف»: أهلك من رجل قتله قومه[2].

قال ابن هشام: ويقال: أعارٌ على رجل قتلتموه؟ أخبرني لمن الدائرة اليوم[3].

وجاء في بعض الروايات قول أبي جهل: فلو غير أكّار قتلني. الأكار: الزراع، قال ابن الأثير: أراد به احتقاره، وانتقاصه؛ كيف مثله يقتل مثله.

---

(١) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام (٢/ ٢٨٨، ٢٨٩).
(٢) «الروض الأنف» مع «سيرة ابن هشام» (٢/ ٧٢).
(٣) المصدر السابق (٢/ ٧٢).

ومما روى ابن هشام عن ابن إسحاق في هذه الواقعة أن رجالاً من بني مخزوم زعموا أن ابن مسعود كان يقول: قال لي ـ يعني أبا جهل ـ لقد ارتقيت مرتقىً صعبًا يا رويعي الغنم، وأنه ـ رضي الله عنه ـ عندما قال للرسول ﷺ هذا رأس أبي جهل! قال له عليه الصلاة والسلام مستثبتًا: **آلله الذي لا إله غيره**. . قال: وكانت يمينَ رسول الله ﷺ قال: قلت: نعم، والله الذي لا إله **غيره**. . إلى أن يقول: فحمد الله[1].

أشفَّ منه بيسير: أي أفضلَ منه قوة بيسير، وفي قول النبي ﷺ: «**آلله الذي لا إله غيره**» قال الإمام السهيلي: «هو بالخفض ـ بالجر ـ عند سيبويه وغيره؛ لأن الاستفهام عوض من الخافض عنده)[2]، ومن هنا كانت القراءة الصحيحة: «آلله» بهذا الاستفهام، وجرِّ لفظ الجلالة.

وتبارك الذي أعزَّ ابن مسعود بالإسلام وطاعة الرحمن، وأذلَّ أبا جهل بالشرك والطغيان وطاعة الشيطان، **وكم في هذه الواقعة من العبر لو كان لآباء جهل في هذه الأيام قلوب بها يعقلون، ويعتبرون، وإحساس به يشعرون.**

ورضي الله عن إمامنا الرباني أبي عبد الرحمن، وهنيئًا له ما شرف به من الإجهاز على فرعون الأمة الذي أخزاه الله في معركة الفرقان.

* * *

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٧٢)، «السيرة النبوية» (٢/ ٢٨٨، ٢٨٩)، وانظر: «مجمع الزوائد» للهيثمي (٦/ ٧٩).

(٢) «الروض الأنف» (٢/ ٧٢).

مع عبد الله أبي عبد الرحمن

ـ ١٨ ـ

النفوس الكبار التي استنارت بالإيمان، وصقلتها التجربة لا تني تتطلع دائمًا إلى معالي الأمور، وتنأى عن سفسافها؛ وذلك ما نرى من اهتمام الرباني العلم عبد الله بن مسعود بالمسارعة ـ أبدًا ـ إلى المزيد من صنائع الخير ومضاعفة الجهد على طريق التقرب إلى الله؛ فمع الذي وقفتنا عليه نصوص السيرة المطهَّرة من شهوده المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وفي مقدمتها غزوة بدر، وما كان له فيها من شرف الإجهاز على فرعون الأمة ـ أبي جهل ـ يطالعنا بِغَبْطهِ المقدادَ بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ على مشهد شهده منه حين استشار النبيُّ ﷺ من كان معه من الصحابة في شأن التوجه لقتال المشركين يوم بدر.

روى ابن سعد بسنده عن عبد الله قال: شهدت من المقداد مشهدًا، لأن أكون أنا صاحبَه أحبُّ إليَّ مما عُدِل به، إنه أتى النبيَّ ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: يا رسول الله، إنَّا والله لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾[(١)]، ولكنا نقاتل عن يمينك، وعن يسارك، ومن خلفك، فرأيت النبي ﷺ يُشرق لذلك، ويَسُرُّه ذلك[(٢)].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢٤.

(٢) «الطبقات الكبرى» (٣/ ١٦٢).

وأخرج أبو نُعيم عن ابن إسحاق قال: لما خرج النبي ﷺ إلى بدر استشار الناس، فقام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أمرك الله به، فنحن معك، والله ما نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. والله الذي بعثك بالحق نبيًّا، لو سرتَ بنا إلى بِرك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له[1]. برك الغماد: موضع باليمن، أو وراء مكة بخمس ليال، أو أقصى معمور الأرض.

وهذا التشوُّف لما يثقل الموازين يوم القيامة ـ ومن عيون ذلك الجهاد في سبيل الله، وانشراحُ الصدر لنصرةِ النبي عليه الصلاة والسلام، وفعلِ كل ما يدل على الإقدام معه وعدم التخلي عنه ـ، هذا التشوُّف القويُّ إنما كان الباعثَ عليه ـ والله أعلم ـ اليقظةُ الإيمانية، وصدق الوجهة فيما ينبغي للمسلم أن يكون عليه من القيام في حدود الله، ووفاءً بقصده، وتصديقًا جازمًا بوعده ووعيده، وعملاً لما بعد الموت، وجِماعُ ذلك كله صلاح القلب؛ لأن بصلاحه وتقواه صلاح أعمال الجوارح، وهذا من حقائق الكتاب والسنة الظاهرة ظهور الشمس في رابعة النهار «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلَحت صلَح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**».

وإذا كان الأمر كذلك، فما أكثر الأقوال والأفعال والمواقف في سلوك

---

(١) انظر: «الحلية» (١/ ١٧٣).

صحابينا الرباني أبي عبد الرحمن التي تدل على ما كان له من عناية فائقة بصلاح قلبه، والبعد به عن كل ما يكدِّر صفاءه ولو بالشبهة الضعيفة أو الاحتمال الأضعف! وذلك رغبة بما عند الله يوم العاقبة للتقوى.

ونهجه القويم المتألف هذا ـ وشدة قربه ـ رضي الله عنه ـ من النبي ﷺ مما شاع وذاع ـ ينتظمه التوجه العام عند الصحابة رضوان الله عليهم، أولئك الذين أُكرموا بأن آمنوا بالنبي ﷺ وعزَّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، وكان لهم من وراء ذلك الفوز العظيم.

بل كان بعضهم ـ سدًّا للذريعة ـ يشتدُّ في أخذ نفسه والآخرين بطريق الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، الشدة التي ينهزم أمامها ما قد يطرأ من طلب العافية والرغبة في القعود عن طلب معالي الأمور في الدنيا والآخرة.

أخرج أبو نُعيم في «الحلية» بسنده عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: «**لا تزال نفس أحدكم شابَّةً في حب الشيء، ولو التقت ترقوتاه من الكبر، إلا الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، وقليل ما هم**»(١).

وفي عود على بدء نذكر ما كان عبد الله يربي عليه أصحابه من اغتنام فرصة إقبال القلب على التذكُّر، فيقول: «**إن للقلوب شهوة وإقبالاً، فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها، ودعوها عند فترتها وإدبارها**»(٢).

وهو حين يوجه تلامذته وأصحابه إلى هذا تراه أسبقهم إلى أخذ النفس

---

(١) انظر: «الحلية» (١/ ٢٢٣)، والمشار إليه قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

(٢) المصدر السابق (١/ ١٣٤).

بما يقرب إلى الله زلفى، فيجمع إلى التعليم بالكلمة، التعليم والتربية بالسلوك والقدوة إنابة إلى ربه، وذلةً خاشعةً بين يديه.

حدَّث عون بن عبد الله عن أخيه عبيد الله قال: «كان عبد الله إذا هدأت العيون، قام فسمعتَ له دويًا كدوي النحل»[(١)]، ويبلغ من خشيته لله وتواضعه، وبعده عن التعالي أن يوحي إلى المقرَّبين منه أنه ليس على الحال التي يرونها بحسن ظنهم، بل هو على العكس من ذلك.

روى الأعمش عن إبراهيم التيمي، عن الحارث بن سويد، قال: أكثروا على عبد الله يومًا، فقال: «**والله الذي لا إله غيره لو تعلمون علمي، لحثيتم التراب على رأسي**» أخرجه الحاكم وأبو نُعيم، وغيرهما، وأورده الذهبي في «السير»[(٢)].

وحدَّث إبراهيم التيميّ عن أبيه قال: قال عبد الله: «**لو تعلمون ذنوبي، ما وطىء عقبي اثنان ولحثيتم التراب على رأسي، ولوددت أن الله غفر لي ذنبًا من ذنوبي. . .**» إلى آخر ما قال. رواه الحاكم وصاحب «المعرفة والتاريخ»[(٣)].

وقد مرَّ بنا من قبل أنه ـ رضي الله عنه ـ كان يقول في دعائه: «**خائف**

---

(١) «المعرفة والتاريخ» (٢/٥٤٨)، «الطبقات الكبرى» (٣/١١٠)، وانظر: «السير» (١/٤٩٤).

(٢) انظر: «المستدرك للحاكم» (٣/٣١٥)، «الحلية» (١/١٣٣)، «المعرفة والتاريخ» للفسوي (٢/٥٤٦)، «السير» (١/٤٩٥).

(٣) «المستدرك» (٣/٣١٦)، «المعرفة والتاريخ» (٢/٥٤٨).

مستجير، تائب مستغفر، راغب راهب»[١].

ومما رواه عامر بن مسروق عنه قوله: قال رجل عند عبد الله: ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين، أن أكون من المقربين أحبُّ إليَّ. قال: فقال عبد الله: **«لكن هناك رجل ودَّ لو أنه مات لم يُبعث - يعني نفسه -»**[٢]، **إنه - أكرم الله مثواه - يخاف العقبى على قدر قربه من الله، ومعرفته به سبحانه.**

وهذا يذكرنا بواحدة من شهادات إخوانه الصحابة التي تنمُّ عن عظيم فضله، ورفعة قدره، ذلكم ما حدّث به الإمام الرباني العابد القدوة الثبت، المتوفى ٦٣هـ وكان أعلم الناس بعبد الله، وأشبهَهَم به هديًا وسمتًا علقمة ابن قيس النخَعي إذ قال: .

(جلست إلى أبي الدرداء فقال: ممن أنت؟ قلت: من الكوفة. فقال: **أوليس عندكم ابن أم عبد، صاحب النعلين والوساد والمطهرة، وفيكم صاحب السر، وفيكم الذي أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه؟) أخرجه البخاري، وأحمد، والحاكم وصححه، وغيرهم**[٣].

وهذا الذي كان عليه أبو عبد الرحمن جعل الحكمة تتفجر من قلبه على لسانه؛ كالذي نرى في قوله: «والله الذي لا إله غيره، ما يضرُّ عبدًا يصبح على الإسلام ويمسي عليه ما أصابه في الدنيا»[٤]، وقوله: **«والذي لا إله**

---

(١) وانظر: «السير» (١/ ٤٩٦).

(٢) «الحلية» (١/ ١٣٣).

(٣) «الجامع الصحيح» مع «الفتح» (٧/ ١٠٢)، «المسند» (٦/ ٤٤٩)، «المستدرك» (٣/ ٣١٦).

(٤) انظر: «الحلية» (١/ ١٣٢).

غيره ما أصبح عند آل عبد الله ما يرجون أن يعطيهم الله به خيرًا، أو يدفع عنهم به سوءًا إلا أن الله قد علم أن عبد الله لا يشرك به شيئًا»[١].

ومن الحصافة وسداد المنهج بمكان: ما وجّه إليه أصحابهَ بقوله: **«لا يقلدنَّ أحدكم دينه رجلًا، فإن آمن آمن، وإن كفر كفر، فإن كنتم لابد مقتدين فاقتدوا بالميت، فإن الحيَّ لا يؤمن عليه الفتنة»**[٢].

وها هو ذا يمسك بعاتق الميزان في شأن إرادة الآخرة، وإرادة الدنيا فيعلنها واضحة: **«. . من أراد الدنيا أضرَّ بالآخرة، ومن أراد الآخرة أضرَّ بالدنيا، يا قوم، فأضروا بالفاني للباقي»**[٣].

وفي دعوة إلى التفكُّر النيِّر والبعد عن الغفلة نقرأ هذه الحكم الغاليات: **«. . شر العُذَلة**[٤] **حين يحضر الموت، وشر الندامة ندامة يوم القيامة، وشر الضلالة الضلالة بعد الهدىٰ، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، وخير ما ألقي في القلب اليقين، والريبُ من الكفر، وشر العمى عمى القلب»**[٥].

وبعد: **ففضائل عبد الله كثيرة جدًا، ولكن أحدًا لا يدعي له العصمة؛ فالعصمـة للأنبيـاء، وقد ختمت النبـوة بمحمد عليـه الصلاة والسلام، ورضي الله عن أبي عبد الرحمن في أهل القرب الربانيين، وجزاه عن الأمة**

---

(١) المصدر السابق (١/ ١٣٢)، وانظر: «تهذيب التهذيب» (٧/ ٢٧٦، ٢٧٧).
(٢) «الحلية» (١/ ١٣٦).
(٣) المصدر السابق (١/ ١٣٩)، «السير» (١/ ٤٩٦)
(٤) العُذَلة: كثير العَذْل، وهو اللَّوْم.
(٥) «الحلية»: (١/ ١٣٨).

خير الجزاء، وأسكنه الفردوس الأعلى في جنة عدن التي وعد المتقون، والتي بشره بها المصطفى عليه الصلاة والسلام، وأناله الرضوان الأكبر وهو الكريم المنان الذي اختاره وإخوانه ليكونوا حملة هذا الدين عن رسول الله ﷺ إلى العالمين.



مع التابعي القدوة الربيع بن خُثَيْم

ـ ١ ـ

هذه كلمات نصطحب من خلالها شذرات مضيئة تحكي بعضًا من المآثر التي كانت تشرق بها حياة عَلم من أعلام الربانيين، فيها الكثير من العبر والدروس التي تحمل ما تحمل من الوضاءة في العمل بالعلم، وتقوى الله في السر والعلن، والنصح للأمة، والقدوة التي تتمثل بالسلوك المنضبط بهدي النبوة، والتي تحمل أهلية العطاء الفذِّ في حياة أهل الإسلام جيلاً بعد جيل! .

إنه التابعي الجليل، والإمام العَلم المربي، خير أصحاب عبد الله بن مسعود وتلامذته، أبو يزيد الربيع بن خُثيم بن عائذٍ، المتوفى ـ يرحمه الله ـ قبل سنة خمس وستين.

أدرك الربيعُ زمان النبي ﷺ، وأرسل عنه، وهو من أهل الرواية ـ وإن كان قليلَها؛ فقد روى عن عدد من الصحابة عليهم الرحمة والرضوان، في مقدَّمتهم شيخه عبد الله بن مسعود، وأبو أيوب الأنصاري، وعمرو بن ميمون وآخرون.

وحدّث عنه الشعبي، وإبراهيم النخعي، ومنذر الثوري، وهبيرة بن خزيمة وغيرهم.

وقد أجمعوا على أنه من أولي الشأن المرموقين، وعقلاء الرجال المخبتين، لم يحِد قِيد أَنملة عن طريق الصدق مع الله، وأن تكون كل خطوة

يخطوها في رحلة الكدح إلى مولاه جل وعلا، موزونة بميزان العلم بالكتاب والسنة، ثم عملٍ من أخذ عنهم من الصحابة، الذين كانوا خير قدوة على صعيد التأسي بالنبي عليه الصلاة والسلام.

وحسبك أن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وهو من أعدل شهودنا على أحقية الرسالة الخاتمة، إيمانًا وعلمًا وفضلاً وحرصًا على كل ما فيه خير الأمة وتمكينها في الأرض. حسبك أن هذا الإمام الرباني القدوة كان يضع الربيع ـ وهو من عيون أصحابه والآخذين عنه ـ موضع التكريم ورفعة الشأن، وقد بلغ ذلك مبلغ أن يبشره بأن رسول الله ﷺ لو رآه لأحبه، وكثيرًا ما كان يذكر المخبتين إذا لقيه.

روى ابن سعد، وأبو نُعيم، وغيرهما عن عبد الله بن الربيع بن خُثيم عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود قال: كان الربيع بن خثيم إذا دخل على عبد الله لم يكن عليه إذن لأحد ـ وفي رواية: لم يكن له إذن لأحد ـ حتى يفرغ كل واحد من صاحبه. قال: وقال له عبد الله: «**يا أبا يزيد، لو رآك رسول الله ﷺ لأحبَّك**.

وفي رواية: **لأحبَّك ولأوسع لك إلى جنبه ـ وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين**»[1].

والمخبتون ـ كما هو معلوم ـ الخاشعون لربهم المتواضعون لأمره ونهيه، المتذللون بين يديه إليه. وقد أثنى الله جلَّ شأنه عليهم في مواطن

---

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٢، ١٨٣)، «الحلية» (٢/ ١٠٦)، «صفة الصفوة» (٢/ ٣١)، «السير» (٤/ ٢٥٨).

عدة من كتابه الكريم، وبشرهم بحسن العاقبة والرضى عنهم يوم الدين.

وتوكيدًا لما كان يراه ابن مسعود من تصنيف الربيع في زمرة المخبتين وأنه كلما رآه ذكرهم، كان - كما روى ابن سعد في «الطبقات» - إذا رآه قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾[١].

وهذا يذكِّر بما روي عن العالم العامل الزاهد العابد المتوفى قبل المائة طلق بن حبيب العنزي أنه كان يقول في دعائه: «**اللهم إني أسألك علم الخائفين منك، وخوف العالمين بك، ويقين المتوكلين عليك، وتوكُّل الموقنين بك، وإنابة المخبتين إليك، وإخبات المنيبين إليك، وشكر الصابرين لك، وصبر الشاكرين لك، ولَحاقًا بالأحياء المرزوقين عندك - أو - ونجاة الأحياء المرزوقين عندك**»[٢].

ومن إنصاف الربيع الذي يبدو فيه معلمًا مربيًا، ما روى أبو نُعيم بسنده عن ياسين الزيات قال: جاء ابن الكوَّاء إلى الربيع بن خُثيم فقال: «**دلني على من هو خير منك! قال: نعم، من كان منطقه ذكرًا، وصمته تفكرًا، ومسيره تدبرًا، فهو خير مني**»[٣].

ومما يؤكد صدقه في مقولته هذه ما حدَّث منصور عن إبراهيم النَّخَعي أنه قال: قال فلان: ما أرى الربيع بن خثيم تكلَّم بكلام منذ عشرين سنة إلا بكلمة تَصْعَد. يعني قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ

---

(١) «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٣)، وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾.

(٢) «الحلية» (٣/ ٦٣، ٦٤)، «السير» (٤/ ٦٠٢، ٦٠٣).

(٣) «الحلية» (٢/ ١٠٦).

﴿يَرْفَعُهُۥ﴾[١]، رواه ابن سعد في الطبقات، وأورده الذهبي في «السير»[٢].

وروى ابن سعد عن إبراهيم التيميِّ قال: أخبرني من صحب الربيع بن خثيم عشرين عامًا ما سمع منه كلمة تُعاب[٣].

وهذا الأعمش يحدث عن شقيق أنه قال: أتينا الربيع بن خثيم في نفر من أصحاب عبد الله نعوده، أو قال: نزوره، فمررنا برجل فقال: أين تريدون؟ فقلنا: نريد الربيع، فقال: **إنكم لتأتون رجلاً إن حدثكم لم يكذبكم، وإن وعدكم لم يخلفكم، وإن ائتمنتموه لم يخنكم**»[٤].

ويا نعم ما كان عليه أبو يزيد من مخافة الله سبحانه وتعالى، والفَرَق من أن يكون من أصحاب الجحيم، وهذا دليل استنارة القلب بمعرفة الله جل جلاله؛ فعلى قدر المعرفة تكون الخشية!!.

روى أبو نُعيم بسنده عن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: (خرجنا مع عبد الله بن مسعود ومعنا الربيع بن خُثيم، فمررنا على حداد، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار، فنظر الربيع إليها. فتمايل ليسقط، فمضى عبد الله حتى أتينا على أتون على شاطئ الفرات، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه، قرأ هذه الآية: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٠.
(٢) «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٥)، «السير» (٤/ ٢٥٦).
(٣) «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٥).
(٤) المصدر السابق (٦/ ١٨٥، ١٨٦).

وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾[(١)] .

قال : فصَعِق الربيع فاحتملناه فجئنا به إلى أهله ، قال : ثم رابطه عبد الله إلى المغرب فلم يفق ، ثم إنه أفاق ، فرجع عبد الله إلى أهله)[(٢)] . ورواه ابن أبي حاتم بلفظ : «فحملوه إلى بيته ، ورابطه عبد الله إلى الظهر ، فلم يُفق رضي الله عنه»[(٣)] .

سبحان من أودع في كل قلب ما شغله ، كيف لا يقع من الربيع ما وقع ، وهو على حال قد شفَّه فيها الحزن ، واستأثرت بقلبه مخافة أن يكون ممن تسعَّر بهم الجحيم ! ! لما أنه يرى بأدبه مع الله ، وما أُكرم به من عبودية المخبتين ، أنه شديد التقصير في جنب الله ، وهذه الخليقة المباركة من أكرم ما يتصف به العالم العامل الرباني .

فعندما رأى الربيع نار الدنيا وسمع ما سمع من الآيات التي تتحدث عن نار الآخرة ، وَجِل قلبه هذا الوجل الشديد ، وكان من شأنه ما كان ، ورضي الله عن أبي عبد الرحمن ابن مسعود ، ما كان أعظمه وهو يواجه ما حصل لتلميذه الأثير عنده المقرَّب إليه ؛ فكان الدرسُ البليغ مضاعفًا من عبد الله ومن صاحبه الربيع بن خثيم ، وهاك بعض ما جاء من الآثار بشأن تلك الآيات التي تلاها ابن مسعود والتي عملت عملها في قلب الربيع وعقله .

أخرج ابن أبي حاتم من رواية مجاهد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ

(١) سورة الفرقان ، الآيات : ١٢ ـ ١٤ .
(٢) انظر : «الحلية» (٢/ ١١٠) .
(٣) انظر : «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٢٥٤١) .

قال : «**إن العبد ليُجرُّ إلى النار، فتشهقُ إليه شهقة البغلة إلى الشعير، ثم تزفِر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف**»[١] .

وروى الإمام الطبري بسنده عن عبيد بن عمير في قوله : ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ قال : «**إن جهنم لتزفِر زفرة لا يبقى ملك ولا نبيٌّ إلا خرَّ ترعُد فرائصه، حتى إن إبراهيم ليجثو على ركبتيه، فيقول : رب لا أسألك اليوم إلا نفسي**»[٢] .

وأورده الحافظ ابن كثير من رواية عبد الرزاق كما أورده السيوطي وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم وعبد بن حميد وابن المنذر[٣] .

وبعد : فما يغبط عليه تابعينا الرباني الربيع بن خُثيم وأضرابه : ما ظفروا به من الخير بأخذهم عن الصحابة - **عليهم الرضوان** -؛ **حيث اقتران العلم بالعمل والخشية من الله**، وما يلاحظ وقوفهم عند النصوص؛ فإذا ذُكِّروا ذكروا، وإذا تليت عليهم آيات الله وجلت قلوبهم وازدادوا إيمانًا مع إيمانهم حتى كأنهم - وهم في عالم الشهادة - يرون الجنة والنار رأي عين وسبحان الموفق من شاء لما شاء، وهو العليم الحكيم .

* * *

---

(١) المصدر السابق (٦/ ٢٥٤١)، «جامع البيان» (١٨/ ١٤٠)، «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٦٤) .

(٢) «جامع البيان» (١٨/ ١٤٠)، «الدر المنثور» (٥/ ٦٤) .

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٢٥٤)، «الدر المنثور» (٥/ ٦٤) .

مع الربيع بن خثيم

ـ ٢ ـ

ما يلاحظ عند الربانيين المنيبين أولي النهى، من تذكر إيماني واعٍ بالقرآن الكريم، وتفاعل صادق بهدي السنة المطهرة، لا يخفى انعكاسه على أعمال القلب والجوارح، وما تشرق به أقوالهم ومواقفهم من جفوة لكل ما هو من الغفلة وصنيع الغافلين بسبيل.

وذلكم ما رأينا عند الربيع بن خثيم ـ وهو الرجل الذي كانت تربطه بالكتاب والسنة علمًا وتعليمًا، وتذكُّرًا وتذكيرًا، صلة تحكي عظيم انتفاعه بصحبة عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وأخذه عنه. . ما رأينا من حرصه الحرص كله على أن يكون وقافًا بعقله وقلبه وشتى تصرفاته عند الذي يمليه إيمانه بالغيب، ذلك الإيمان الذي لا يكاد يفترق عن التصديق الجازم بعالم الشهادة.

ومما دلَّ على هذه المنقبة عنده ـ يرحمه الله ـ ما أوردنا فيما سبق ذكره من تأثره البالغ برؤية شيء من نار الدنيا أذكره نار الآخرة، واستماعه ـ وهو على هذه الحال ـ لشيخه عبد الله بن مسعود يتلو قول الله تعالى في سورة الفرقان: ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ . . . ﴾ الآيات؛ حيث كان وقع الآيات في نفسه بالغ التأثير هزَّ كيانه، وزاد من روعه حتى أفضى ذلك به إلى النقلة من حال الصحو إلى غيرها.

وحين نذكر ـ ولو بعضًا ـ مما جاء في الآثار الصحيحة التي تزيد المؤمن علمًا بما يقع من مشاهد الهول يوم الفزع الأكبر ـ ولها حكم الأحاديث المرفوعة إلى النبي ﷺ ـ نجد أن ما وقع لأبي يزيد يتسق تمام الاتساق مع ما كان عليه من صفاء القلب، وتزكية النفس، ورقة المشاعر عند تلقي آيات الوعد والوعيد؛ حتى كأنه ينتقل عند سماع الكلام الإلهي عن جهنم من عالم إلى عالم؛ إنه يأسى على نفسه أن يكون ممن تسعَّر بهم النار، وحُقَّ له أن يأسى وتشتد خشيته، وهو على ما هو عليه من معرفة الربانيين بربهم، وهذا لا يتنافى مع ما ينبغي من حسن الظن بالله تعالى.

فحسن الظن به سبحانه، لا يعني عند العالم الرباني شيئًا من طلب العافية، قعودًا عن الاجتهاد في الطاعة، والأمن من مكر الله، فهذا مع دعوى حسن الظن بالله من سوء الأدب معه جل شأنه، وإن كان التغمد برحمة الله لعبده لا غنى عنه للجميع، مجتهدًا كان هذا العبد أو مقصرًا، وإنما تستدر الرحمة بإخلاص الوجهة وصالح العمل. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

وهذا يقودنا إلى رواية مفصلة عند شيخ المفسرين رأيناها مختصرة عند ابن أبي حاتم فيما سلف، تحكي شيئًا من صنيع جهنم في تلكم الساعات العصيبات التي نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العُلا أن يجعلنا فيها من الآمنين الذين لا يخافون بخسًا ولا رهقًا.

قال أبو جعفر: حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي قال: حدثنا عُبيد الله ابن موسى قال: أخبرنا إسرائيل عن يحيى عن مجاهد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: **إن الرجل ليُجرُّ إلى النار فتنزوي وتنقبض بعضها إلى**

بعض، فيقول لها الرحمن: مالك؟ قالت: إنه يستجير مني، فيقول: أرسلوا عبدي. وإن الرجل ليجرُّ إلى النار فيقول: يا رب، ما كان هذا الظن بك؟ فيقول: فما كان ظنك؟ فيقول: أن تسعني رحمتك، فيقول: أرسلوا عبدي. وإن الرجل ليجرُّ إلى النار فتشهق شهوق البغلة إلى الشعير، وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف».

قال الحافظ ابن كثير: وهذا إسناد صحيح[1].

ولقد يكون من نافلة القول التذكير بأن هؤلاء المقربين الأصفياء يغبطون ويغبطون على ما آتاهم الله من التقوى، وما كانوا عليه من مخالطة لآي الكتاب الكريم بقلوبهم وعقولهم، مخالطة تجعلهم إذا تلوها ـ وبخاصة وهم يتهجدون خاشعين ـ يبكون ويزدادون إنابة وتلذذًا بطاعة الله، ويكون الواحد منهم نعم المربي بهذه القدوة الصالحة، التي تشرق بها القلوب الموصولة بالله، ويسمو بها أخذُ الكتاب بقوةٍ برهانُها نقاءُ تلك القلوب من أوضار المآثم، والذميم من الأخلاق، واستقامةُ أعمال الجوارح على الهدي المحمدي.

روى أبو نعيم بسنده عند عبد الرحمن بن عجلان قال: بت عند الربيع ابن خثيم ذات ليلة، فقام يصلي، فمر بهذه الآية: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ . . . ﴾ الآية فمكث ليلته حتى أصبح ما جاوز هذه الآية إلى غيرها

---

(١) «جامع البيان» (١٨/ ١٤٠) مع «تفسير النيسابوري»، وانظر: «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٢٥٤١).

ببكاء شديد[١] .

والآية بتمامها هي قول الله تبارك وتعالى في سورة الجاثية : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[٢] .

هكذا لم يجاوز الربيع هذه الآية إلى غيرها ، حتى ذرفت عيناه الدموع الغزار ، لما أنها أثارت في نفسه ـ وهو قائم يتهجَّد ويناجي مولاه بكلامه ـ شديد الخوف من أن يكون من المفرطين في جنب الله ، فيلقاه ـ جل شأنه ـ يوم يلقاه ، حيث الهول الهائل والشدة الشادة ، وهو على حال من الجنوح المردي تلقيه في عداد أولئك الذين عناهم جل جلاله بقوله : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ الآية .

أجل بكى هذا الرجل الرباني شديد البكاء حزنًا أن يكون مصيره هذا المصير المخزي ؛ حيث يندم ولات ساعة مندم ، وغيرُ مجديه شيئًا أن يقول مُعْولاً : يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله ، وإن كنت لمن القاعدين عن سلوك الطريق التي لا يغادرها الذين آمنوا وعملوا الصالحات[٣] ، لما أنها الطريق المأمونة التي تنتهي بهم إلى أن يكونوا من أهل النعيم المقيم في دار القرار ، فرحين بفضل الله ورضوانه الأكبر الذي هو غاية الغايات .

---

(١) «الحلية» (٢/ ١١٢).

(٢) سورة الجاثية، الآية : ٢١ .

(٣) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ [الزمر : ٥٦].

ولا تعجب أن يكون مما زاد أبا يزيد خوفًا على خوف أن يجد نفسه في تلك الساعات التي تتزلزل فيها الأقدام وقد باء بالسقوط الذي دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾.

ألا إن هذا الذي صدر عن الربيع ـ وهو لون من ألوان العطاء الإلهي الكريم ـ يدعو لمزيد من القناعة بما كان عليه ـ يرحمه الله ـ من الصلة القلبية بمولاه، وما أوتي من أهلية التذكر بآيات الله، والانفعال الصادق بما تحمل من الوعد والوعيد.

ويا بشراه بما كان يجد من لذة التجافي عن المضجع، وصلاة الليل، ومن حلاوة التغني بالقرآن، ومناجاة رب العالمين، وما يغمره من سعادة الأنس بالله والناسُ نيام، حتى إذا بلغ منه الأمر مبلغه، وَجَفَ قلبُه، وجادت عيناه بالدمع الغزير، واستسلم رضيَّ النفس حاضر القلب لترديد الآية باكيًا شديد البكاء حتى طلوع الفجر!!.

ومن يدري؟! لعل لهذا البكاء ـ وهو بكاء من خشية الله أولاً، إشفاقًا من أن يكون في عداد من أنذرتهم الآية ووبختهم بقوله تعالى: ﴿ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾ ـ لعل له باعثًا آخر هو الفرح بفضل الله وبرحمته أنه وفقه للإنابة إليه، ومناجاته بكلامه الذي يعلو ولا يُعلى عليه.

وبعد: فما يكون لنا أن نغفل عما بشر به الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام أولئك الخاشعين ذوي القلوب الموصولة بالله البكائين من خشيته: أنهم لا يلجون النار حتى يعود اللبن في الضرع، وأنى للَّبن أن يعود في الضرع بعد أن خرج منه! ذلكم ما روي أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن

رسول الله ﷺ قال: «**لا يلج النارَ رجلٌ بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم**» أخرجه أحمد والترمذي والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح[(١)].

ولعل من الخير التذكير بأن قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ . . .﴾ الآية كانت بمعانيها ودلالاتها عاملاً مهمًا في إثارة كوامن الإيمان عند الكثيرين وفي مقدمتهم بعض الصحابة عليهم الرضوان؛ من ذلك ما روى الطبراني من حديث شعبة عن عمرو بن مرة، عن أبي الضحى عن مسروق أن تميمًا الداريّ ـ رضي الله عنه ـ قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ . .﴾[(٢)].

وجاء في «الإصابة» للحافظ ابن حجر: (. . وكان ـ أي تميم رضي الله عنه ـ كثير التهجد؛ قام ليلة بآية حتى أصبح وهي: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ . . .﴾ الآية، رواه البغوي في الجعديات بإسناد صحيح إلى مسروق. قال: قال لي رجل من أهل مكة: هذا مقام أخيك، فذكَره)[(٣)].

هذا: والملاحظ أن بعض المحققين من أهل التفسير عندما يعرضون لتفسير هذه الآية يستشهدون بما جاء فيها من استنكار لحسبان الذين

---

(١) انظر: «المسند» (٢/ ٥٠٥)، (٤/ ١٢٥)، «سنن الترمذي» ـ جامع الترمذي ـ (٤/ ١٤٧) رقم ١٦٣٣.

(٢) «المعجم الكبير» للطبراني (٢/ ٥٠).

(٣) انظر: «الإصابة» لابن حجر (٢/ ١٨٤) رقم ٨٣٧).

اجترحوا السيئات أن يجعلهم الله كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم، أي أن يسوي بينهم في الدنيا والآخرة، يستشهدون بما ذكر ابن إسحاق أنهم وجدوا حجرًا في أساس الكعبة حين نقضوها ليجددوها، مكتوبٌ عليه حِكم ومواعظ، فمن ذلك: تعملون السيئات وترجون الحسنات؟ أجل كما يُجنى من الشوك العنب[١] .

أكرم الله مثوى ربانينا القدوة ابن خثيم، ووفق شبابنا وشاباتنا لحسن الانتفاع بما كان عليه من اليقظة الإيمانية ورقة القلب، والتأسي بفهمه للقرآن والعمل به، وما دأب عليه من تهذيب نفسه وحملها على الجادة في العمل بالطاعات والإكثار من القربات، والله ولي التوفيق.

❊ ❊ ❊

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ١٩٦)، وانظر: «تفسير القرآن العظيم» (٥/ ١٩٩٦)، (٧/ ٣١٧٩).

مع الربيع بن خثيم

ـ ٣ ـ

كم هي كثيرة منافذنا إلى المعالم الخيِّرة في سلوك الإمام القدوة، العابد، ربانيِّنا أبي يزيد الربيع بن خثيم الثوريِّ الكوفيِّ؛ فلا نكاد نقف على مأثرة من مآثره، حتى تسلمنا إلى أخرى ترتدُّ إلى المنهج السويِّ الذي ارتضاه لنفسه علمًا وعبادة، وحرصًا على جلب الخير للآخرين في دينهم ودنياهم، ما كان من ذلك بالكلمة والوصية، وما كان بالعمل والقدوة، وهذا من أعظم مكارم الربانيين.

وما وقفنا عليه من قبل في عمله بالعلم وعبادته المنضبطة بإطار الشريعة النَّيِّر الخيِّر، ومقدار استجابته لهدي الكتاب العزيز، وموقفه من الكلمة الهادية موقف التذكُّر والاعتبار؛ كل أولئك يقودنا إلى ما كان من تواضعه وأدبه مع الله تعالى أدبًا يحمله دائمًا على الاعتراف بالتقصير في شكر المنعم سبحانه، والتهاون في أداء حقه في الطاعة والعبادة على الوجه الذي ينبغي.

قال ابن سعد في «الطبقات»: أخبرنا الفضل بن دكين ومحمد بن عبد الله الأسديُّ قالا: حدثنا سفيان عن أبيه عن ربيع بن خثيم أنه كان إذا قيل له: **كيف أصبحت؟ قال: أصبحنا ضعفاء مذنبين نأكل أرزاقنا وننتظر آجالنا**[١]. وهو عند أبي نعيم في «الحلية»[٢]، والذهبي في «السير»[٣].

---

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٥).
(٢) «الحلية» (٢/ ١٠٩).
(٣) «السير» (٤/ ٢٥٩).

وحدَّث نُسير بن ذُعلوق قال: كان الربيع بن خثيم يبكي حتى تبتل لحيته من دموعه، ويقول: أدركنا قومًا كنا في جنوبهم لصوصًا. رواه ابن سعد[1].

وانظر إلى عظيم أخذه بالسنة علمًا وعملاً، وما أثمر له ذلك من الخير في نفسه، وفيمن يأخذون عنه بالتَعلُّم والتزكية والقدوة.

قال أبو حيان يحيى بن سعيد بن حيان التميميُّ: حدثني أبي قال: كان الربيع بعدما سقط شقه بالفالج يُهادى بين رجلين إلى مسجد قومه، وكان أصحاب عبد الله يقولون: **يا أبا يزيد، لقد رخَّص الله لك لو صليت في بيتك! فيقول: إنه كما تقولون، ولكني سمعته ينادي حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح** - وفي رواية: إني أسمع حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح - **فمن سمع منكم ينادى حيَّ على الفلاح، فليُجب ولو زحفًا ولو حَبْوًا**، وعند ابن سعد: فإن استطعتم أن تأتوها ولو حبوًا[2].

وهذا من الورع وشدة الاستمساك بالهدي النبوي بمكان!.

وهذه الصورة من صور الورع - وغيرها كثير في سلوك أبي يزيد - تؤكد صواب وصدقَ ما روي عن الشعبي - رحمه الله - أنه كان يقول: **كان الربيع أورع أصحاب عبد الله**[3]؛ فأصحاب ابن مسعود - رضي الله عنه - كلهم

---

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٩).
(٢) «الحلية» (٢/ ١١٣)، وانظر: «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٩، ١٩٠)، «تهذيب التهذيب لابن حجر» (١١/ ٢١٤)، «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٧١).
(٣) «السير» (٤/ ٢٦١)، وانظر: «الحلية» (٢/ ١٠٧).

ورعٌ، ولكن الربيع أشدُّهم ورعًا، ومن أجل هذا: كان يجد اللذة في أخذ النفس بالحزم في طاعة الله! ولا تعجب؛ فالصدق مع الله تعالى ـ وهو الذي لا يضيع عنده مثقال ذرة ـ يصنع في نفس المؤمن، وتوجيه طاقاته وتصوراته، ما لا يكون في الحسبان عند الكثيرين.

والاعتبار بما حصل للماضين بتفكير لا ينبو عما تقتضيه السنن الإلهية: يعين ـ بحول الله وقوته ـ على الكثير من الرضى عن الله، والانتفاع بالمصيبة والابتلاء؛ حيث تتحوَّل المحنة إلى منحة. فترى هناك علو الهمة وصدق العزيمة على مدارج القرب من الله، والصبر على مسؤولية التحويل!.

روى أبو نُعيم بسنده عن علقمة بن مرثد قال: **انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين. فأما الربيع بن خُثيم، فقيل له حين أصابه الفالج: لو تداويت؟ فقال: لقد علمت أن الدواء حق، ولكن ذكرت عادًا وثمود وأصحاب الرس، وقرونًا بين ذلك كثيرًا، وذكرت حرصهم على الدنيا وما كانوا فيها، وقال: كانت فيهم الأوجاع، وكانت لهم الأطباء، فلا المداوي بقي، ولا المداوى**[1].

وفي رواية أخرى عند ابن سعد قال الحسن: قيل للربيع بن خُثيم ـ وقد أصابه الفالج ـ: لو تداويت! فقال: قد مضت عاد وثمود وأصحاب الرس، وقرون بين ذلك كثير، كان فيهم الواصف والموصوف له، فما بقي

---

(١) «الحلية» (٢/ ١٠٦، ١٠٧)، وانظر: «السير» (٤/ ٢٦٠)، والإشارة بذكر عاد وثمود. . . إلى الآية ٣٨ من سورة الفرقان.

الواصف ولا الموصوف له إلا قد فني[١] .

وصدقُ النية فيما يأتي المؤمن أو يذرُ، وإرادة وجه الله فيما يعمل من الصالحات أمر على غاية الأهمية عند الربيع ؛ لأن الأعمال بالنيات، وكل ما لا يراد به وجه الله عاقبته أن يكون هباءً منثورًا .

حدث الربيع بن منذر الثوري عن أبيه قال: قال الربيع بن خُثيم: «**كل ما لا يراد به وجه الله يضمحل**[٢]» .

إنه ـ يرحمه الله ـ يرتفع بالمسلم ـ ذكرًا كان أو أنثى ـ إلى أن يكون على مستوى أخذ الحقيقة التي أعلنها قول النبي ﷺ: «**إنما الأعمال بالنية، وإنما لكل امرىء ما نوى . .**» بقوةٍ، وتقديمها بين يدي الأقوال والأفعال، والتخلي عن ذلك معناه اضمحلال المطلوب، وللتربية الإيمانية مكان الصدارة في تحقيق هذا اللون من السلوك! .

والملاحظ أن أبا يزيد ـ أعلى الله مقامه في الآخرين ـ كان بربانيته يستشعر مسؤولية العمل بالعلم، وأداء الأمانة على صعيد التعليم والمناصحة، وأن يحب لإخوانه ما يحب لنفسه من فقه للكتاب والسنة ومن تقوى الله عز وجل، استقامةً على الطريقة، ووفاءً بعهد الله وميثاقه، وفاءً قوامه اتباع الأوامر واجتناب المنهيات، ومراقبةٌ له ـ سبحانه ـ في السر والعلانية، واتباعُ السيئة الحسنة متابًا إلى الله الغفور الرحيم، وورعٌ يباعد بين المؤمن والمؤمنة وبين الشبهات بلْهَ الحرام .

---

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٩٢).

(٢) المصدر السابق (٦/ ١٨٦)، وانظر: «السير» (٤/ ٢٥٩).

كل هذا مع إخلاص النية رجاء النجاة يوم تبدَّل الأرضُ غير الأرض والسموات، وبرزوا لله الواحد القهار.

يروي سعيد بن مسروق عن منذر الثوري قال: كان الربيع إذا أتاه الرجل يسأله قال: **«اتق الله فيما علمت، وما استؤثر به عليك، فكِلْه إلى عالمه؛ لأَنا في العمد أخوفُ مني عليكم في الخطأ، وما خيِّرُكم اليوم بخيِّر، ولكنه خير من آخر شرٍّ منه، وما تتبعون الخير حق اتباعه، وما تفرُّون من الشر حق فراره، ولا كلَّ ما أنزل الله على محمد ﷺ أدركتم، ولا كلَّ ما تقرؤون تدرون ما هو.**

ثم يقول: السرائرَ السرائرَ اللاتي يَخْفَيْن عن الناس وهن لله بَوَاد ـ أي ظاهرات ـ التمسوا دواءهنَّ، وما دواؤهن إلا أن تتوب ثم لا تعود»[1].

وإنها لدعوة خيِّرة إلى إصلاح عمل الجوارح، وعمل القلوب. وغير خافٍ ـ كما نرى ـ أن الربيع ـ وقد كان كثير الأخذ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وهو المقدَّمُ عنده في أصحابه ـ لا يغادر هدي الكتاب والسنة في تعليم الآخرين، وتزكية أنفسهم، وما كان من مواقفه ووصاياه، حتى إنك لتجده ـ على إقلاله من رواية الحديث ـ لا يبرح دراية الحديث، ومراميه وآفاقه، سواء كان ذلك في خاصة نفسه، أو في التدريس وتربية من ولاه الله أمرهم من إخوانه والآخذين عنه رواية وعملاً. وهو في ذلك قدوة

---

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٥)، «الحلية» (٢/ ١٠٨، ١٠٩)، «السير» (٤/ ٢٥٨، ٢٥٩).

مباركة، وذو منهج سديد.

حدّث أبو حيان يحيى بن سعيد التميميُّ عن أبيه عن الربيع أنه كان يقول في وصاياه: «**أقلُّوا الكلام إلا من تسع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتلاوة القرآن، ومسألة الخير، والاستعاذة من الشر**»[١].

أرأيت إلى هذا التذكير النافع، والوصية الجامعة التي تنتسب أول ما تنتسب إلى إرث النبوة، وما هو منه بسبب، كيف جمعت أطراف الخير للفرد والجماعة، في تنمية للصلة بالله عز وجل، ودوام ذكره وشكره، والحرص على سلامة المجتمع المسلم بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن يكون أبناؤه من أهل القرآن، سائلين الله الخير مستعيذين به من الشر، على ما تحمل هذه الدعوة من معانٍ لها أبعادها في حياة المسلمين، وسلامة المنهج الذي يسلكه المربون.

* * *

(١) «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٥)، وانظر: «الحلية» (٢/ ١٠٩).

مع الربيع بن خثيم

ـ ٤ ـ

ما وقفنا عليه فيما سبق من القول من وصايا الربيع بن خُثيم: مؤذنٌ بعلمه ومناصحته، وغرفِه من النبع السلسبيل في الكتاب والسنة، وفقهه النيِّر لما أخذ عن شيخه ومعلِّمه الربَّاني العَلَم عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، ناهيك عن حسن تأسيه في الخطاب، وأسلوبه النديِّ المتَّزن في المعالجة.

وكان آخر ما رأينا من ذلك ما روى ابن سعد في «الطبقات» من قوله خطابًا لإخوانه والآخذين عنه: «**أقلوا الكلام إلا من تسع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتلاوةِ القرآن، ومسألة الخير، والاستعاذة من الشر**»[(١)].

ويبدو أن هذه الوصية الجامعة قد تكررت في مجالسه ـ يرحمه الله ـ؛ فقد أوردها أبو نعيم في الحلية بنحوها، ولكن من رواية ابن سيرين بلفظ: «**أقلوا الكلام إلا بتسع: تسبيح، وتكبيرٍ، وتهليل، وسؤالِك الخير، وتعوذِك من الشر، وأمرِك بالمعروف، ونهيك عن المنكر، وقراءة القرآن**» ثم قال أبو نعيم: رواه منذر الثوري عن الربيع مثله[(٢)].

وفي أفق من آفاق جهده ـ رحمه الله ـ في تكوين القناعة الإيمانية بقبضة

---

(١) «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٥).

(٢) «الحلية» (٢/ ١٠٩).

من الثوابت الجوهرية ـ التي تسهم في صناعة السلوك عند المؤمن: نقع على هذه الكلمات الجوامع النافعات التي تنعكس دلالاتها على البناء النفسي والفكري للمسلم ـ ذكرًا كان أو أنثى ـ أن لو عمل بها.

وهذا ما يحرص عليه الرجل الرباني وهو يعلم ويربي؛ فلابد أن يكون البناء صحيح النسبة إلى صفاء القلب، واستنارة العقل، والقدرة على الانتفاع بما يكون بين يدي هذا المسلم من نصوص الهدى، في حرص على قول الخير وفعله والدوام على صالح العلم والتزود لرحلة الآخرة، مضموماً إلى ذلك العنايةُ بإصلاح السرائر التي لا تخفى من الله السميع العليم، وإن كانت تخفى من الناس، والبعد عن التكلف في الفهم، وعن التقليد الأعمى، وبخاصة لأولئك الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون، الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون.

قال ابن سعد في «الطبقات»: أخبرنا محمد بن الفضيل عن سالم عن منذر الثوري عن ربيع بن خثيم أنه كان يقول: **يا عبد الله، قل خيرًا أو اعمل خيرًا، ودم على صالحة، لا يطولنَّ عليك الأمد، ولا يقسونَّ قلبك، ولا تكوننَّ من الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون.**

يا عبد الله، إن كنت عملت خيرًا، فأتْبعْ خيرًا خيرًا؛ فإنه سيأتي عليك يوم تودُّ لو ازددت، وإن كان مضى منك الهمُّ بسيئة لا محالة، فاعمل خيرًا؛ فإن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾[1].

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٤، والآية بتمامها: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾.

يا عبد الله، ما علَّمك الله في كتابه من علم فاحمد الله عليه، وما استؤثر عليك فيه من علم فكِلْهُ إلى عالِمه، ولا تكلَّف، فإنه يقول: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾[1].

يا عبد الله، اعلم أن العبد إذا طالت غيبته، وحانت جيئته. . . انتظره أهله كأن قد جاء، فأكثِروا ذكر هذا الموت الذي لم تذوقوا قبله مثلَه، والسرائرَ السرائرَ اللائي يَخْفين من الناس وهنَّ لله بَوَاد»[2].

رحم الله أبا يزيد: فقد كان من أهل الخير علمًا وعملاً، وعطاءً سخيًا على صعيد التفقيه في الدين، والإرشاد إلى ما فيه مرضاة رب العالمين، والنجاة يوم الوعد الحق، والنبأ اليقين.

من هنا ـ والله أعلم ـ كان إكثاره من الإيصاء بقول الخير، وفعل الخير، والترغيب الشديد فيهما ـ كما نرى ـ فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

وحدّث سفيان الثوريُّ عن أبي قيس السهمي قال: جلست إلى الربيع بن خثيم فقال: «**قولوا خيرًا، وافعلوا خيرًا تجزوا خيرًا**»[3].

أما منذر الثوري: فيروى عنه أيضًا أنه كان يقول: «**قولوا خيرًا، وافعلوا خيرًا، ودوموا على صالح ذلك، واستكثروا من الخير، واجتنبوا الشر لا تقسوَ قلوبكم، ولا يطول عليكم الأمد**».

---

(١) سورة ص، الآيات: ٨٦ ـ ٨٨.
(٢) انظر: «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٨٣، ١٨٤).
(٣) المصدر السابق (٦/ ١٨٥).

وجاء في بعض الروايات: «**ما يصنع أحدكم بالكلام بعد تسع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتلاوة القرآن، وسؤال الله الخير، والتعوذ من الشر**».

وقد مضى مثل ذلك مبدوء بقوله: «يا عبد الله» دليل تكرر هذا التوجيه والحرص عليه ـ كما أسلفت ـ.

والتنبيهُ على ما يخشى من طول الأمد وقسوة القلب إذا حصل التقاصر عن قول الخير وفعله، يشير إلى ما جاء في سورة الحديد من قوله تعالى محذرًا من الوقوع فيما وقع فيه أهل الكتاب: ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾[1].

كما أن في التحذير من أن يكون المسلم مثل أولئك الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون إشارة إلى قوله تعالى ـ خطابًا للمؤمنين ـ في سورة الأنفال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾[2].

إذ المقصود التنفير الشديد مما وقع فيه هؤلاء المشركون أو المنافقون أو اليهود، أو الجميع من هؤلاء، فإنهم يسمعون بآذانهم من غير اهتمام ولا فهم ولا عمل، فهم كالذي لم يسمع أصلاً؛ لأنه لم ينتفع بما سمعه[3].

وهذه الوصية من الربيع ذات أهمية بالغة في وجوب تميُّز المسلمين

---

(١) سورة الحديد: الآية: ١٦.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢١.

(٣) انظر: «فتح القدير» للشوكاني (٢/ ٣١٦).

بتلقي القرآن بما يجب من الاستماع الحقيقي الذي يكون بريد الاهتمام والفهم والعمل، وهذا التميز ينعكس على الثقافة والتصور ومنهج الحركة في البناء الحضاري وضوابط السلوك، وبذلك يتحقق للأمة تميّزها الأصيل، ووجودها الذاتي المكين بالرسالة الخاتمة دين الإسلام.

ومن الضرورة بمكان أن نلاحظ أن هذه الآية الكريمة سبقت بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾[1].

ولشدَّ ما كان ـ أجزل الله مثوبته ـ يحرص على أن يكون من ائتمن على تعليمهم وتربيتهم على صلة حقيقية بالقرآن علمًا وتدبرًا، يزينهما استحضار ما يكون في اليوم الآخر من مساءلة الله العباد، عن مدى التطابق بين العلم بأحكام القرآن، والعمل بهذه الأحكام، الأمر الذي يباعد عن سوء التأويل واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ومن كلامه في هذا الباب: **«اتقوا أن يكذِّب اللهُ أحدَكم أن يقول: قال الله في كتابه كذا وكذا، فيقول الله: كذبتَ لم أقله، ويقول: لم يقل الله في كتابه كذا وكذا، فيقول: كذبتَ قد قلتُه»**[2].

وما أجمل ما يكون عليه المؤمن التقي النقي ـ عند الابتلاء ـ من الرضى بقضاء الله، رضىً تظهر آثاره في نفحات الصدق في دعائه وإشراق مناجاته لمولاه.

حدث داود بن أبي هند عن الشعبي ـ رحمه الله ـ قال: دخلنا على

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٠.

(٢) «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٩٠).

الربيع بن خثيم نعوده، قال: فقلنا له: ادع الله لنا فقال: اللهم لك الحمد كلُّه، وبيدك الخير كلُّه، وإليك يرجع الأمر كلُّه، وأنت إله الخلق كلِّه نسألك من الخير كله، ونعوذ بك من الشر كله»[1].

هذا والفقه المستنير للدين، والتكامل في البنية التربوية عند الرجل الرباني يجعلان الأمة لا تفقده في ميدان من ميادين الواجب؛ فهذا أبو يزيد لا يصرفه ما هو فيه عن الجهاد في سبيل الله، فتراه يشارك في الغزو طاعةً لله، ثم يتصدّق بما قُسم له من الغنيمة.

روى ابن سعد في «الطبقات» عن عبد الملك بن سعد عن عبد خير قال: كنت رفيقًا للربيع ين خثيم في غزاة ـ فذكرها ـ قال: فرجع ومعه رقيق ودواب، قال: فمكثت أيامًا أتيته فلم أحسَّ من ذاك الرقيق ولا من تلك الدوابِّ شيئًا، فاستأذنت فلم يجبني أحد، ثم دخلت. قال: فقلت: أين رقيقك ودوابُّك؟ فلم يجبني، فأعدت عليه فقال: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[2].

هكذا يتخطى الربيع أسوار المعوقات الدنيوية، فيضمُّ إلى جهاد النفس، والعمل بالعلم وتعليمه، والدعوة إلى الله: جهاد العدو الخارجي مستشعرًا طاعة الله في ذلك كله، مسارعًا إلى إنفاق ما يناله من الغنيمة في سبيل الله.

وهكذا يعلم الربانيون من حولهم ومن يكون ورائهم بالعمل الخالص، والقدوة النافعة على أساس الفقه في الدين والإخلاص لرب العالمين.

---

(١) المصدر السابق (٦/ ١٩١).

(٢) المصدر السابق (٦/ ١٩١)، وتتمة الآية: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾.

مع الربيع بن خثيم

ـ ٥ ـ

ما نظر المرء في شيء من مكارم المنعم عليهم بصفة الربانية، وما يكونون عليه من بعدٍ عن ظلم أنفسهم، وحرصٍ على هداية الآخرين . . . إلا ازداد يقينًا على يقين بصدق انتمائهم إلى دين الإسلام، والإخلاص في ولائهم لله ولرسوله والمؤمنين.

أقول هذا والحديث موصول بالكلام على بعضٍ من فضائل التابعي الرباني الربيع بن خثيم الكوفي أبي يزيد، وهي فضائل مثقلة بالعبر والدروس؛ لما أن الرباني ـ وهو يقف على اليابسة علمًا وعملاً وجهادًا، وتعليمًا ومناصحة للآخرين ـ يظل سخيَّ العطاء فيما يأخذ وفيما يذر؛ لأنه عطاء لا يقتصر على الكلمة والنصيحة والوصية، ولكنه يتعدى إلى الموقف وصلاحية الاقتداء والتأسي في تخطٍّ لحساب الزمان والمكان!!.

ويبدو أن أبا يزيد ـ رحمه الله ـ كان ـ إلى صلته بالكتاب والسنة، وما ظفر به من الخير في اصطحاب عبد الله بن مسعود والأخذ عنه بعلو همة وصدق عزيمة ـ يؤرقه التفكر في الموت، وفيما يكون بعد الموت، واضعًا نُصب عينيه ما أعطي لهذا الأمر الجلل من عناية في نصوص الهدى من الكتاب الكريم، والسنة القولية والعملية في حياة النبي عليه الصلاة والسلام، وصحابته عليهم الرحمة والرضوان.

روى أبو نُعيم بسنده عن جعفر بن سليمان قال: سمعت مالك بن دينار

يقول: **قالت ابنة الربيع للربيع: يا أبت، مالك لا تنام والناس ينامون؟ فقال: «إن النار لا تدع أباك ينام»**[١].

وفي رواية أنها قالت له: **إني أرى الناس ينامون وأنت لا تنام! قال: يا بنية، إن أباك يخاف البيات»**[٢]، عبَّر عن الموت بالبيات الذي هو الإغارة ليلاً من قبيل المجاز، ولا يخفى ما في أسئلة هذه البنت من الحصافة والرغبة في العلم.

ولقد تكرر هذا من أمه؛ حيث كانت تقول له: يا بني، يا ربيع، ألا تنام؟ فيقول: يا أمه من جنَّ عليه الليل وهو يخاف البيات حُق له ألا ينام.

وحدَّث سفيان الثوري عن أبيه عن أبي يعلى أن أبا يزيد قال: **ما غائب ينتظره المؤمن خير من الموت.**

وغير خافٍ أن هذا الحسَّ الإيماني ـ وقد اقترن بالعمل لما بعد الموت ـ يدل على ما كان عليه الربيع بفضل الله ومنته من المنزلة الرفيعة على هذا الصعيد، حتى إنه بلغ في ذلك مبلغ استقبال الموت بالبشر وكمال حسن الظن بأن اخترام المنون مؤذن بالعطاء، ولذلك دعا أقرب الناس إليه للاستبشار بأن الخير قادم ببلوغ الأجل، روي أنه لما حضرته الوفاة بكت ابنته التي سبقت الإشارة إلى بعض أسئلتها فقال: يا بنية، لم تبكين؟ قولي: يا بشراي أتى أبي الخير[٣].

---

(١) «الحلية» (٢/ ١١٤).

(٢) المصدر السابق (٢/ ١١٤)، «صفة الصفوة» (٣/ ٣٣).

(٣) «الحلية» (٢/ ١١٤)، «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» للجزِّي (٩/ ٧٦).

وسلامة المنهج في هذه القضية وأمثالها كانت تدعوه ـ وهو يحب لإخوانه ما يحب لنفسه ـ إلى المناصحة بالإكثار من ذكر الموت ـ كما سلف ـ لما لذلك من أثر حقيقي في شحذ الهمم للتزوُّد للآخرة بخير زاد، وفي تحقيق الاستقامة على الطريق، ومجانبة الغفلة والغافلين، وكلٍ ما هو من ذلك بسبب.

وقال سفيان الثوري: كان الربيع بن خثيم يقول: «**أريدوا بهذا الخير اللهَ تنالوه، لا بغيره. وأكثروا ذكر هذا الموت الذي لم تذوقوا قبله مثله؛ فإن الغائب إذا طالت غيبته وجبت محبته، وانتظره أهله، وأوشك أن يقدم عليهم**»[١].

وتزكية النفس بالمجاهدة، والأخذ بعزائم الأمور تثمر الفلاح المشار إليه بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[٢]، وبذلك يتحقق للرجل الرباني لون من ألوان الانتصار يرتفع به إلى مستوى أن يكون قادرًا على التقرب إلى الله بترك مراده هو إلى مراد الله سبحانه، والتخلي عن مشتهاه المباح إلى مستحقٍ غيره طلبًا لمرضاته جل وعلا، دون كلفة أو إحساس بارتكاب متن الشطط.

جاء في «صفة الصفوة» للإمام ابن الجوزي من رواية سعيد الحارثي قال: ضرب الربيعَ بنَ خثيم الفالجُ، فطال وجعه، فاشتهى لحم دجاج، فكفَّ نفسه أربعين يومًا، ثم قال لامرأته: اشتهيت لحم دجاج منذ أربعين

---

(١) المصدر السابق (٢/ ١١٢).

(٢) سورة الشمس، الآيتان: ٩، ١٠.

يومًا، فكففت نفسي رجاء أن تكفَّ فأبت، فقالت له امرأته: سبحان الله، وأيُّ شيء هذا حتى تكفَّ نفسك عنه؟ قد أحلَّه الله لك؛ فأرسلت إلى السوق فاشترت له دجاجة بدرهم ودانقين، فذبحتها وشوتها، واختبزت له خبز أصباغ، ثم جاءت بالخوان حتى وضعته بين يديه، فلما ذهب ليأكل قام سائل على الباب، فقال: تصدَّقوا عليَّ بارك الله فيكم! فكف عن الأكل، وقال لامرأته: خذي هذا فلُفِّيه وادفعيه إلى السائل!! فقالت امرأته: سبحانه الله! فقال: افعلي ما آمُرُكِ، قالت: فأنا أصنع ما هو خير وأحبُّ إليه من هذا! قال: وما هو؟ قالت: نعطيه ثمن هذا، وتأكل أنت شهوتك، قال: قد أحسنت! ائتيني بثمنه، قال: فجاءت بثمن الدجاجة والخبز والأصباغ، فقال: ضعيه على هذا، وادفعيه جميعًا إلى السائل[1].

ومن هذا القبيل ما روى منذر الثوري من أن أهل الربيع صنعوا له طعامًا معيَّنًا بناءً على طلبه ـ وكان لا يكاد يشتهي عليهم شيئًا ـ فأرسل إلى جار له مصاب كان به خَبْلٌ ـ وهو نوع من البلَه ـ فجعل يلقِّمه هذا الطعام ولعابه يسيل، فلما خرج من عنده قال أهلُه: تكلفنا وصنعنا ثم أطعمتَ هذا؟! ما يدري هذا ما أكل. فقال الربيع: ولكن الله يعلم.

وما من ريب في أن هذه الواقعة التي تنتظمها ـ كما أسلفنا ـ حقيقة ما كان عليه أبو يزيد من التواضع والأدب مع الله، وأنه كثيرًا ما كان يترك مشتهاه الحلال المباح من أجل الله عز وجل، وقد يكون ذلك بتحويله إلى من يراه أكثر منه استحقاقًا له. . . **هذه الواقعة وأمثالها ذات مغزى يتعلق**

---

(١) «صفة الصفوة» (٣/ ٣٣، ٣٤).

بالرجل المصاب نفسه من حيث إشعارُه ـ وهو المعوَّق ـ بإنسانيته في إطار أخوة الإسلام، والرفعُ من معنوياته، وأن ما هو مصاب به لا يعني أن يكون هملًا لا يحترم، بل هو أخٌ، وإنسان له كرامته، والواجب معاونته على تخطي حالة التعوُّق المبتلى بها ليكون عضوًا نافعًا منتجًا في المجتمع المسلم، الذي يريد له أن يُعافى مما هو فيه، ويظفرَ بحقوقه كاملة كما أراد الإسلام.

ومما هو جدير بالكثير من النظر والاعتبار: ما كان يمسك به أبو يزيد من عاتق الميزان فيما يعقل عن الله ورسوله. كالذي روي عنه أنه كان يقول: ما أحب أن تكون كل مناشدة العبد ربه أن يقول: يا رب، قد قضيتَ على نفسك الرحمة، يارب قد قضيت على نفسك كذا، يستبطىء، وما رأيت أحدًا بعدُ يقول: يارب، قد قضيت ما عليَّ، فاقضِ ـ بلطفك ـ ما عليك[1]، يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[2].

وكثيرًا ما كان يخاطب نفسه فيقول: أي عُبيد تواضع لربك ثم يقول: أي لَحْميه! أي دَميه! كيف تصنعان إذا سُيِّرت الجبال، ودكَّت الأرض دكًا دكًا ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾[3].

وفي توكيد لمنزلة السنة من الدين ووجوب العمل بها يقول أعظم الله

---

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» (٦/ ١٩١)، «الحلية» (٢/ ١١٤).
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.
(٣) سورة الفجر، الآيتان: ٢٢، ٢٣.

أجره: حرفٌ وأيُّما حرف ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1].

وحين قال له قائل ـ لحاجة في نفسه ـ: يا أبا يزيد، قُتل ابن فاطمة عليهما السلام قال: فاسترجع ثم تلا هذه الآية ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[2]، قال: قلت: ما تقول؟ قال: ما أقول؟ إلى الله إيابهم وعلى الله حسابهم[3].

ويقول **حفص بن عمر**: قال الربيع بن خثيم: إذا تكلمت فاذكر سمْع الله إليك، وإذا هممت فاذكر علمه بك، واذا نظرت فاذكر نظره إليك، وإذا تفكرت فاذكر اطلاعه عليك؛ فإنه يقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[4].

فلا عجب بعد هذا أن يقول أبو وائل شقيق بن سلمة ـ وهو من هو علمًا وفضلاً ـ وقد قيل له: أيهما أكبر أنت أم الربيع بن خثيم؟ فقال: **أنا أكبر منه سنًا، وهو أكبر مني عقلاً**[5].

ويقودنا سلوك أبي يزيد المشرق بالفضائل إلى وصية عند موته، وهي وصية ذات نسب أصيل إلى هذا السلوك!.

أخرج صاحب «الطبقات الكبرى» بسنده عن منذر الثوري عن الربيع

---

(١) سورة النساء، الآية: ٨٠، وانظر: «الحلية» (٢/ ١١٥).
(٢) سورة الزمر، الآية: ٤٦.
(٣) «الحلية» (٢/ ١١١)، «صفة الصفوة» (٣/ ٣٢).
(٤) «صفة الصفوة» (٣/ ٣٥)، والآية ٣٦ من سورة الإسراء.
(٥) «تهذيب الكمال» للمزي (٩/ ٧٢).

أنه أوصى عند موته فقال: **(هذا ما أقرَّ به الربيع بن خثيم على نفسه، وأشهد الله عليه، وكفى بالله شهيدًا، وجازيًا لعباده الصالحين ومثيبًا، بأني رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً، وبالفرقان ـ أو قال وبالقرآن ـ إمامًا، ورضيت لنفسي ومن أطاعني أن نعبد الله في العابدين، ونحمده في الحامدين، وأن ننصح لجماعة المسلمين)**.

إنها وصية أكرم بها من وصية، أقرَّ بها أبو يزيد، وهو يستقبل الموت بعد رحلة عامرة بالخير والعطاء، غنية بدروس هي من جواهر النعماء، فرحمه الله من رباني مُعلِّم أمين، وأعلى مقامه في أهل الإنابة المخبتين.

❊ ❊ ❊

مع التابعي العلَم علقمةَ بن قيس النخَعي

- ١ -

اتِّباع الصحابة - رضي الله عنهم - بإحسان، من قِبَلِ من صحبوهم، وأخذوا عنهم من التابعين - رحمهم الله تعالى - صورة مشرقة عن صدق الإيمان، واستنارة القلب والعقل، والحرص على حسن التلقي والعمل بالعلم، كما أنه برهان واضح على سلامة المنهج الذي سلكه الصحابة عليهم الرضوان في تبليغ دين الله، وتعليم أحكامه، وتربية هؤلاء التابعين عليه؛ ناهيك عما كان عندهم من الإخلاص لله في ذلك، والتقرب إليه بما هنالك.

ورجال مدرسة ابن مسعود - رضي الله عنه - وغيرهم كثير، شاهد صدق على هذه الحقيقة التي تركت آثارها الخيِّرة في بناء الإنسان بناءً متكاملاً على الإسلام، وتوجيه طاقاته وجهة البناء الحضاري الأمثل على نور من هداية هذا الإسلام.

وفي رحلة قريبة عجلى على هذه الساحة المضيئة وقَفْنا على بعضٍ من مآثر واحد من مقدَّمي هذه المدرسة وأعيانها، والذي كان يظفر بالكثير من محبة ابن مسعود - رضي الله عنه -، وهو **الإمام الرباني العَلم: الربيع بن خثيم الكوفيُّ أبو يزيد، الذي تبوَّأ مقام الريادة في العلم والعمل والاجتهاد في العبادة، والجهاد في سبيل الله، والنُّصح للمسلمين.**

وإذا كان الخير مجلبةً للخير؛ فليس عجبًا من العجب أن نجتاز إلى اصطحاب جملة من فضائل زخَرت بها حياة ركن شديد من أركان هذه

المدرسة التي تميزت بالعطاء الخيِّر العميم، وهو العالم العامل الرباني الإمام الحافظ المجوِّد المجتهد الكبير فقيه الكوفة وعالمها ومقرئها، ومن خيرة من صحبوا أبا عبد الرحمن، وأخذوا عنه . . . **أبو شبلٍ علقمةُ بن قيس بن عبد الله النّخعيُّ الكوفيُّ**، عمُّ الأسود بن يزيد النخعيِّ، وأخيه عبد الرحمن، وخالُ فقيه العراق إبراهيمَ النَّخعيِّ.

ولد علقمة في حياة رسول الله ﷺ، وبدت مبكِّرة علائم النجابة عليه، وصدَّق الخَبَرَ الخُبْر فيما كان من سلوكه المؤذن بالعطاء؛ إذ رحل مهاجرًا في طلب العلم والجهاد، ونزل الكوفة ولازم ابن مسعود ملازمة قوامها حسن التلقي، وجودة الفهم وأخذُ النفس بنهج المتقين، حتى رأس في العلم والعمل والتزكية والجهاد، وتفقه به العلماء، وتلا عليه القرآن جِلَّةٌ من الأفذاذ، وبعُد صيته في دنيا المسلمين[(١)].

ويستوقفك جمال الأسلوب في تعامل عبد الله مع علقمة لشدة حبه له، مع إخوانه على وجه العموم، وكمال الرضى عن الله عند علقمة، ماروي عن إبراهيم النخعي، قال: كنَّى عبد الله بن مسعود علقمة أبا شبل، وكان علقمة عقيمًا لا يولد له[(٢)].

حدَّث ـ رحمه الله ـ عن عمر، وعثمان، وعلي، وحذيفة، وأبي الدرداء، وأبي مسعود البدري، وعائشة أم المؤمنين، وآخرين.

وحدَّث عنه أبو وائل شقيق بن سلمة، والشعبيُ، وابن أخيه

---

(١) وانظر: «السير» (٤/ ٥٣، ٥٤).

(٢) انظر: «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٥٨)، «السير» (٤/ ٥٥).

عبد الرحمن بن يزيد، وإبراهيم النخعيُّ، وابن سيرين، وأبو إسحاق السَّبيعي وطائفة سواهم[١].

وما كان عليه أبو شبل من العلم والتعليم، والحرص على إيصال النفع للمسلمين في دنياهم وأخراهم، وما ازدان به سلوكه من العمل بالعلم، ودقة التأسي بشيخه عبد الله بن مسعود الذي كان أشبه الناس هديًا وسمتًا بالرسول عليه الصلاة والسلام؛ كل أولئك كان مبعث الحكم عليه بأنه ـ رحمه الله ـ من الربانيين.

قال ابن سعد في «الطبقات»: أخبرنا عبيد الله بن موسى، قال: أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحاق السَّبيعي عن مرة الطيِّب قال: «**كان علقمة من الربانيين**»[٢]، وفي رواية لأبي نُعيم: «**كان علقمة بن قيس ربانيّ هذه الأمة**»[٣].

ومرة الطيب هذا الذي شهد لعلقمة بأنه من الربانيين، يقال له أيضًا: مُرَّة الخير؛ لعلمه، وعبادته، وخيريَّته، ونفاذ بصيرته، وهو مرَّةُ بن شراحيل الهمدانيّ الكوفيّ، مخضرم كبير الشأن، رفيع القدر، وهو ـ كما يرى أهل الخير ـ من أولياء الله، قال سفيان بن عيينة: رأيت مصلَّى مُرَّة الهمْداني مثلَ مبرك البعير، والسبب في ذلك أنه كان كثير التنفُّل، حتى إنه ليصلي في اليوم والليلة العدد الوفير من الركعات.

---

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» (٦/ ٨٦)، «السير»(٤/ ٥٤).
(٢) «الطبقات الكبرى» (٦/ ٩١)، «السير» (٤/ ٥٧).
(٣) «الحلية» (٢/ ٩٨).

وكان من تعليق الإمام الذهبي على ذلك قوله في «السير» : (قلت : **ما كان هذا الولي يكاد يتفرغ لنشر العلم، ولهذا لم تكثر روايته، وهل يراد من العلم إلا ثمرته؟**)[١] .

وشهادة مرَّة الطيب، أو مرة الخير هذه، جاءت هنا عند ابن سعد من رواية أبي إسحاق السبيعي على لسان مرَّة، وقد جاءت عند صاحب «المعرفة والتاريخ» منسوبة إلى أبي إسحاق نفسه؛ إذ جاء هناك قوله: حدثنا أبو بكر الحميديُّ قال: حدثنا سفيان عن أبي إسحاق قال: **كان علقمة من الربانيين**[٢]، والحافظ أبو إسحاق السبيعي مشهور أنه شيخ الكوفة وعالمها ومحدثها، وهو كبير القدر، من العلماء العاملين وجلَّة التابعين، وممن تلا القرآن على علقمة[٣] .

ولا يخفى ـ والأمر كذلك ـ أن هذا التعدد في الرواية مما يؤكد المعنى المراد من تلكم الشهادة، وهو ربانية علقمة أبي شبل يرحمه الله، ولا مانع يمنع من أن يكون أبو إسحاق روى ذلك مرة عن مُرَّةَ الطيب، وقالها هو مرة أخرى، وهما سيّان؛ إذ المؤدَّى واحد .

وفي عود إلى أبي شبل: تجدر الإشارة إلى ما أجمعت عليه الروايات أن علقمة ـ رحمه الله ـ كان من المنعم عليهم بقوة الذاكرة، وحسن الصوت

---

(١) وانظر: «السير» (٤/ ٧٥).
(٢) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٥٦، ٥٥٧).
(٣) انظر: «السير» (٥/ ٢٩٢، ٢٩٣)، (٤/ ٥٤).

بالقرآن، وجوَّد الكتاب الكريم على ابن مسعود، وأخذ عنه العلم[١]، وحسبك قول مرَّة الطيب: «**كان علقمة من الدَّينين الذين يقرؤون القرآن**»[٢].

يقول أبو شبل: ما حفظت وأنا شاب، فكأني أنظر إليه في قرطاس أو رقعة ـ وفي رواية ـ أو ورقة[٣].

وقد بلغ من دقة حفظه للكتاب الكريم، وتفاعله الفطري والعلمي مع تجويد تلاوته كما أخذها عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ **أن يشهد له أبو عبد الرحمن أنه أقْرَأُ تلك الطائفة المختارة التي جوَّدت القرآن عليه**. روى أبو نُعيم بسنده عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد قال: **قال عبد الله** ابن مسعود: «**ما أقرأ شيئًا ولا أعلم شيئًا إلا وعلقمة يقرؤه أو يعلمه**»، **قيل: يا أبا عبد الرحمن، والله ما علقمة بأقرئنا، قال: «بلى، إنه والله لأقرؤكم»**[٤].

وقد انضمَّ إلى كونه ـ رحمه الله ـ أقرأ إخوانه بشهادة شيخه أبي عبد الرحمن: ما أكرمه الله به من حسن الصوت، وأهلية التغني بالقرآن على الوجه الذي ينبغي، الأمر الذي جعل ابن مسعود يستزيده من القراءة إذا قرأ، وهذه من عبد الله شهادة أخرى أكرم بها من شهادة!.

---

(١) «السير» (٤/ ٥٣، ٥٤).
(٢) «الحلية» (٢/ ٩٨).
(٣) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٥٥٤، ٥٥٥)، «الحلية» (٢/ ١٠٠، ١٠١)، «السير» (٤/ ٥٥).
(٤) «الحلية» (٢/ ٩٩).

أخرج أبو نُعيم في «الحلية» من رواية إبراهيم النخعي عن علقمة قال: «**كنت رجلًا قد أعطاني الله حسن الصوت بالقرآن، وكان عبد الله بن مسعود يرسل إليَّ فأقرأ عليه القرآن، قال: فكنت إذا فرغت من قراءتي قال: زدنا من هذا**»[١]، وفي رواية لابن سعد في «الطبقات» وابن عساكر في «التاريخ»: «. . فإذا فرغت من قراءتي قال: زدنا فداك أبي وأمي، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن حسن الصوت زينة القرآن**»، لكن الحديث بهذا اللفظ في سنده مقال، والصحيح قوله ﷺ فيما رواه البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ: «**زينوا القرآن بأصواتكم**» وقد أخرجه أحمد وأصحاب السنن، والدارمي بإسناد صحيح، وصححه ابن حبان، والحاكم، ورواه البيهقي[٢].

وسبحان من عطاؤه هو العطاء! ونعماؤه هي النعماء! **عبد الله** الذي قال الرسول ﷺ في فضل قراءته: «**من أراد أن يقرأ القرآن رطبًا كما أنزل فليقرأ بقراءة ابن أم عبد**» يستزيد تلميذه علقمة إذا فرغ من القراءة، فيقول: زدنا من هذا ـ أو ـ زدنا فداك أبي وأمي!!.

ورضي الله عن الصحابة أجمعين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم اللقاء يوم الدين.

* * *

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٩٩).

(٢) «المسند» (٤/ ٢٨٥)، «سنن أبي داود» ١٤٦٨، «السنن الصغرى» للنسائي (٢/ ١٧٩، ١٨٠)، «سنن ابن ماجه» ١٣٤٢، «سنن الدارمي» (٢/ ٤٧٤)، «ابن حبان» ٦٦٠، «المستدرك» (١/ ٥٧١ ـ ٥٧٥)، «السنن الكبرى للبيهقي» (٢/ ٥٣).

مع علقمة بن قيس

ـ ٢ ـ

تبارك الذي أودع في قلوب من اختارهم لاتباع أصحاب النبي ﷺ بإحسان، ما أودع من الهداية، والتوفيق لأن يكونوا أهلاً لحمل الأمانة العظمى، أمانةِ الإيمان واحتمال دين الإسلام بعقيدته وتكاليفه وأخلاقه، ـ كما أخذوا عن الصحابة عليهم الرضوان ـ ونقلِه إلى الأمة وفق المنهج الذي يرضى عنه الله تبارك وتعالى، ورسوله عليه الصلاة والسلام، وهو نقل صحب فيه العلمَ النافع العملُ، والدعوةَ إلى الله القدوةُ واستقامة السلوك.

أقول هذا، والحديث موصول بالكلام عن بعض من مآثر فقيه الكوفة وعالِمها، ومقرئِها، الإمام الرباني، المعلِّم، والحافظ المجتهد، المربي أبي شبل علقمة بن قيس النخعي ـ رحمه الله وأكرم مثواه في الآخرين ـ.

ولقد حملت إلينا المصادر المؤصَّلة ما يدل أوضح الدلالة على أهلية هذا التابعي الجليل ليكون من قادة الركب الإيماني في الأخذ عن الصحابة، علمًا، وعملاً، وكثرة رواية، وإقراءً وتعليمًا، واجتهادًا في العبادة، وجهادًا مخلصًا في سبيل الله، وهو عند أهل الشأن فقيه، ثقة، ثبت فيما ينقل ويروي، من أهل الصلاح والخير والورع.

جاء في «السير» للإمام الذهبي: (**قال أحمد بن حنبل: علقمة ثقة من أهل الخير، وكذا وثقه يحيى بن معين، وسُئل عنه، وعن عبيدة السَّلماني**

في عبد الله فلم يخيِّر)[١] .

وقال ابن سعد في «الطبقات» أخبرنا الفضل بن دكين قال : **مات علقمة بالكوفة سنة اثنتين وستين ، وكان ثقة كثير الحديث**[٢] .

ومدرسة ابن مسعود التي كانت معلمًا بارزًا من معالم الهداية في العناية بالكتاب والسنة ونشر العلم النافع في الناس، كان علقمة ـ كما أسلفت ـ ركنًا مكينًا متألقًا من أركانها بما تحقق له بعون الله من النصيب الأوفى في الحفظ عن عبد الله ، وشمول الأخذ عنه ، وحملِ الفقه الذي كان سمةً مشرقة من سمات العطاء الخيِّر عنده ـ رضي الله عنه ـ وهو عطاء لم يقتصر على العلم وكفى، ولكنه شمل العمل بالعلم، والجهادَ في سبيل الله ، والإسهام المنهجيِّ في جلب الخير للمسلمين على صعيدي الفرد والجماعة .

وقد عُدَّ علقمة عند البعض أعلم الناس بعبد الله ، وعدّه آخرون من المقدمين بذلك العلم . قال عثمان بن سعيد : علقمة أعلم بعبد الله ، وقال ابن المديني : **لم يكن أحد من الصحابة له أصحاب حفظوا عنه ، وقاموا بقوله في الفقه إلا ثلاثة : زيدُ بن ثابت ، وابنُ مسعود ، وابنُ عباس ، وأعلم الناس بابن مسعود: علقمةُ ، والأسودُ النخعي ، وعبيدةُ السّلماني ، والحارث بن قيس الجُعفيُّ الكوفي**[٣] .

---

(١) «السير» (٤/ ٥٥).
(٢) «الطبقات الكبرى» (٦/ ٩٢).
(٣) المصدر السابق (٤/ ٥٥)، وانظر : «المعرفة والتاريخ» (٥٥٣).

وروى سفيان بن عيينة عن داود بن أبي هند قال: قلت للشعبي: أخبرني عن أصحاب عبد الله حتى كأني أنظر إليهم، قال: كان علقمة أبْطَنَ القوم به، وكان مسروق قد خلط منه ومن غيره، وكان الربيع بن خثيم أشدَّ الناس اجتهادًا، وكان عبيدة يوازي شريحًا في العلم والقضاء[١]. أبطن القوم به: يعني من خواصِّه.

وخرَّج صاحب «المعرفة والتاريخ» عن إبراهيم النخعي قال: **انتهى علم الكوفة إلى ستة من أصحاب عبد الله بن مسعود؛ فهم الذين كانوا يفتون الناس، ويعلمونهم، ويفقهونهم: علقمةَ بن قيس النخعي، والأسود بن يزيد النخعي، ومسروق بن الأجدع الهمْداني، وعبيدة السَّلماني، والحارث بن قيس الجُعفيِّ الكوفيِّ، وعمرو بن شُرحبيل الهمْداني**[٢].

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن عناية ابن مسعود بعلقمة ـ وقد رأى فيه أهلية النبوغ بالعلم والخيريَّة بالعمل واتقاء الله ـ كانت ـ بعد توفيق الله ـ وراء هذا التميُّز الذي كان له من حيث استيعاب ما حمل عن شيخه الرباني وقدرته على العطاء من ذلك بالتعليم والدرس والقدوة؛ فقد جوَّد القرآن عليه ـ كما أسلفنا ـ وكان من أنبل أصحابه حتى قال عبد الله: ما أقرأ شيئًا، وما أعلم شيئًا إلا وعلقمة يقرؤه أو يعلمه.

وأخرج ابن سعد في «الطبقات» عن أبي إسحاق عن الأسود قال: **لقد**

---

(١) «السير» (٤/ ٥٤، ٥٥).
(٢) انظر: «المعرفة والتاريخ» للفسوي (٢/ ٥٥٣).

رأيت عبد الله يُعَلِّم علقمة التشهد كما يعلمه السورة من القرآن[١] .

وعلى مدرجة الطاعة لله في العلم والعمل ومناصحة من تجب مناصحتهم عند التابعي والصحابي هذين: كانت الصلة بين علقمة وبين أبي عبد الرحمن، تقوى وتنمو يومًا بعد يوم، حتى أصبح علقمة يشبَّه بابن مسعود في هديه، ودلِّه وسمته ـ كما سلفت الإشارة ـ ودلالة ذلك من الناحية التربوية على شدة التوجُّه القلبي والنفسي عند علقمة إلى حسن التأسي بعبد الله لا تخفى .

حدّث الأعمش عن عمارة بن عمير قال: قال لنا أبو معمر: **قوموا بنا إلى أشبه الناس بعبد الله هديًا ودلاً، وسمتًا، فقمنا معه حتى جلسنا إلى علقمة**[٢] .

الهدي: السيرة، **والسمت والدل**: معناهما متقارب؛ إذ يلتقيان عند السكينة والوقار ونورانية التقوى والورع في دين الله .

وقد أثمر ذلك ما أثمر من الخير للمسلمين، والتعاون على الأخذ بيد الناس إلى حيث العلم النافع، والفقه في دين الله، والدربة على تزكية النفوس وحملها على تقوى الله في الظاهر والباطن، وأن تكون أرغب بما عند الله منها بأي شيء آخر، ولو كلّف ذلك بذل الأموال والأنفس في سبيل الله .

جاء في «السير» للإمام الذهبي: (وروى زائدة عن أبي حمزة قال:

---

(١) «الطبقات الكبرى» (٦/ ٨٩).
(٢) انظر: «السير» (٤/ ٥٥).

قلت لرباح أبي المثنى: أليس قد رأيت عبد الله؟ قال: بلى، وحججت مع عُمَرَ ثلاث حجَّات وأنا رجل. قال: وكان عبد الله وعلقمة يصفَّان الناس صفّين عند أبواب كِنْدة، فيقرىء عبد الله رجلاً، ويقرىء علقمة رجلاً، فإذا فرغا تذاكرا أبواب المناسك، وأبواب الحلال والحرام؛ فإذا رأيت علقمة فلا يضرُّك أن لا ترى عبد الله؛ أشبه الناس به سمتًا وهديًا، وإذا رأيت إبراهيم النخعيَّ فلا يضرُّك أن لا ترى علقمة؛ أشبه الناس به هديًا وسمتًا[1].

وهذه المرابطة من علقمة على باب التلقي لقراءة القرآن، والفقه في الدين، والعمل بأحكامه وآدابه عن البحر الذي كان شديد القرب من رسول الله ﷺ، وأشبه الناس به هديًا ودلاً وسمتًا. هذه المرابطة كما حملته ـ بعون من الله ـ إلى حيث يشارك أستاذه الإقراء ومذاكرة أبواب المناسك، وأبواب الحلال والحرام؛ تعدَّت ذلك إلى أن يتفقَّه به أئمة كبار كإبراهيم بن يزيد النخعي، والشعبي، وإبراهيم بن سويد النخعي، وأبي الضحى مسلم بن صبيح، ويحيى بن وثاب، والقاسم بن مخيمرة، وطائفة، وأن يُسأل ويُستفتى مع وجود الصحابة عليهم الرضوان.

جاء في «السير» للذهبي: **«وتفقه به أئمة كإبراهيم والشعبي، وتصدَّى للإمامة والفتيا بعد علي وابن مسعود، وكان يشبَّه بابن مسعود في هديه ودلِّه وسمته، وكان طلبته يسألونه، ويتفقهون به والصحابة متوافرون»**[2].

---

(١) «السير» (٤/ ٥٥).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٥٤)، «تذكرة الحفاظ» للذهبي (١/ ٤٨).

ويقول قابوسُ بن أبي ظَبيان: قلت لأبي: لأي شيء كنت تدع الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وتأتي علقمة؟ قال: أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ يسألون علقمة ويستفتونه. رواه أبو نُعيم في الحلية[١]، وأورده الذهبي في «تذكرة الحفاظ»[٢].

وهذا لا يعارض فضل الصحبة، فهذا الفضل رزق إلهي لا يدانى، منَّ الله به على كل من لقيَ رسول الله ﷺ مؤمنًا ومات على ذلك، وفي نصوص الكتاب والسنة مقنع لمن أراد مقنعًا، وهي من الوفرة ووضوح الدلالة بحيث لا تدع زيادة لمستزيد.

ولابد هنا من تجديد التذكير بما كان عليه عبد الله ـ رضي الله عنه ـ من الحكمة في أسلوب الإقراء والتعليم، فهو يشجِّع إخوانه، ويعطيهم حرية القول، ويكبر ما هم عليه من ائتلاف قلوبهم على الله، وعمارتهم المساجد بالعلم، ولا يني يصارحهم بشديد محبته لهم، مشيرًا إلى خيرية ما هم عليه من العناية بالقرآن، ومذاكرة العلم النافع، والتفقه في الكتاب والسنة، ونشر ذلك في المسلمين، طاعة لله تبارك وتعالى وطلبًا لمرضاته سبحانه.

روى أبو نُعيم في «الحلية» بسنده أن عبد الله مرَّ بحلْقة فيها علقمة والأسود ومسروق وأصحابهم، فوقف عليهم فقال: «**بأبي وأمي العلماء، بروح الله ائتلفتم، وكتابَ الله تلوتم، ومسجد الله عمرتم، ورحمة الله**

---

(١) «الحلية» (٢/ ٩٨).

(٢) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٤٨).

انتظرتم، أحبّكم الله وأحبَّ من أحبَّكم»[١].

رضي الله عن عبد الله بن مسعود، وأجزل مثوبته فيما صنع بحلقات التربية والتعليم من بناء هذه اللبنات العظيمة في صرح العلم وحضارة الإسلام، وفي مقدمة هؤلاء أنبل أصحابه: **الربانيّ علقمة بن قيس محور حديثنا في هذه العجالة**، والله ولي التوفيق.

* * *

(١) انظر: «الحلية» (٢/٩٨، ٩٩).

مع علقمة بن قيس النخعي

ـ ٣ ـ

الحركة العلمية التي ازدانت بإشراقة العمل واستقامة السلوك في عصر التابعين، وكان لها فضل الإسهام الكبير في توطيد معالم الفقه في دين الله، وإنارة طريق الأجيال المسلمة عبر التاريخ . . ما كانت لتكون كذلك، لولا عون الله وتوفيقه أولاً، ثم ما ظفرت به من أولئك الأعلام الذين ضربوا أروع الأمثلة في سلامة منهج الأخذ العلمي عن الصحابة عليهم الرضوان، المتسم بالأمانة والوعي، إيمانًا، وعلمًا، وعملاً، وأهلية قيادة فكرية بعيدة عن الشوائب، سَداها ولحمتها: صفاءُ العقيدة، والفقه في الدين من نبعه السلسبيل في هدي الكتاب والسنة، وإعمالُ العقل فيما لا نص فيه، ومن وراء ذلك ترجمة المعرفة إلى عمل مرضي لله تبارك وتعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام.

ولعل من أبرز هؤلاء الأفذاذ النَّبَغَةِ ـ يرحمهم الله ـ رجال مدرسة ابن مسعود ـ وهو الرباني المربي، والقارىء الفقيه المُعَلم ـ الذين أحسنوا اصطحابه والأخذ عنه، وكان أنبلَهم وأمثلَهم: الإمام الرباني، الثقة، الذي حاز قصب السبق في القراءة والفقه والاجتهاد، وأمانة الرواية والنقل، وعَمَلُه بالعلم، وتقواه، والانصراف عن كل ما يعوق التقرب إلى الله بالطاعة والعبادة والجهاد ـ من خلائقه المذكورة المشكورة: علقمة بن قيس النّخَعي.

وما وقفنا عليه من مآثر غاليات في سطور خلت يزيدنا ـ ونحن بسبيل تيسير الانتفاع المنهجي بسيرته وسلوكه رحمه الله ـ رغبة في الوقوف على جمل أخرى من هذه المآثر ـ وهي كثيرة وفيرة ـ مما اتسعت له صدور حملة العلم الأمناء، ومصنفاتهم الزاخرة بالفضل والعطاء.

هذا أبو نُعيم الأصفهانيُّ يفتتح ترجمة أبي شبل في كتابه «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» بقوله: ومنهم الإمام الرباني علقمة بن قيس النخعيُّ أبو شبل الهمْداني؛ أوتي فقهًا وعبادة، وحسن تلاوة وزهادة[1].

والربانية التي لها آفاقها الوضاءة في حياة الفرد والجماعة والأمة ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ سبق إلى الشهادة بها لأبي شبل أماثل فضلاء من معاصريه والآخذين عنه، كالذي رأينا من كلام مرة الطيب، وأبي إسحاق السَّبيعي في قول كل منهما: كان علقمة من الربانيين، أو كان علقمة رباني في هذه الأمة وما أشبه ذلك، فجاء كلام من بَعْدهم نورًا على نور.

والمهم أداء الأمانة في فقه النهج الذي يسلكه الرباني، وقدرِه حقَّ قدرِه، على صعيدي المنهج والتطبيق في التربية المتكاملة، وإعداد شخصية المسلم ذكرًا كان أو أنثى؛ الأمر الذي يضمن أن تظل قائمة وُصلةُ الحاضر بالماضي على نور من هدي الإسلام، والاعتزاز برسالته وتاريخه، وأن تُغذِّي الولاءَ للأمة التي شاء الله أن تكون خير أمة أخرجت للناس:

---

(١) انظر: «الحلية» (٢/ ٩٨).

المفهوماتُ الصحيحة لحقيقة الوجود الذاتي لهذه الأمة، دون إغلاق منافذ الانتفاع بما عند الآخرين مما لا يعارض تلك الحقيقة.

والخطب سهل مادام الأخذ والعطاء مع ملاحظة الثوابت والمتغيرات، وضرورة الاستقلال في صنع القرارات المصيرية: يتجه الوجهة الصحيحة في ظل عقيدة التوحيد بعيدًا عن الشوائب والمنغصات، ومنها ـ والعياذ بالله ـ استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير!.

وفي «تذكرة الحفاظ» للإمام الذهبي نقع على قوله ـ رحمه الله ـ في ربانينا القدوة الثبت: قلت: كان فقيهًا، إمامًا بارعًا، طيب الصوت بالقرآن، ثبتًا فيما ينقل، صاحب خير وورع، كان يشبه ابن مسعود في هديه ودلِّه وسمته وفضله[1].

وإذا كان الأمر كذلك، فلا تعجب إذا رأيت علقمة يرشد أصحابه إلى أن التفقه في العلم بالكتاب والسنة ابتغاء مرضاة الله ـ زيادة في الإيمان.

روى أبو نُعيم بسنده عن إبراهيم النخعي عن علقمة أنه كان يقول لأصحابه: امشوا بنا نزدد إيمانًا ـ يعني يتفقهون[2]، وتراه يحضُّ أصحابه على مذاكرة العلم، ومدارسة مسائله؛ لأن بذلك حياته فيقول: تذاكروا العلم فإن حياته ذكره، وفي رواية: حياة العلم المذاكرة. رواه ابن سعد، وأبو نُعيم.

ويحضهم أكثر وأكثر على معاودة القراءة والتذكار للحديث النبوي،

---

(١) انظر: «تذكرة الحفاظ» للذهبي (١/ ٤٨).
(٢) «الحلية» (٢/ ٩٩).

خشية النسيان، أو الوقوع في شيء من التغيير والتبديل في ألفاظه؛ فالقرآن وحي متلو، والسنة وحي غير متلو؛ ذلكم قوله وهو يؤدي أمانة التربية والتعليم: «**اطيلوا كرَّ الحديث لا يُدرسْ**[١]» وكرُّ الحديث: مراجعته وتكراره، ودروسه ذهابه، كما كان يقول: تذاكروا الحديث؛ فإن حياته ذكره[٢].

إنه يخاف ضياع السنة، وحُق له ذلك.

وبهذه الغيرة على السنة، وما قام به العلماء الأخيار من جهود منهجية مشكورة ـ حفظها الله ـ وكان هذا الحفظ مشمولاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٣].

فكما حفظ جلَّ شأنه القرآن، يسَّر السُّبل، وهيَّأ الرجال الأمناء لحفظ بيانه، وهو حديث النبي عليه الصلاة والسلام، والعناية بالحديث والحفاظ عليه من الضياع عند أبي شبل ـ امتداد مبارك لعنايته بالقرآن، إدامةً لتلاوته خشية تفلته من الذاكرة، وطلبًا للأجر العظيم في تلاوته، يقول إبراهيم: كان علقمة يقرأ القرآن في خمس[٤].

ويقول في رواية أخرى: كان علقمة يقرأ القرآن في خمس، والأسود في ست، وعبد الرحمن بن يزيد في سبع[٥].

---

(١) «السير» (٤/ ٥٧).
(٢) «الحلية» (٢/ ١٠١).
(٣) سورة الحجر، الآية: ٩.
(٤) المصدر السابق (٤/ ٥٦).
(٥) المصدر السابق (٤/ ٥٩).

أما عن تميُّزه بالقراءة: فقد كان ـ كما أسلفنا ـ أقرأ إخوانه الذين جوَّدوا القرآن على ابن مسعود، بشهادة ابن مسعود نفسه، بل إنه ـ رضي الله عنه ـ قد أقسم على ذلك؛ فقد سبق أنه عندما قيل له: ما علقمة بأقرئنا، قال: بلى والله إنه لأقرؤكم[(١)].

وقد تبع تميُّزه بالقراءة تميُّزه بالإقراء؛ فقد تلا عليه ـ كما أسلفنا ـ عدد من كبار الأئمة كيحيى بن وثاب، وعُبيد بن نضلة ـ أو نُضيلة ـ، وأبي إسحاق السبيعي وآخرين[(٢)].

ومن أمارات التوفيق في حياة الرجل الرباني ما يلاحظ من الجمع دائمًا بين التلاوة والتدبر؛ ومن هنا كان سلطان القرآن على فهم علقمة وسلوكه واضحًا للعيان.

جاءه رجل فشتمه فقال علقمة: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[(٣)]، فقال الرجل: أمؤمن أنت؟ فقال: أرجو[(٤)].

أرأيت!! مع الصبر والاحتمال لم يدع هذا الرباني ـ وكأنه يرى الله في حركاته وسكناته ـ أن يعلِّم بالقدوة والتذكير بالقرآن، وما أكرمه منهجاً على طريق العلماء العاملين والدعاة المربين.

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٥٩).
(٢) وانظر ما سلف، والمصدر السابق (٤/ ٥٤).
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٨.
(٤) انظر: «الحلية» (٢/ ١٠٠).

والعبادة ـ وهي معراج القرب إلى الله ـ لا يدع أبو شبل أن يكون له الحظ الأوفر من نوافلها، وكل ما يقرب إلى الله زلفى؛ لأن الفرائض مفروغ من وجوب القيام بها.

حدَّث الأعمش عن إبراهيم عن علقمة قال: أُتي عبد الله بشراب فقال: أعط علقمة، أعط مسروقًا، فكلُّهم قال: إني صائم، فقال: ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ [النور: ٣٧][١].

ومما يجدر ذكره أن إمامًا كالشعبي ـ وهو من أعلم الناس بعلقمة ـ كان يرى أن علقمة سبَّاق في الطاعة دائمًا، وإن كان يسير ـ في العبادة ـ مع البطيء أحيانًا. قال ابن عون: سألت الشعبيَّ عن علقمة والأسود، فقال: كان الأسود صوَّامًا قوَّامًا كثير الحج، وكان علقمة مع البطيء ويدرك السريع[٢].

هذا على تواضع جم وورع شديد. ويبدو أنه ـ مع التواضع والورع ـ كان كثير الخوف من الوقوع في الرياء، وكل ما ينافي الإخلاص وصفاء التوحيد، الأمر الذي جعله على مذهب خاص في الحركة علمًا وتعليمًا، فهو يحب ـ طاعةً لله ـ أن يعلِّم ويقرىء ويجيب عن أسئلة المستفتين ولكن دون ضجيج ولا عجيج. قيل له: لو جلست ـ أي في المسجد ـ فأقرأت الناس وحدثتهم. قال: أكره أن يوطأ عقبي وأن يقال: هذا علقمة. قالوا:

---

(١) «السير» (٤/ ٥٧).

(٢) المصدر السابق (٤/ ٥٧)، وانظر: «تاريخ بغداد» (١٢/ ٢٩٨)، «تهذيب الكمال» للمزي (٢٠/ ٣٠٥).

لو دخلت على الأمراء! قال: أخاف أن ينتقصوا مني أكثر مما أنتقص منهم[١].

العقب هنا: كناية عن كثرة الأتباع، يقال: فلان موطأ العقب، أي يتبعه الناس ويمشون وراءه[٢].

ومن ورعه ـ رحمه الله ـ أنه باع بعيرًا، أو دابة من رجل، فكرهها، فأراد أن يردَّها ومعها دراهم، فقال علقمة: هذه دابتنا فما حقنا في دراهمك، فقبل دابته وكره الدراهم[٣].

وما من ريب في أن الخلال التي ازدان بها سلوك علقمة كانت مدعاة لكثير من التقدير والاحترام من قبل إخوانه والآخذين عنه، ناهيك عن محبة ابن مسعود الشديدة له وإعطائه حقه من التكريم.

حدّث ابن عيينة عن عمر بن سعد قال: كان الربيع بن خثيم يأتي علقمة، فيقول: **ما أزور أحدًا ما أزورك**[٤]، ويقول الإمام الشعبي: **إن كان أهل بيت خلقوا للجنة، فهم أهل بيت علقمةُ والأسود**[٥]، أما أبو قيس الأودي فيقول: **رأيت إبراهيم آخذًا بالركاب لعلقمة**[٦].

رحم الله أبا شبل في الربانيين المربين، وجزاه خير الجزاء على ما قدَّم

---

(١) «تهذيب الكمال» (٢٠/٣٠٦)، «السير» (٤/٥٨).
(٢) انظر: «النهاية» مادة (وطأ).
(٣) انظر: «الطبقات الكبرى» (٦/٩٠).
(٤) «السير» (٤/٥٩).
(٥) المصدر السابق (٤/٦٠).
(٦) المصدر السابق (٤/٦٠).

لأمته من الخير، وأعلى مقامه في الآخرين، يوم يقال لأحباء الله المتقين ـ وقد أدخلوا جنة الخلد ـ: سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين .

❊ ❊ ❊

مع سيد الفتيان أبي بكر أيوب السِّختياني

- ١ -

عندما يدار الحديث عن الربانيين، أهل العلم والعمل وأخدان الصلاح والإصلاح، تطل عليك من منافذ تاريخنا قديمه وحديثه صور مشرقة لأولئك النَّبغة الأعلام الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، دائبين بإخلاص على طاعة الله بتحصيل العلم النافع والتعليم، والدرس والتدريس مصحوبًا ذلك بتزكية أنفسهم، وتزكية من ولاهم الله أمرهم، كيما يكون ذلك بابًا من أبواب الخير يسلم المرء ـ وقد صلح قلبه وزكت نفسه ـ إلى العمل بخطاب الشارع الحكيم في كتاب الله وسنة النبي عليه الصلاة والسلام.

ولا يتحقق ذلك على الوجه المطلوب إلا بصدق العزيمة وعلو الهمة، ناهيك عن الفرح بفضل الله، واليقين بوقوع وعده ووعيده ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾[1].

كان عليَّ أن أذكِّر بهذه الحقيقة وأنا بسبيل الاستنارة ببعض من فضائل واحد من ربانيي هذه الأمة: **وهو الإمام الحافظ الحجة الثبت سيد العلماء ـ كما يقول الزهري ـ أبو بكر البصريُّ أيوب بن أبي تميمة السِّختياني**، المتوفى سنة إحدى وثلاثين ومائة. رأى أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ وقد ذكره ابن سعد في الطبقة الرابعة من تابعي أهل البصرة، قال: واسم

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٢.

أبي تميمة: كيسان، وكان أيوب ثقة ثبتًا في الحديث، جامعًا عدلاً، كثير العلم، حجة[١].

سمع أيوب، وروى عن سعيد بن جبير، وأبي عثمان النهدي، والحسن البصري، ومحمد بن سيرين، وأبي بريد عمرو بن سَلِمة الجَرميِّ، وحفصة بنت سيرين، وعطاء بن أبي رباح، ونافع مولى ابن عمر، وقتادة، وخلقٍ سواهم.

وحدَّث عنه الزهريُّ، ومحمد بن سيرين، وعمرو بن دينار، وقتادة ـ وهم من شيوخه ـ ويحيى بن أبي كثير، وشعبة، وسفيان الثوري، ومالك، وحمَّاد بن سلمة، وسليمان بن المغيرة، وحماد بن زيد، وسفيان بن عيينة، وحُميد الطويل، والأعمش، وهما من أقرانه، وأمم سواهم[٢].

ولعل المدخل إلى شخصيته: ما ثبت من شهادة أهل العلم والصلاح فيه، حدَّث الجَعْد أبو عثمان قال: سمعت الحسن يقول: **أيوب سيد شباب أهل البصرة**[٣]، وأخرج صاحب «المعرفة والتاريخ» عن حماد بن زيد قال: حدثنا ميمون أبو عبد الله الغزَّال قال: (شهدت الحسن ـ وأتاه أيوب فكلَّمه بشيء فيما بينه وبينه، فلما قام أيوب فذهب، قال الحسن ـ وهو الحسن البصري سيد أهل زمانه علمًا وعملاً ـ: **هذا سيد الفتيان**)[٤]. ورواه ابن سعد في «الطبقات» بلفظ: (. . . ثم قام فاتَّبعه الحسن بعده، حتى إذا

---

(١) انظر: «السير» (٦/ ١٥، ١٦).
(٢) «الطبقات الكبرى» (٧/ ٢٤٦)، وانظر: «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٣١).
(٣) «المعرفة والتاريخ» (٣/ ٤٥٨، ٤٥٩)، وانظر: «السير» (٦/ ١٦، ١٧).
(٤) المصدر السابق (٦/ ١٧).

كان لا يسمع أيوب، قال: هذا سيد الفتيان)[١]، ورواه أبو نُعيم في «الحلية»، كما أورده المزي في «تهذيب الكمال»[٢].

ويبدو أن الحسن البصري ـ يرحمه الله ـ وهو من هو علمًا وعملاً، وتأثيرًا خيِّرًا مشهودًا في عصر التابعين امتدَّ إلى من بعدهم حتى يوم الناس هذا ـ قد تكرر منه الثناء على أبي بكر أيوب في مجالسه، وعند تقويمه للرجال كما تشهد لذلك المصادر[٣].

فبجانب تعدُّد الروايات بلفظ: «هذا سيد الفتيان» نجد في «الحلية» عن الجعد أبي عثمان قال: سمعت الحسن يقول: «**أيوب سيد شباب أهل البصرة**»[٤]، وعنده أيضًا من رواية سعيد بن راشد قال: سمعت الحسن يقول: «**سيد شباب أهل البصرة أيوب**»[٥].

وحين نقدُر الحركة العلمية قدرها في عصر التابعين، وهي التي لا تعوز رجالها خشية الله واستشعار الأمانة في نقل العلم بالكتاب والسنة إلى الناس، وتربيتهم على العمل به تأسيًا بالذين حُمِّلوه من رسول الله ﷺ فحملوه على خير وجه ـ حين نقدر هذه الحركة ذات الأثر البالغ في حياة المسلمين عبر العصور قدرها ـ يمكن لنا أن نضع كلمات الرجال المؤتمنين على التقويم جرحًا وتعديلاً موضعها من سلامة الحكم على فلان أو علاّن.

---

(١) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ١٣٢).
(٢) «الطبقات الكبرى» (٧/ ٢٤٦، ٢٤٧).
(٣) انظر: «الحلية» (٣/ ٣)، «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» للمزي (٣/ ٤٦٠).
(٤) «الحلية» (٣/ ٣).
(٥) المصدر السابق (٣/ ٣).

وشهادة الحسن البصري ـ رحمه الله ـ تضيء سبيلنا إلى شهادات أخر عرف أصحابها بأهليتهم الفاذَّة في تقويم حملة أمانة العلم والتزكية.

أخرج أبو نُعيم بسنده عن بشر بن موسى قال: حدثنا الحميدي قال: لقي سفيان بن عيينة ـ وهو ممن روى عن أيوب ـ ستة وثمانين من التابعين، وكان يقول: ما رأيت مثل أيوب[(١)].

ويقول هشام بن عروة: ما رأيت بالبصرة مثل أيوب، ولا بالكوفة مثل مسعر[(٢)]، أما سفيان الثوري فيقول: ما رأيت بالبصرة مثل أربعة، فبدأ بأيوب[(٣)].

وليس من قبيل المصادفة، أو إطلاق الكلام على عواهنه: أن يصحب هذا الثناءَ العام على هذا الرجل الرباني: ذكرُ ما يتميز به على صعيد العلم والعمل والتزكية والتعليم، من جوانب تشرق بها شخصيته وسلوكه، خصوصًا ما عرف عنه من التثبت والإتقان في الرواية والحكم على الرواية.

هذا محمد بن سيرين أجزل الله مثوبته ـ وهو من جِلَّة التابعين الذين أخذ عنهم أيوب وروى ـ كان يقول إذا حدثه أيوب بالحديث: حدثني الصَّدوق، تشديدًا على صدقه في الحديث بصيغة المبالغة. يؤكد ذلك ما روى ابن سعد في «الطبقات» عن حماد بن زيد عن أبي خُشينة حاجب بن عُمر قال: حدثنا محمد ـ هو ابن سيرين ـ يومًا حديثًا فقالوا: عمن هذا

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٣).
(٢) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٣٣)، «الحلية» (٣/ ٤)، وانظر: «السير» (٦/ ١٨).
(٣) «السير» (٦/ ١٩).

يا أبا بكر؟ فقال: حدثنيه أيوب السِّختياني، فعليك به[١].

وحدَّث الفقيه الثقة الحافظ العابد عبد الله بن وهب صاحب مالك قال: سمعت مالك بن أنس ذكر أيوب السختياني وذكر منه فضلاً وقال: كان أشدَّ الناس تثبتًا[٢]، وقال أبو حاتم ـ وسئل عن أيوب ـ: ثقة لا يسأل عن مثله. قال الذهبي بعد إيراد هذه المقولة: قلت: إليه المنتهى في الإتقان[٣].

وهذا التثبت والإتقان في أمور العلم وشؤونه، وبخاصة ما كان في مجال الرواية عن رسول الله ﷺ: من أعظم ما يجب أن يتحلَّى به العالم العامل ـ وهو يوقِّع عن رب العالمين ـ لكيلا تزلَّ به القدم، فيقول على الله سبحانه بغير علم أو يصبح في عداد من عُنوا بما جاء في الحديث المتواتر من قوله صلوات الله وسلامه عليه: «من كذب عليَّ متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار».

وهنيئًا لهذا العالم الرباني ما درج عليه من العناية والتثبت في الرواية والدراية واستنباط الأحكام على طريق العلم والعمل والتعليم والإفتاء.

وجميل ماروى خالد بن نزار عن سفيان بن عيينة ـ كما جاء في «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم ـ أنه كان يقول: **«من كان أطلب لحديثٍ نافعٍ**

---

(١) انظر: «الطبقات الكبرى» (٧/ ٢٤٧)، وانظر: «الحلية» (٣/ ٤)، «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٣٢).

(٢) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٣٣)، «تقريب التهذيب» للحافظ ابن حجر (ص: ٧٠٢).

(٣) «السير» (٦/ ٢٠).

وأعلمَ به من أيوب؟»[١]، وروى جرير الضبي عن أشعث بن سوَّار الكندي قال: **كان أيوب جهبذ العلماء**[٢]، والجهبذ هو الناقد الخبير.

والحق الذي لا مرية فيه أنه لا يعوزك بيقين أن ترى في سيرة أبي بكر هذا وسلوكه المشرق بالعمل بالسنة والتواضع، وتهذيب النفس ما يحملك على الجزم ـ والعلم عند العليم الخبير ـ أنه ممن نوّر الله قلوبهم وأكرمهم بالتقوى، فجمعوا إلى تحصيل العلم النافع، وتعليمه الآخرين، أخذَ النفس بالعمل به على كل صعيد، كما جمعوا إلى الجودة في حفظ ما حفظوا من السنة والتثبت في تلقي الأحاديث وأدائها عند الرواية على أكمل وجه: طاعةَ رسول الله ﷺ باتباعها والعمل بها؛ لأن طاعة رسول الله صلى الله وسلم وبارك عليه من طاعة الله.

قال حماد بن زيد: أيوب عندي أفضل من جالسته، وأشدُّه اتباعًا للسنة[٣].

وحدَّث إسحاق بن محمد قال: سمعت مالك بن أنس يقول: **«كنا ندخل على أيوب السختياني، فإذا ذكرنا له حديث رسول الله ﷺ بكى حتى نرحمه**[٤]**»، ومعلوم أن مروياته من الأحاديث بلغت ثمانمائة حديث أو أكثر!.**

وكذلك يعطي هؤلاء الرجال الأماثل من طراز أيوب وأضرابه دروسًا

---

(١) «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (١/١/٢٥٦)، وانظر: «المعرفة والتاريخ» (٢/٤٦١).

(٢) «السير» (٦/٢١).

(٣) «السير» (٦/٢١).

(٤) انظر: «الحلية» (٣/٤).

هي الذروة في نفعها للعالم والمتعلم، والدارس والمربي.

وآثارُها العظيمة في بناء المسلم ـ ذكرًا كان أو أنثى ـ بناءً يزينه علوُّ الهمة، وصدق العزيمة في طاعة الله تعالى على المنهج السديد والمهيع الرشيد: لا تخفى على ذي بصيرة.

تقبل الله عنهم أحسن ما عملوا وضاعف مثوبتهم في الآخرين.

* * *

مع أبي بكر أيوب السختياني

ـ ٢ ـ

الحديث المتجدد عن حياة العالم العامل الذي غذته الربانية بلبانها، فسخَّر علمه للتقرب إلى الله، وهداية الآخرين، وأخذ نفسه بالعمل بهذا العلم، حتى كان القدوة التي تحمل الأجيال على طَرْق أبواب الخير، اتقاءً لله في كل ميدان.

هذا الحديث ـ مهما تعددت ألوانه وصنوفه ـ حديث عن العبرة الكامنة وراء هذا السلوك المقترن بالزهادة، وما يُبتغى من انشراح الصدر للتأسي بأولئك الصحب الكرام عليهم الرضوان الذين تقرأ في سلوكهم الإسلام الناطق، والحركة البانية في طاعة الله، حتى بات الواحد منهم معلمًا من معالم الطريق الصاعدة في حياة المسلمين، لما أنه يقطع رحلة الحياة بقلب نقي وعقل متفتح، وهو يرجو الله واليوم الآخر، ولا يفتأ يعمل على الصعيدين الفردي والجماعي على الإسهام المنهجي الجادِّ في أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن تكون الأمة دائمًا على الصراط السوي، الذي يضمن ـ بعون الله ـ الأمن بعد الخوف، والتمكين بعد الضياع، والقدرة على صنع القرار بذاتية وتميُّز، وذلكم طريق استمرارية البناء الحضاري الأمثل في حياة بني الإنسان أجمعين.

أقول هذا وما يزال في الجَعبة أشياء كثيرة من فضائل الإمام القدوة، والرباني الحجة أبي بكر أيوب بن أبي تميمة السختياني أجزل الله مثوبته،

ورفع ذِكرَه في الآخرين.

وحسبك أنه ـ يرحمه الله ـ كان ـ شأن أضرابه أحباء الله المقربين ـ مضرب المثل في سلامة المنهج على صعيد الصلة بالقرآن تلاوةً وتدبرًا، والعناية بالسنة المطهَّرة حفظًا ورواية ودراية، حتى إنه عندما قيل لمالك ابن أنس ـ أجزل الله مثوبته ـ: إنك تتكلم في حديث أهل العراق، وتروي مع هذا عن أيوب؟ فقال: **«ما حدثتكم عن أحد، إلا وأيوب أوثق منه»**[١]، وقال ـ رحمه الله ـ: **«ما بالعراق أحد أقدمه على أيوب، ومحمد بن سيرين في زمانهما»**[٢].

وهذا ما حمل الحسن البصري على تكريمه بمقولات على الملأ ـ كما سلف من قبل ـ هي التزكية الطيبة المنصفة لربانينا أبي بكر، والدرسُ العظيم في عدم بخس الناس أشياءهم، وإعطاء كل ذي حق حقه، من مثل شهادته له بأنه سيد الفتيان، أو بأنه سيد شباب أهل البصرة.

وهذه التزكية من سيد التابعين تُلقي الضوء على ما كان له من رفيع المنزلة وكبير القدر عند الإمام شيخ الإسلام أبي بكر الأنصاري الأَنَسي البصري مولى أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ محمد بن سيرين أحد أبرز أشياخه: **يقول حماد بن زيد: لم يكن أحدٌ أكرم على ابن سيرين من أيوب**[٣].

---

(١) «السير» (٦/ ٢٤).

(٢) «الحلية»: (٣/ ١١).

(٣) انظر: «السير» (٦/ ٢٠).

ولا ننسى أن أيوب كما سمع هو من محمد بن سيرين وروى عنه فكذلك روى عنه محمد بن سيرين نفسُه .

وحماد بن زيد حين يقرر ما يقرر في شأن تكرمة ابن سيرين لأيوب؛ لا يقول ذلك اجتهادًا، ولكن عن معرفة وثيقة لما أنه أثبت الناس فيه، روى مؤمل عن شعبة بن الحجاج قال: من أراد أيوب فعليه بحماد بن زيد، وكما عودنا الحافظ الذهبي، يعلق في «السير» على ذلك فيقول: قلت: صدق، أثبتُ الناس في أيوب هو[1] .

وكم تعلو رتبة العالم الرباني عند الله، وينتفع بذلك الناس عندما يكون سلوكه ـ وهو يعمل بما علِم من أصول هذا الدين وفروعه وعلَّمه الناس ـ ترجمة صادقة لعبوديته الخالصة لله، واتقائه المبَّرء من الأكدار، في وقوف عند حدود الشريعة، وإكثار من العبادة، وكل ما يقرب إلى الله زلفى، فهو عابد خاشعٌ، ومتذلِّل بين يدي الله خاضعٌ، لا تزيده الطاعة إلا شعورًا بتفريطه في جنب الله، وإحساسًا بتقصيره فيما ينبغي من تقواه، لا يدع أن يبكي على نفسه خوفًا من سوء العاقبة، وأن يديم الضرع إلى الله راجيًا الرحمة والغفران، حتى إنك لتراه دائمًا والخوف والرجاء عنده بحسبان .

وليس من مكرور القول التذكير بسنَّة من سنن الله الحكيمة ـ وهي من مظاهر عدله وفضله سبحانه ـ أنه لا يستوي في ميزان الحق من يَعْبُد الله على علم، وهو موصول القلب به سبحانه، همُّه أن يتفضل الله عليه فيكون من

---

(١) المصدر نفسه (٦/ ٢٠).

أهل القبول ـ كما هي الحال في عبادة أيوب ـ، ومن يَعْبُده جل شأنه على جهل، أو على حرف، وهمُّه أن يقال: متعبد.

حدَّث الفقيه الثقة هشام بن عروة بن الزبير أن أيوب السَّختياني حجَّ أربعين حجة[١]. ويقول عبد الله بن شوذبٍ: **كان أيوب لا ينصرف عن الصفا والمروة إلى المنزل حتى تصوب النجوم من طول القيام والدعاء**[٢] ويقول: كان أيوب يعتمر في رجب، ثم يرجع بحج من عامه. قال: وكان يعتمر من الجِعْرانة ـ أو الجعرَّانة ـ بالتنفل[٣].

وروى صاحب «المعرفة والتاريخ» عن عبد الله بن شوذبٍ أيضًا قال: **(كان أيوب يؤمُّ أهل مسجده في شهر رمضان، ويصلي بهم في الركعة قدر ثلاثين آية، وكان يصلي لنفسه فيما بين الترويحتين بقدر ثلاثين آية، وكان يقوم هو بنفسه للناس الصلاة، ويوتر بهم، ويدعو بدعاء القرآن، ويؤمِّن مَنْ خلفه، وكان آخرُ ما يقول: يصلي على النبي ﷺ، ثم يقول: اللهم استعملنا بسنته، وأوزعنا هديه، واجعلنا للمتقين إمامًا، ثم يكبر ويسجد، وإذا فرغ من الصلاة دعا بدعوات)**، وأورده صاحب «السير»[٤].

والدروس البليغة وراء ذلك: ما كان من التربية الصامتة المؤثرة عند أيوب ـ وهي التربية بالقدوة ـ فلا يعوزك أن تقع على التعليم بسلوكه، والتربية بحاله قبل قاله؛ لأن ذلك كله ناطق بصدق ما يقول. هذا عبد الله بن

---

(١) المصدر نفسه (٦/ ٢١).

(٢) انظر: «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٣٥).

(٣) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٣٤).

(٤) المصدر السابق (٢/ ٢٣٥)، «السير» (٦/ ٢١).

بشر يقول: إن الرجل ربما جلس إلى أيوب السختياني، فيكونُ لما يرى منه أشدَّ اتباعًا منه لو سمع حديثه[١].

ومن النماذج المؤثرة ـ دون تكلف ـ على هذه الساحة: ما كان يصحب صلته بالقرآن والحديث، وكثرة بكائه من خشية الله، وإكثاره من العبادات، وفعل القربات ـ مع ما هو مشغول به من الرواية والتزكية والتفقيه ـ من أدب أهل الخشية والتواضع المبرء من التصنُّع، والإخلاص الذي يتجافى عن الرياء، وحب الشهرة والظهور؛ لأن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا، وهو سبحانه أغنى الأغنياء عن الشرك، وحاشا أن تجتمع الطاعة الخالصة لله، مع الإقامة على الرياء وملاحظة المخلوقات في العمل، وأخوف ما يخاف الرباني أن يحبط عمله نتيجة الوقوع فيما يعكر صفو التوحيد ـ والعياذ بالله ـ.

حدَّث أبو بكر الباهليُّ وُهَيْبُ بن خالد الباهليُّ: سمعت أيوب يقول: «**إذا ذكر الصالحون كنت عنهم بمعزل**»[٢]، أي مجانبًا لهم، والمعروف عنه ـ رحمه الله ـ أنه كان يراه الرائي وليس عليه شيء من سيما النسَّاك أو التصنع[٣].

وعندما يُغلب على أمره فيبدو منه ما يؤذن بتنسُّكه، وكثير عبادته وصلاحه يحاول جهده صرف الأنظار عن ذلك قدر المستطاع.

---

(١) انظر: «الحلية» (٣/ ٧).
(٢) «السير» (٦/ ٢٢).
(٣) المصدر نفسه (٦/ ٢٢).

روى أبو نُعيم عن حماد بن زيد قال: غلب أيوب البكاء يومًا فقال: **«الشيخ إذا كبِر مجّ، وغلبه فوه ووضع يده على فمه، وقال: الزُّكمة ربما عرضت»**[١].

هكذا حاول هذا الإمام التقي النقي أن يحول دون من رأوا عينيه تذرفان من خشية الله، ودون تأويل ذلك بالتقوى والصلاح، وسلك لهذه المحاولة الأسلوب الحكيم الذي لم يخالف عن الصدق قيد أَنملة، وذلك بأن ذكَّر الحضور بما يكون عليه الشيخ الهرم من ضعف يبلغ به أن لا يستطيع حبس ريقه من كثرته بل يمجُ به، كما أوحى إليهم ما قد يعرض له من الزُّكمة، وهي الزُّكام، كي يذهب بهم الظن بأن ما شهدوا منه قد يكون من هذا القبيل!.

يقال: مجَّ بريقه يمجُّه: إذا لفظه[٢].

نفع الله المسلمين بعلم أبِي بكر أيوب وعمله وصلاحه، وأظفره يوم القيامة بما يُظفر به أحباءَه من العلماء العاملين، وأوليائه المقربين المخلَصين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

❊ ❊ ❊

---

(١) «الحلية» (٣/ ٦، ٧)، «السير» (٦/ ٢٢).
(٢) «لسان العرب» مادة: مج.

مع أبي بكر أيوب السختياني

ـ ٣ ـ

ما يزال الحديث موصولاً عن جانب غايةٍ في الأهمية من جوانب السلوك عند تابعينا الجليل المربي والعالم الحجة الثبت، أبي بكر أيوب السختياني، الذي صدق الله في علمه وعمله، وتفقيهه الناس في دينهم، فصدقه الله، وكان من سادة الصالحين المصلحين على هدي من كتاب الله الكريم، وسنة سيد المرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحابته أجمعين.

هذا الجانب المشرق هو محاولة صرف الناس عما قد يبدو أنه من أمارات الصلاح، وعلائم التقوى والتنسُّك عنده.

ومما وقفنا عليه من ذلك استخفاؤه ممن حوله عندما يغلبه البكاء أحيانًا بأسلوب حكيم، يصرفهم على الظن بصلاحه، خشية الوقوع في الرياء، وحب الظهور، وسوء الأدب مع الله عز وجل.

وإذا كانت وقائع الخير تدل على وقائع مثلها: فلنذكر ما روى سليمان ابن حرب عن حماد بن زيد من أن أيوب كان في مجلس، فجاءته عبرة، فخشي أن يذهب الناس فيه المذهب الذي نومىء إليه، فجعل يعالج أنفه ويقول: ما أشدَّ الزُّكام[1].

---

(١) «السير» (٦/ ٢٠).

ولما كان ـ رحمه الله ـ من أهل التهجد والإكثار من قيام الليل : **لم يكن عجبًا أن يحاول الاستخفاء من إخوانه وأصحابه في هذا الشأن، وفق المنهج الذي أومأنا إليه، والذي قوامه: البعد عن كل ما قد يوقع في الرياء،** خصوصًا وأن أهل القلوب من أمثال أيوب لا تخفى عليهم تسويلات النفس الأمارة بالسوء، وما يُزيِّنه الهوى من بهرجٍ باطِنُه غيرُ ظاهره، وحقيقته غيرُ عنوانه! .

أخرج أبو نُعيم بسنده من رواية سعيد بن عامر عن سلاَّم قال: «**كان أيوب السختياني يقوم الليل كلَّه، فيخفي ذلك، فإذا كان عند الصبح رفع صوته؛ كأنه قام تلك الساعة**»[١] .

ونجد في «المعرفة والتاريخ»: قال علي ـ هو ابن المديني ـ: «**بلغني أن أيوب كان يصلي بالليل، فإذا أصبح تنحنح وتكلم ـ يُرى أنه قام تلك الساعة**»[٢] .

ومن هذا القبيل على سُلَّم الحفاظ على التوحيد الخالص، وصفاء العمل والسلوك من الدَّخَل وحظوظ النفس. يقول شعبة بن الحجاج: قال أيوب: ذُكرتُ ولا أحب أن أُذكر. ويقول شعبة أيضًا: «**ربما ذهبت مع أيوب لحاجة، فلا يدعني أمشي معه، ويخرج من هاهنا وهاهنا؛ لكيلا يُفطنَ له**»[٣] .

---

(١) «الحلية» (٣/ ٨).

(٢) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٤١).

(٣) انظر: «الحلية» (٣/ ٦)، «السير» (٦/ ٢٢).

وهذا حماد بن زيد ـ وهو أثبت الناس فيه كما عرفنا ـ يقول في كلام له عنه : وكنت أمشي معه، فيأخذ في طرق إني لأعجب له كيف يهتدي لها، فرارًا من الناس أن يقال: هذا أيوب، ويشير إلى واقعة حصلت له ظل هذا التوجه عند أيوب فيقول: تلقاني أيوب وأنا أذهب إلى السوق، وهو في جنازة، فرجعت معه فقال: اذهب إلى سوقك» وفي رواية: «سوقَك سوقك»[١].

والظاهر أنه كان يفعل هذا في الوقت الذي يراه من يراه، وليس عليه شيء من سيما النسُّاك والتصَنُّع، كما سبقت الإشارة من قبل.

والعبرة العظيمة في هذا كلِّه: أن أيوب وأمثاله من أولئك الشهود العدولِ الأمناءِ على العصر الذي استنار بحملة العلم عن صحابة رسول الله ﷺ، العلم الذي كانت له ثمراته الخيِّرة في عقولهم وقلوبهم وتحقيق الهدي الصالح لمن حولهم ـ أن هؤلاء الربانيين كانت وقائع سلوكهم التي يجري الحديث عنها، يقع ما وقع منها على نور من ضوابط الشريعة والوقوف عند حدود الله؛ حرصًا على تقوى الله في الظاهر والباطن، والسر والعلانية.

وهذا واحد من حداة هذا الركب الخيِّر في تاريخ الإسلام، وهو التابعي الجليل طلق بن حبيب العَنَزِي، المتوفى قبل المائة يُطلَبُ منه أن يصفَ التقوى فيقول: «العمل بطاعة الله، على نور من الله؛ رجاء ثواب الله،

---

(١) المصدر نفسه (٦/ ٢٢).

وترك معاصي الله، على نور من الله؛ مخافة عذاب الله»[١].

قال الإمام الذهبي بعد إيراد هذا التعريف البديع الموجز للتقوى: «قلت: أبدع وأوجز، فلا تقوى إلا بعمل، ولا عمل إلا بتروٍّ من العلم والاتباع، ولا ينفع ذلك إلا بالإخلاص لله لا ليقال: فلان تارك للمعاصي بنور الفقه؛ إذ المعاصي يفتقر اجتنابها إلى معرفتها، ويكون الترك خوفًا من الله، لا ليُمدحَ بتركها، فمن داوم على هذه الوصية فقد فاز»[٢].

وبعد: فعلى هذا السنن من الإخلاص لله في الأقوال والأفعال، لا ليُمتدح، فيقال: فعل أيوب كذا، أوترك كذا، كان تصرفه إذا وقع له شيء لا اختيار له في تحديد زمانه، مما يكرم الله به أولياءه المؤمنين المتقين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون: أن يطلب من الحضور كتمان ما حصل على يديه وعدم إذاعته، وشتان بين هذا، وبين زعم الولاية مع الانحراف والشطط، واتخاذ ذلك صناعة وحرفة!.

جاء في «سير أعلام النبلاء» للإمام الذهبي قوله: (وفي «شمائل الزهَّاد» لابن عقيل البلخي: حدثنا محمد بن إبراهيم قال: حدثنا أبو الربيع، قال: سمعت أبا يعمر يقول: كان أيوب في طريق مكة، فأصاب الناس عطش حتى خافوا، فقال أيوب: أتكتمون عليَّ؟ قالوا: نعم، فدوَّر رداءه، ودعا، فنبع الماء، وسَقَوا الجمالَ، ورَوُوا، ثم أمرَّ يده على الموضع، فصار كما كان. قال أبو الربيع: فلما رجعت إلى البصرة حدثت

---

(١) «الحلية» (٣/ ٦٤)، وانظر: «السير» (٤/ ٦٠١)، «التقوى في الكتاب والسنة» للمؤلف.
(٢) «السير» (٤/ ٦٠١).

حماد بن زيد بالقصة، فقال: حدثني عبد الواحد بن زيد أنه كان مع أيوبَ في هذه السفرة التي كان هذا فيها)[١].

وغير خافٍ أنه كلما كان العالم المصلح المتمرِّس بمعرفة الأحكام ومقاصد الشريعة، أحرص على الإخلاص، والبعد عما يشوب التوحيد الخالص بأية شائبة مهما هانت: كان ذلك أدعى للحيطة والحذر في أمر الشهرة والذكر في الناس، كي لا يقع في شرك الغرور، وما يولده من التعالي والاستكبار.

قال معمرٌ: (كان في قميص أيوب بعضُ التذييل، فقيل له، فقال: الشهرة اليوم في التشمير[٢]).

بل كان ربانيُّنا يرى أن من علامات الصدق العزوف عن الشهرة، قال مخلَد بن حسين: قال أيوب: **ما صدق عبدٌ قط فأحبَّ الشهرة**، وحدَّث عنه أبو بكر بن المفضَّل أنه كان يقول: **والله ما صدق عبد قط إلا سرَّه أن لا يُشعَرَ بمكانه**[٣].

ومما يحكيه صاحبه الأدنى حماد بن زيد حائز قصب السبق في الأخذ عنه والتأسي بسلوكه: أنه كان يأخذ به في طريق أبعد، فيقول ـ أي حماد ـ: إن هذا أقرب، فيقول أبو بكر: إني أتقي هذه المجالس، وكان إذا سلَّم يردون عليه سلامًا فوق ما يُرَدُّ على غيره، فيقول: اللهم إنك تعلم أني

---

(١) «السير» (٦/ ٢٢، ٢٣).

(٢) المصدر نفسه (٦/ ٢٢).

(٣) المصدر نفسه (٦/ ٢٠)، وانظر: «الحلية» (٣/ ٦).

لا أريده، اللهم إنك تعلم أني لا أريده[١].

ومما يجدر ذكره هنا: أن الرباني مهما أخذ نفسه بالحزم في الطاعات والقربات، والبعد عما يعكِّر صفو الإخلاص، لا يزيده ذلك إلا تواضعًا ورحمة بعباد الله، وهذا ما كان عليه أيوب رحمه الله.

يقول حماد: «ما رأيت أحدًا أعظم رجاءً لأهل القبلة من أيوب وابن عون»[٢].

أما الذين تزيدهم الطاعة عزًا واستكبارًا عن الآخرين، واستصغارًا لشأنهم عند الله: فليسوا من رفعة الربانيين عند مولاهم في شيء. قال أيوب: «إن قومًا يريدون أن يرتفعوا فيأبى الله إلا أن يضعهم، وآخرين يريدون أن يتواضعوا فيأبى الله إلا أن يرفعهم»[٣]، والله الموفق سبحانه.

❊ ❊ ❊

(١) «الطبقات الكبرى» (٧/ ٢٤٩).
(٢) المصدر السابق (٧/ ٢٤٩).
(٣) المصدر السابق (٧/ ٢٤٨).

مع أبي بكر أيوب السختياني

ـ ٤ ـ

كلما أوغلتَ في استجلاء فضائل الرجل الرباني، والاستنارة بمعالم سلوكه الذي يزينه العلم والعمل، وتضيء آفاقه ـ على رُحْبها ـ خشيةُ الله وتقواه، والحرص على تفقيه المسلمين بدينهم، والأخذ بأيديهم إلى ما يسعدهم في الدنيا ويوم يقوم الحساب. . . كلما أوغلت في ذلك بنفاذ بصيرة، وإدراك للبعد الذي يأخذه الرباني في حياة الأمة، ازددت يقينًا بما لله على الربانيين من فضل حين أقامهم على هذا الثغر العظيم، وما أعطاهم من مقوِّمات البرِّ والهداية في أنفسهم، وفي المجتمع الذي يريد له الإسلام أن يكون المجتمع المستنير بنور الإيمان والعمل الصالح، المتماسك القوي على هدي الشريعة المحمدية، سيرًا مع سنن الله التي لا تتبدل، وأخذًا بأسباب التمكين والنماء.

وما وقفنا عليه من سيرة الإمام الربانيِّ أيوبَ بن أبي تميمة السَّختياني صادقُ النسب إلى هذه الحقيقة.

ولقد يكون من الخير أن نتابع التعرُّف على جوانب أخرى من حياته وسلوكه وأخلاقه، عسى أن يكون الانتفاع بهذا المنهج المتكامل في هذا السلوك أتمَّ وأشمل على طريق التأسي، وأن يأخذ العطاء الخيِّر موقعه في صلة الحاضر بالماضي، والغرْسِ الطيب للمستقبل.

ويا نعم ما نقع عليه من إرادته الخير للناس، وحرصه على نصحهم؛

كيما يكونوا على الجادة في طاعة الله تعالى، ذلكم ما قال يونس بن عبيد: **ما رأيت أحدًا أنصح للعامة من أيوب والحسن**(١).

وما ظنك بهذا النصح الذي يكون من عالم رباني يعتقد أن الإيمان لا يكمل إلا بأن يُحب المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه، ناهيك عن أداء أمانة التبليغ، وخوف الوقوع في كتمان العلم؟!.

ويبلغ من حُبِّه الخير للناس أن يقول إذا هنأ رجلاً بمولود: جعله الله مباركًا عليك، وعلى أمة محمد ﷺ.

وغير خافٍ على وجه اليقين أن نصح العالم العامل للناس وتفقيههم في دينهم يزداد حسن تأثيرهما، بقدر ما يتمتع هذا العالم بالوثوق بعلمه وأمانته وكونه يجمع ـ إلى العلم الموثق بأدلته ـ الإخلاص وأهلية القدوة؛ لما أن الاقتران الصالح قائم بين أفعاله وأقواله، وعندئذ يكون التعليم والنصح مشرعي الأبواب للقبول والعطاء الخيِّر على صعيدي التعليم والاقتداء.

هذا سفيان الثوري شيخ الإسلام وسيد العلماء العاملين في زمانه يقول وهو يروي عن أيوب: وحدثنا أيوب ـ وكان أوثق من رأيت في زمانه ـ عن أبي بشر(٢). وقد مرَّ بنا من قبل قول حماد بن زيد: أيوب عندي أفضل من جالسته، وأشدُّه اتباعًا للسنة(٣).

وإذا كان الأمر كذلك فكم يفتح هذا النهجُ المنوَّر باتباع السنة والعمل

---

(١) انظر: «السير» (٦/ ٢٠).
(٢) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٤٠).
(٣) انظر ما سبق (ص ٢٧٨).

بالعلم في القلوب والنفوس من مغاليق، وكم يؤتي من عظيم الأكل على صعيد الإعداد المتكامل للمسلم ذكرًا كان أو أنثى.

وهذا مما أنعم الله به على تابعينا أبي بكر بن أبي تميمة؛ إذ كان على عطائه الغزير بالرواية والكلمة والوصية وما إليهن: أغزر عطاءً على صعيد القدوة، لما يحُدث سلوكه المزدان بتقوى الله وصالح العمل بالكتاب والسنة من تغيير إلى ما هو الأفضل في القلوب والنفوس، خصوصًا إذا لاحظنا تواضعه، وعزوفه عن كل ما هو من التعالي وحظوظ النفس بسبيل.

أخرج أبو نُعيم بسنده عن عبد الله بن بشر قال: (**إن الرجل ربما جلس إلى أيوب السختياني فيكون لما يرى منه أشد اتباعًا منه لو سمع حديثه**)[١].

ولقد آتاه الله الحكمة وحسن التأتي في أسلوب التعامل مع طلابه، ومن هو مؤتمن على توجيههم وتبليغهم كلمة الهداية والفقه في الدين.

حدث حماد بن زيد قال: (**ما رأيت أحدًا أشدَّ تبسُّمًا في وجوه الرجال من أيوب إذا لقيهم، وهارون بن رئاب كان شيئًا عجبًا**»[٢]، ومما قاله في هذا النهج الأخلاقي عنده رحمه الله: (**كان الرجل ليجلس إلى أيوب، فلا يرى الرجلُ أن أيوب يعرفه، فإن مرض أو مات له ميت، أتاه حتى يرى الرجل أنه من أكرم الناس على أيوب**)[٣].

أو ليس هذا صورة من صور التأسي بمن خاطبه ﷺ ربه بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ

(١) «الحلية» (٣/ ٧).

(٢) «الطبقات الكبرى» (٦/ ٢٤٩)، «الحلية» (٣/ ٨).

(٣) المصدر نفسه (٦/ ٢٥٠).

لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[١] .

ومن هذه البابة في التأسي أنه كان ـ أجزل الله مثوبته ـ يضع الأمور مواضعها، لينًا حيث الخير في اللين، وشدةً حيث الخير في الشدة؛ صنيع النبي ﷺ في حياته كلها! .

فما ألفه الناس من أيوب من اللطف والتبسُّم في وجوه الرجال عند التعليم والمناصحة، لم يكن يعني أبدًا ضعف الغيرة على دين الله وحرماته في وجه أهل البدع الضالة والأهواء. قال سعيد بن عامر الضَّبُعيُّ عن سلاَّم ابن أبي مطيع قال: رأى أيوب رجلاً من أصحاب الأهواء فقال: إني لأعرف الذلة في وجهه ثم تلا: ﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ ﴾[٢] ، ثم قال: هذه لكل مفتر، وكان يسمي أصحاب الأهواء خوارج، ويقول: إن الخوارج اختلفوا في الاسم، واجتمعوا على السيف، وقال له رجل من أهل الأهواء ـ يبدو أنه كان آيسًا من رجوعه إلى الحق ـ: أكلمك كلمة، أو أسأل عن كلمة؟ فولَّى، وهو يقول: ولا نصفَ كلمة. مرتين[٣] .

ومن كلماته المحذِّرة المنذرة في هذا الباب قوله: «**ما ازداد صاحب بدعة اجتهادًا إلا ازداد من الله بعدًا**»[٤]، فلم يقتصر الأمر على التنديد بالخطأ، بل تعدى إلى التخويف بزيادة البعد عن الله بذاك الاجتهاد! .

---

(١) سورة القلم، الآية: ٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٢.
(٣) «السير» (٦/ ٢١)، وانظر: «الحلية» (٣/ ٩).
(٤) المصدر نفسه (٣/ ٩).

ولا كذلك مسلكه مع أهل السنة وهو من أشد الناس اتباعًا لها واستمساكًا بهديها كما سلفت شهادة الجهابذة بذلك .

هذا سفيان بن عيينة يروي عنه أنه كان يقول : «**إنه ليبلغني موت الرجل من أهل السنة ، فكأنما يسقط عضو من أعضائي**» وفي رواية لحماد بن زيد عنه : «**فكأنما أفقد بعض أعضائي**»[١] .

واستمساك الرجل الرباني بالهدي المحمدي علمًا وعملاً ، يجعلك تبصر في سلوكه الترجمة العملية لهذا الهدي الذي هو معتصم أهل الخير إلى يوم الدين ؛ لأنه من هدي الكتاب الكريم وإليه ، والأمة مأمورة بطاعة رسول الله ﷺ لأن طاعته من طاعة الله تعالى . وهذا ـ مع الإخلاص ـ برهان الصدق الذي يعطي أطيب الثمرات على صعيد التزكية والتعليم للآخرين .

من هنا كان موقفه الصلب ممن يكون سلوكهم على الضدِّ مما يقتضيه الثغر الذي أقامهم الله عليه .

يقول سلاَّم بن مسكين : سمعت أيوب يقول : «**لا خبيث أخبث من قارئ فاجر**»[٢] .

من أجل هذا كان يحتاط لنفسه ولإخوانه من الوقوع ـ ولو بالشبهة ـ في شيء من مظان السوء . قال حماد بن زيد : كان أيوب صديقًا ليزيد بن الوليد ، فلما ولي الخلافة قال : اللهم أنسه ذكري[٣] .

---

(١) المصدر نفسه (٣/ ٩) .
(٢) المصدر نفسه (٣/ ١١) .
(٣) «السير» (٦/ ١٩ ، ٢٢) ، «تذكرة الحفاظ» (١/ ١٣١) .

ولا يدع أبو بكر أن يوصي السالكين طريق الزهادة والتنسك، بما يباعد بينهم وبين الرياء، ويحول دونهم ودون أن يكون زهدهم عذابًا للناس، ها هو ذا يقول: **ليتَّق الله رجل؛ فإن زهد فلا يجعلنَّ زهده عذابًا على الناس، فلأن يُخفي الرجل زهده خير من أن يعلنه.**

وحدَّث حماد بن زيد قال: كان أيوب يخفى زهده، دخلنا عليه فإذا هو على فراشٍ مخمَّسيٍّ أحمر، فرفعته ـ أو رفعه بعض أصحابنا ـ فإذا خَصَفة محشوَّة بليف[1].

الخصَفَة محركة: الجُلَّة تعمل من الخُوص للتمر، والثوب الغليظ جدًا.

❊ ❊ ❊

(١) «السير» (٦/ ١٩)، وانظر: «الطبقات الكبرى» (٧/ ٢٤٩)، «الحلية» (٣/ ٦).

مع أبي بكر أيوب السختياني

ـ ٥ ـ

هذه خطوة أخرى في الحديث عن التابعي العلم الحجة العابد الثبَت الثَّبْتِ ـ أيوب بن أبي تميمة كيسان السَّختياني الذي نوَّر الله قلبه، وأظفره بقياد نفسه، واختاره للجُلَّى على طريق الرواية الأمينة للسنة، والعلم المقترن بخشية الله، والعمل المصحوب بالزهادة والتنسُّك المستخفي من أعين الناس، في تواضع وأدب معه سبحانه، ودأب على إيصال الهداية للآخرين، وما به صلاح دينهم ودنياهم.

وهي خطوة يمليها ما نحن بسبيله من محاولة الاستزادة من فضائله ـ يرحمه الله ـ والكشف عن أبعادها وآثارها الخيِّرة، ابتغاء الإسهام في إحكام الصلة بين الحاضر والماضي على صعيد الإعداد المتكامل للإنسان المسلم، تعليمًا وتربية وتزكية، وتنمية للطاقات الفاعلة على نور من الله رب العالمين، وأن تأخذ القدوة في صنيع هذا التابعي وأمثاله مكانها في حياة الأجيال عند المسلمين.

هذا عبيدُ الله بن عمرَ بنِ حفصِ بنِ عاصمِ بن عمرَ بنِ الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الإمامُ المجوِّد أحد الفقهاء السبعة، ومن سادات أهل المدينة فضلاً وعلمًا، وعبادةً، وشرفًا، وحفظًا، وإتقانًا، يروي أبو نُعيم أن أيوب بن سليمان بن بلال قال له مرة: أراك تتحرى لقاء العراقيين في الموسم: فقال ـ مجيبًا ـ: والله ما أفرح في سنتي إلا أيام الموسم، ألقى

أقوامًا قد نوَّر الله قلوبهم بالإيمان، فإذا رأيتهم ارتاح قلبي، منهم أيوب[١].

وإذا نوَّر الله القلب، فقل ما شئت عما يحدثه ذلك من استقامة، واستنارة في السلوك.

ألم تر إلى أيوب ـ وهو الفقيه الحجة العدل راوي الحديث ـ كيف يحتاط لآخرته في الإجابة عن سؤال أو الإفتاء في واقعة. يقول ابن شوذب: **كان أيوب إذا سئل عن أمر ليس عنده فيه شيء قال للسائل: سل أهل العلم. وسئل ـ رحمه الله ـ عن أمر، فقال: ليس عندي فيه شيء، فقيل له: قل فيه برأيك، فقال: لا يبلغه رأيي**[٢]، وهذا من ورعه بلا ريب؛ لأن هنالك من يقوم بمهمة الإجابة، والعلماء يومذاك كثير، لكن لو تعيَّن عليه شرعًا أن يجيب لفعل، شأن الصحابة عندما كان أحدهم يستفتى في حكم، أو يسأل عن شيء رضي الله عنهم أجمعين.

والنباهة المقرونة بالورع عند العالم الرباني شيء عظيم، يقول حماد ابن زيد: كان الرجل إذا سأل أيوب عن شيء استعاده، فإن أعاده عليه مثل ما قال له أولاً أجابه، وإن خلَّط عليه لم يجبه. أخرجه ابن سعد في «الطبقات»[٣]، كما رواه صاحب «المعرفة والتاريخ»[٤] بنحوه.

وسأله رجل عن مسألة، فسكت، فقال الرجل: يا أبا بكر، لم تفهم؟ أعيد عليك؟ فقال أيوب: قد فهمت، ولكني أفكر كيف أجيبك، جاء ذلك

---

(١) انظر: «الحلية» (٣/ ٤).

(٢) «الطبقات الكبرى»، «الحلية» (٣/ ٨).

(٣) «الطبقات الكبرى» (٧/ ٢٤٧).

(٤) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٣٤ ـ ٢٣٦).

في «المعرفة والتاريخ»[١]. وفي «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي[٢]. وما أعظمه درسًا في التثبت وسعة الصدر جميعًا، حرصًا على تحري الحق والصواب!.

والورع على هذه الساحة يقودنا إلى مظهر من مظاهر فضل الله ومنته على العالم العامل القدوة، فيما يعطيه من استقامة التعامل معه جلَّ شأنه، ومع عباده؛ فتراه بذلك معلِّمًا بارعًا، ومربيًا نابهًا، تحظى جهوده بحسن التلقي من الناس، وهو يرجو أن تظفر بالقبول عند الكريم المنان الذي يتقبل من المتقين.

حدَّث بعض جيران أيوب ـ كما جاء في الأخبار عنه ـ أن قِصاعه كانت تختلف في جيرانه يوم الفطر قبل أن يغدوا[٣]. والقِصاع: جمع قصعة.

ومن أخباره الاجتماعية على صعيد السلوك والقدوة ـ وما أكثرها وأوفرها ـ ما سلف من قول حماد بن زيد: **كان الرجل ليجلس إلى أيوب فلا يَرى الرجلُ أن أيوب يعرفه؛ فإن مرض أو مات له ميت: أتاه حتى يَرى الرجلُ أنه من أكرم الناس على أيوب**[٤].

ويتضح سموُّ هذا الخُلق أكثر وأكثر عندما يكون الوفاء على صعيد الصحبة بين علَمين من الأعلام الثقات، ويصبح الصاحبُ مع أخيه مضرب

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٢٣٦).
(٢) «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي (٢/ ١٨٨، ١٨٩).
(٣) «الطبقات الكبرى» (٧/ ٢٥٠)، «تذكرة الحفاظ» للذهبي (١/ ٣١).
(٤) المصدر نفسه (٧/ ٢٥٠).

المثل في الالتزام بمحاسن الأخلاق، وهو ما كان من أيوب بعد موت صاحبه الأدنى وأخيه على طريق العلم: يعلى بن حكيم الذي كان من الأعلام الثقات[(١)]، وممن روى عنه أيوب نفسُه. حدَّث حماد بن زيد ـ وهو من أعرف الناس بهذه الواقعة ـ أن يعلى بن حكيم الثقفي مات بالشام، وجاء نعيه إلى أمه التي لم يخلِّف غيرها. قال: وكان منزله هاهنا عندنا في الحيِّ، فكانت تأتي أيوب، قال: فأتاها أيوب ثلاثة أيام بالغداة والعشي، يقعد على بابها ونقعد معه، وفي رواية ـ ونأتيه فنجتمع ـ ولم يزل يصلها حتى ماتت[(٢)].

وما أجمل صدق الوعد عند العالم المربي، وأكرم بذلك قدوةً لمن يربيهم ويأخذون عنه العلم! يقول أمير المؤمنين في الحديث شعبة بن الحجاج: **ما واعدت أيوب موعدًا قط، إلا قال حين يفارقني: ليس بيني وبينك موعد؛ فإذا جئت وجدته قد سبقني**[(٣)]، وفي رواية: **ما وعدت أيوب موعدًا إلا وجدته قد سبقني إليه**[(٤)].

أما عن الإنفاق في سبيل الله: فحدث ولا حرج، يقول سفيان بن عيينة: كُلِّم أيوب في إحسان يعطيه إنسانًا فأدخل يده في الكيس فأعطاه بلا عدد ولا وزن[(٥)].

---

(١) انظر: «تهذيب الكمال» (٣٢/ ٣٨٣)، «السير» (٥/ ٤٥١).
(٢) انظر: «تهذيب الكمال» للحافظ المزي (٣٢/ ٣٨٤)، «السير» (٥/ ٤٥١، ٤٥٢).
(٣) «الحلية» (٣/ ٥)، «السير» (٦/ ١٩).
(٤) «الحلية» (٣/ ٥)، «السير» (٦/ ١٩).
(٥) «السير» (٦/ ١٨)، وانظر: «الحلية» (٣/ ٨)، «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٤١).

وأنت واجد أن مردَّ ذلك كله عند العالم الرباني: إلى صدقه مع الله، وخشيته في الظاهر والباطن، ومراقبته ـ جل شأنه ـ في الأقوال والأفعال والحركات والسكنات. ألم تر إلى ما صحَّ عنه أنه وضع يده على رأسه، وقال: الحمد لله الذي عافاني من الشرك ليس بيني وبينه إلا أبو تميمة. يعني أباه[1]؟!.

وأخرج أبو نُعيم بسنده في «الحلية» عن حمزة بن أبي عمير عن أبيه قال: بينما أيوب يمشي بيني وبين إنسان قد سمَّاه، إذ وقف فقال: إنما يحمد الناسُ على عافية الله إياهم وستره، وما يبلغ عملُنا كلُّه جزاء شربة ماءٍ باردٍ شربها وهو عطشان، فكيف بالنعم بعد؟![2]، **وهذا من الأدب الذي تثمره المراقبة للمولى سبحانه.**

ومن هذه البابة ما حدث حماد قال: رأيت أيوب لا ينصرف من سوقه إلا معه شيء يحمله لعياله، حتى رأيت قارورة الدهن بيده يحملها، فقلت له في ذلك، فقال: إني سمعت الحسن يقول: إن المؤمن أخذ عن الله عز وجل أدبًا حسنًا، فإذا أوْسَع عليه أوْسَع، وإذا أمسك عليه أمسك[3].

وكم كان حريصًا على أن يعلِّم من حوله حسن الأدب مع الله وتربيتهم بسلوكه عليه. وقد أسلفت ما حدث به سعيد بن عامر قال: حدثنا بعض أصحابنا قال: مر أيوب بمسجد بني ضُبيعة، فردوا عليه ـ أي بأحسن من

---

(١) «السير» (٦/ ١٨)، وانظر: «الحلية» (٣/ ٨)، «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٤١).
(٢) «الحلية» (٣/ ٧).
(٣) المصدر نفسه (٣/ ٥).

تحيته ـ فعلم أنهم قد زادوه، فجعل يقول فيما بينه وبين نفسه: يعلم الله أني لهذا كاره[١]. وكان من وصاياه ـ حثًا على الرضى الدائم عن الله ـ قوله: **إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون**[٢].

وليس عجبًا من العجب أن ينطق الله ألسنة هؤلاء الربانيين بالحكمة، وقلوبُهم موصولة به سبحانه في عبادة خاشعة بين يديه، وإذعان كامل لهدي كتابه الكريم، وسنة نبيه المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

حدث هارون بن عبد الله الحمال عن سيار بن حاتم قال: «قلت لأبي بكر بن أيوب: يا أبا يحيى، هل كان أبوك يجهر بالقرآن من الليل؟ قال: نعم، جهرًا شديدًا، وكان يقوم السحر الأعلى»[٣].

❊ ❊ ❊

---

(١) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢٣٩).
(٢) «الحلية» (٣/ ١٢).
(٣) المصدر نفسه (٣/ ٨).

مع أبي بكر أيوب السختياني

- ٦ -

غيرُ خافٍ على كل من أُوتي حظاً من نور البصيرة والإنصاف، أن حياة العالم الرباني القدوة بعلمه وسلوكه وإسهامه في إحكام بنية المجتمع المسلم على الهدى والحق: معلمٌ من معالم البناء القوي المتماسك في حياة الأمة، وأمانةٌ في أعناق المؤتمنين على نشر العلم النافع، والتنهيج لتزكية النفوس، وإعداد الإنسان المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ وفق الهدي المحمدي في دنيا المسلمين على اختلاف الألسنة والألوان والأقاليم.

ويزداد ثقلُ هذه الأمانة كلَّما تفاقم الغزو المنحرف، وانحسرت مفاهيم الإسلام الصحيحة عن المجتمع، وصار للمعادين لنصوص الهدى في الكتاب والسنة كلمةٌ مسموعة في هذا المجتمع الذي يراد له من قِبل رواد الفكر الإسلامي وثقافته الأصلية ألا يحرم شرف صدق الانتماء والولاء لما كانت به أمتنا خير أمة أخرجت للناس، كما شاء لها ربُّها الحكيم الخبير.

أقول هذا وأنا على طرف الثُّمام من استيفاء ما يحتمل المقام استيفاءه من الحديث عن الرباني أبي بكر أيوبَ السَّختياني، الذي انعم الله عليه بسلوك سَنن الهدى في نفسه وفيما يقوم به من توجيه الآخرين، والمشاركةِ الفعالة فيما يعود بالخير في الدنيا والآخرة على المسلمين.

هذه واحدة من كلماته الحكيمة في ميدان التربية والتزكية نجدها

فيما حدَّث عبيدالله بن شميط قال: سمعت أيوب السختياني وهو يقول: «**لا يستوي العبد** ـ أو لا يسود العبد ـ **حتى يكون فيه خصلتان: اليأسُ مما في أيدي الناس، والتغافل عما يكون منهم**»[١].

وتراه لا يفتأ يوصي بالبعد عن اللفَظ في الكلام، وعن الإكثار منه إلا في خير، حفاظاً على الوقت أن يُنفَق فيما لايجدي، وبُعداً عن الوقوع في شيء من مساخط الله تعالى. يقول صالح بن أبي الأخضر: قلت لأيوب: أوصني، فقال: أقِلَّ الكلام. وإنها لوصية ما أوضح انتماءها إلى إرث النبوة؛ فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**»[٢].

قال الحافظ ابن حجر: المراد بقوله: «يؤمن»: الإيمانُ الكامل، وخصَّه باللهِ واليومِ الآخر إشارةً إلى المبدأ والمعاد[٣].

ويقول بشر بن منصور: كنا عند أيوب، فلفظنا وتكلمنا، فقال لنا: كفُّوا، لو أردت أن أخبركم بكل شيء تكلمت به اليوم لفعلت[٤]. بل بلغ به الأمر أن يستغفر الله من اللحن، قال الخليل بن أحمد: لحن

---

(١) «الحلية»: (٣/ ٥).

(٢) انظر «الجامع الصحيح» مع «الفتح»: (١١/ ٣٠٨) كتاب الرقاق رقم ٦٤٧٥، (١٠/ ٤٤٥) كتاب الأدب رقم ٦١٠٨ و(صحيح مسلم بشرح النووي): (٢/ ١٨).

(٣) انظر «فتح الباري»: (١٠/ ٤٤٦).

(٤) «الحلية»: (٣/ ٨).

أيوب في حرف فقال: أستغفر الله[١].

وفي حرصٍ على كيان الأمة أن يصيبه التخلخل من طريق من يتصدرون للتعليم وهم غير موثوق بعلمهم، أو الذين يتقدمون إلى الناس بسلوك يخالف فيه قولهم فعلهم.. في حرص على ذلك: يقول في شأن القُصَّاص غير الموثوقين: «**ما أفسد على الناس حديثهم إلا القصاصُ**». ويقول في الذين يقولون ما لا يفعلون: «**لا خبيث أخبثُ من قارئ فاجر**»[٢].

ومن هنا كان تنبيهه على أن تكون مخالطة أهل العلم بنفاذ بصيرةٍ يتحقق معه التمرس بمعرفة الصواب من الخطأ في العلم والعمل. روى أبونعيم بسنده عن حماد بن زيد قال: قال لنا أيوب: «**إنك لا تبصر خطأ معلمك حتى تجالس غيره، جالس الناس**»[٣]. **يعني الذين هم محط الفائدة العلمية والانتفاع بالعلم**.

وكم يقع الناظر في سلوك هذا العالم الرباني على ما يشعر برقة القلب ومخافة الله واليوم الآخر، والاعتبار بالموت. رُئِيَ رحمه الله بين قبري الحسن البصري ومحمد بن سيرين قائماً يبكي ينظر إلى هذا مرة وإلى هذا مرة. وهذا أثر من آثار الاتباع للسنة، والاستمساك بالهدي المحمدي. وقد مرَّ بنا من قبل ما شهد به غير واحد من ملازميه

---

(١) «السير» (٦/ ٢٠).
(٢) المصدر السابق: (٣/ ١١).
(٣) المصدر نفسه. (٣/ ٩).

والآخذين عنه بأنه أفضل من جالسوه وأشدُّهم اتباعاً للسنة؛ الأمر الذي يفسر قول سلام بن أبي مطيع: «كان أفقههم في دينه أيوب». إنه الفقهُ الذي يضم إلى العلم بالأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية خشيةَ الله وشديد العناية بجلاء القلب وتهذيب النفس وكلِّ ما به يتحقق العملُ بالعلم والرسوخُ في تقوى الله عز وجل في الأحوال كافة. ويرحم الله شعبة بن الحجاج إذ كان يقول: حدثني أيوب سيد الفقهاء[١].

وتحرير القلب من سجن الغفلة، والعقل من ضيق الهوى: يرقى بالعالم الرباني إلى حيث يستعذب ـ وهو يخاف زلات الاقدام ـ أن يدع مراده ورغباته التي تتطلَّع إليها نفسه إلى مراد الله تعالى ومرضياته، ويجدُ في ذلك حلاوة لا يذوقها إلا من سلكوا مدارج القرب من الله تعالى.

يقول في معرض التحذير من الركون إلى ملاذ الدنيا رُكون المترفين الغافلين: ما الحجلة الحمراء بأضرَّ على المؤمن في دينه من الحجلة البيضاء، بل أنا من شرِّ البيضاء أخوف[٢]. والحجلة ـ كما يقول العلماء ـ واحدة الحجال وهي بيوت تزيَّن بالثياب والأسرَّة والستور لها عرىً وأزرار[٣].

وكم كان يخاف على قلبه من العجب وهو يحدث ويعلم الناس.

---

(١) «السير» (٦/ ١٩).

(٢) انظر «الحلية»: (٣/ ١٠).

(٣) «فتح الباري»: (١/ ٢٩٦) وانظر «النهاية» لابن الأثير: (مادة ح ج ل) و«لسان العرب» لابن منظور المادة نفسها، و«إرشاد الساري» للقسطلاني: (١/ ٢٧٠).

حدَّث عارم بن الفضل قال: حدثنا حماد بن زيد قال: قال أيوب: «**ومن يَسْلمُ؟ إن الرجل ليحدث بالحديث فيرى أنه قد وقع من القوم موقعاً فيخالط قلبه من ذلك شيءٌ**»(١).

وعلى هذا السنن من صِدْق تابعيِّنا في الظاهر والباطن، وأخذ نفسه في الرواية والعلم والتعليم بالحذر النابع من مخافة الله واليوم الآخر: كان يدعو كما يقول سفيان الثوري بهذه الدعوات: «**اللهم إني أسألك الإيمان وحقائقه ووثائقه، وكريم ما مننت به عليّ من الأعمال التي يُنال بها منك حسن الثواب، واجعلنا ممن يتقيك، ويخافك، ويرجوك، ويستحييك، اللهم استرنا بالعافية**»(٢).

ومعروف عنه ـ رحمه الله ـ أنه كان لايقف على آية، إلا إذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾(٣) سكت سكتة(٤).

ودلالة ذلك كله على ما كان عليه أيوب من رفيع المنزلة على مدارج القرب من الله ومحبته سبحانه، وما أوتي من صفاء القلب والكيْس الأخروي واضحة لا تخفى. وهذا ما جعل رجلاً كموسى الأسواري ـ وهو من هو علماً وفضلاً وتقىً ـ يجيء في رمضان فيصلي خلف أيوب كما روى ذلك صاحب «المعرفة والتاريخ»(٥) وعندما فجُع

---

(١) انظر «الطبقات الكبرى»: (٧/ ٢٤٧).
(٢) «الحلية»: (٣/ ٨).
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.
(٤) «السير»: (٦/ ١٩).
(٥) «المعرفة والتاريخ»: (٢/ ٢٣٩).

الناس بموت التابعي الجليل الإمام الحجة محمد بن سيرين: كان عزاؤهم بعد الرضا بقدر الله أن أيوب يخلفه والحمد لله.

جاء في «الطبقات» لابن سعد: أخبرنا عفَّان بن مسلم قال: حدثنا بشر بن المفضَّل قال: حدثنا ابن عوف قال: لما مات محمد بن سيرين قلنا: من لنا؟ فقلنا: لنا أيوب[١]. وأورده الذهبي في «السير»[٢].

توفي رحمه الله سنة إحدى وثلاثين ومائة بالبصرة وله ثلاث وستون سنة، وآخر من روى حديثه عالياً أبوالحسن بن البخاري[٣]. ومن مروياته ما أخرج البخاري ومسلم من حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾[٤] قال: «يقومون حتى يبلغ الرشح أطراف آذانهم»[٥]. قال أبونعيم الحافظ: أسند أيوب عن أنس بن مالك وعمرو بن سلمة وأبي العالية وأبي رجاء وآخرين[٦].

* * *

---

(١) «الطبقات الكبرى»: (٧/ ٢٥٠).
(٢) «السير»: (٦/ ٢٠).
(٣) «السير»: (٦/ ٢٤).
(٤) سورة المطففين، الآية: ٦.
(٥) انظر المصدر السابق: (٦/ ٢٥).
(٦) المصدر نفسه: (٦/ ٢٣).

مع أبي بكر أيوب

- ٧ -

كما تهتز الأرض الخاشعة الهامدة، وتربو وتنبت من كل زوج بهيج إذا أنزل الله عليها الماء، وكما تتفتح أكمام الزهر بنفحات الربيع، ويبتسم الورد لنسمات الصباح، فيمتلئ الجو عطراً، ويشرق بهاءً وحسناً: كذلك يعمل سلوك العالم الرباني عمله في النفوس، فتنعطف شطر الهداية والتقى، وفي ذات الصدور فتنشرح لكلمة الحق والخير.

وترى ذلك كله مصحوباً بإنارة للقلب والعقل، إنارةً تستقيم معها أعمال الجوارح تبعاً لاستقامة أعمال القلوب.

وما أعظم آثار ذلك في حياة الفرد والجماعة، وإحكام بنية الأمة.

وإنها لحقيقة يشهدها أولو البصائر فيما حفل ويحفِل به تاريخنا من سير أولئك الهداة الربانيين الذين همُّهم العمل بالعلم وتربية الناس على المعرفة الصحيحة وأخذ النفوس بها!!

ومن **هؤلاء البررة المنيبين**: التابعي الجليل أيوب بن كيسان أبي تميمة، الذي وقَفَنا سلوكه - كما سبق القول في ذلك - على أنه قضى رحلة العمر وهو يؤدي أمانة الرواية والدراية لحديث رسول الله ﷺ، عاملاً بالعلم، زاهداً عابداً، مفقِّهاً للناس في دينهم، حريصاً على الإسهام في تزكية نفوس من حوله بالعمل والقدوة، لايرضى بأداء هذه الأمانة بدلاً، ولا يبغي عما فيه سعادة الدنيا والنجاة يوم الدين لنفسه

وللآخرين حولاً، حتى فاضت روحه، ولقي الله صابراً محتسباً على ذلك.

وهذه متفرقات من أخباره ـ يرحمه الله ـ لاينتظمها ناظم معيّن، بل هي من الدُّر المنثور في سلوكه المتكامل المتوازن، على صعيد التأثر والتأثير، يحسن أن تأخذ حقَّها من الدرس والتحليل بالقدر الذي يتَّسع له المقام، كيما تكون ـ بعون الله ـ مع ما سبقها زاداً مباركاً يسهم في إعداد الإنسان المسلم ذكراً كان أو أنثى إعداداً يجمع إلى العلم حرصاً على العمل به، وإلى التربية تزكيةً للنفوس لا تفترق عن استنارة العقول وطهارة القلوب.

من ذلك ما عُلم من عظيم تقديره لما كان يذهب إليه أبوبكر وعمر رضي الله عنهما في فقه الهدي المحمدي وحسن إدراكه لأحقية ما يذهبان إليه، عملاً بما أمر به النبي ﷺ من الاقتداء بهما.

قال صاحب «المعرفة والتاريخ»: حدثنا سليمان بن حرب قال: حدثنا حماد قال: قال أيوب: «**إذا بلغك اختلاف عن النبي ﷺ فوجدت في ذلك الخلاف أبا بكر وعمر، فشُدَّ يديك، وهو الحق وهو السنة**»(١) وأورده الخطيب في كتابه «الفقيه والمتفقه» بلفظ: «**فوجدت في ذلك الاختلاف أبابكر وعمر**»(٢).

وقد أحسن الإمام الفسَوي صنعاً إذ عقَّب ما رُوي عن أيوب رحمه

---

(١) انظر «المعرفة والتاريخ» ليعقوب الفسوي: (١/ ٤٨٠).
(٢) انظر «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي: (١/ ١٧٤).

الله بإيراد بعضٍ مما ورد عن النبي ﷺ في ذلك؛ فروى بسنده عن ربعي بن حراش عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر، واهتدوا بهدي عمار، وتمسكوا بعهد ابن مسعود»**[١].

وما من ريب في أن السلامة كلَّ السلامة كائنةٌ في الموقف الصائب النيِّر من أصحاب النبي ﷺ في إيمانهم واستقامة سلوكهم وجهادهم مع النبي عليه الصلاة والسلام، وأمانتهم في نقل الدين على نور من ربهم إلى الأمة، يتقدمهم أبوبكر وعمر رضي الله عنهم أجمعين؛ صنيعَ أبي بكر أيوب. وتلك سمة بارزة من سمات الفكر المستنير عند ربانيي هذه الأمة جزاهم الله خير الجزء.

وهذا ينقلنا مرة أخرى إلى ما ورد عن تابعينا الجليل المربي أنه كان يقول: **«من أحب أبابكر فقد أقام بيضاء الدين، ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل، ومن أحب عثمان فقد استغنى بنور الله، ومن أحب علياً فقد أخذ بالعروة الوثقى، ومن أحب الثناء على أصحاب رسول الله ﷺ فقد برئ من النفاق، ومن انتقص أحداً منهم فهو مبتدع مخالف للسنة والسلف الصالح، وأخاف ألا يصعد له عملٌ في السماء»**[٢].

البيضاء: الشمس لبياضها، وفلانة بيضاء: نقية العِرض من الدنس والعيوب.

---

(١) «المعرفة والتاريخ» (١/ ٤٨٠).

(٢) تنظر حاشية (٢) من (١/ ١٢٩) من «المحرر الوجيز» لابن عطية.

وهذه الخصال بدلالتها على ماوراءها من الخير، وما تؤذن به من إيمان المتخلق بها: جيء بها للتوكيد والمبالغة في صدق ما تدل عليه وتؤذن به، على سنن ماجاء من قوله عليه الصلاة والسلام: «**الحج عرفة**» تعظيماً لشأن هذا الركن من أركان فريضة الحج، وإن لم يكن هو الركن الوحيد لهذه الشرعة المباركة!

وكم كان هذا العالم الرباني حفياً بأن يكون على هذا النهج الذي كان مستمسكاً به في محبة الصحابة رضي الله عنهم، وقافاً عند تعديلهم في كتاب الله وعلى لسان الرسول عليه الصلاة والسلام.

وهو بهذا يقف على المنهل العذب الذي كان من روافده ما تعلمه من كلمات حكيمات نافعات في هذا الأمر الجلل لحبر الأمة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما. فقد روى عنه أيوب نفسُه ما يدل على عِظم التقدير لعلمهم وعملهم وجهادهم عليه وعليهم الرحمة والرضوان، وما كان لذلك من الأثر الطيب في حياة الأمة على كل صعيد. ثم ما كان يخشى ـ رضي الله عنه ـ من ذهاب العلم بذهاب العالم الراسخ في العلم منهم، ومن عيونهم في هذا الميدان: الإمام الكبير شيخ المقرئين والفرضيين مفتي المدينة كاتب الوحي: زيد بن ثابت رضي الله عنه وأرضاه.

فقد حدّث حماد بن زيد عن أبي بكر أيوب قال: قال ابن عباس ـ وزيد بن ثابت يُدفَن: «**من سرَّه أن يعلم كيف يذهب العلم، ألا فهكذا يذهب العلم**، قال: وقال: **لقد فُقِدَ اليوم بك علمٌ كثيرٌ**» رواه

الفسوي في «المعرفة والتاريخ»[١].

وروى ابن سعد في «الطبقات» عن عمار بن أبي عمار قال: «**لما مات زيد بن ثابت قعدنا إلى ابن عباس في ظلٍّ، فقال: هكذا ذهاب العلم ـ أو هكذا ذهاب العلماء ـ لقد دُفن اليوم علم كثير**»[٢].

وتقرير هذه الحقيقة المتعلقة بهذا العَلم من أعلام الصحابة، بهذه الرائعة من روائع ابن عباس رضي الله عنهما لايخفى عظيم إسهامه في تكوين ما شهدنا من الفكر الصائب النيِّر عند أبي بكر يرحمه الله خصوصاً وأن أبا خارجة زيداً رضي الله عنه كان من الراسخين في العلم.

هذا مسروق بن الأجدع أحد كبار التابعين، ومن المخضرمين الذين أسلموا في حياة النبي ﷺ الإمام العلم ذو التمكُّن في معرفة الرجال ومقدار رسوخهم في العلم يقول: قدمت المدينة، فسألت عن أصحاب النبي ﷺ، فإذا زيد من الراسخين في العلم. وفي رواية أخرى: لقيت زيد بن ثابت فوجدته من الراسخين في العلم[٣].

رحم الله ربانينا أيوب السختياني ورضي ـ بفضله ـ عن زيد وابن عباس، وأعلى مقام الجميع في الآخرين.

* * *

(١) «المعرفة والتاريخ»: (١/ ٤٨٤ـ ٤٨٥).
(٢) «الطبقات الكبرى»: (٢/ ٣٦١ـ ٣٦٢).
(٣) المصدر السابق: (٢/ ٣٦٠) «المعرفة والتاريخ»: (١/ ٤٨٤)، وانظر «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٦٣).

مع أبي بكر أيوب

ـ ٨ ـ

هذا حديث موصول بالكلام على عناية العالم الرباني أيوب بن كيسان بأخبار الصحابة عليهم الرضوان بعامة، والراسخين في العلم منهم بخاصة، الأمر الذي يكشف عن جانب مهم من جوانب تكوينه الفكري المستنير، ونهجه السلوكي الذي يرتبط أيَّما ارتباط بما كان عليه أولئك البررة عليهم الرضوان، الذين يشرق الهدي المحمدي في سلوكهم وتقواهم لله تعالى في الظاهر والباطن.

وما رأيناه من قول أيوب يرحمه الله: قال ابن عباس ـ وزيد بن ثابت يدفن ـ: «**من سرَّه أن يعلم كيف يذهب العلم، ألا فهكذا يذهب العلم، لقد فُقد اليوم علم كثير**» ما رأيناه من هذا القيل الذي يعرِّف الأمة بعظماء رجالها الذين نقلوا إليها عن النبي عليه الصلاة والسلام بيان النبوة لدين الإسلام. . يقودنا إلى حقيقة غاية في الأهمية نقع عليها فيما كان عليه حبر الأمة البحر عبدالله بن عباس رضي الله عنهما من الأدب النفسي، وإعطاء العالم ماهو جدير به من التقدير والاحترام، وكيف أنه ما كان يقعده عن هذه الخصلة الميمونة المعلِّمة المربية: شرفُه في كونه ابن عم رسول الله عليه الصلاة والسلام.

حدَّث الإمام الشعبي علاَّمة العصر الذي سمع من عدة من كبراء الصحابة قال: «ذهب زيد بن ثابت ليركب ووضع رجله في الركاب،

فأمسك ابن عباس بالركاب، فقال: **تنَحَّ يا ابن عم رسول الله ﷺ! فقال: لا، هكذا نفعل ـ أو يفعل ـ بالعلماء والكبراء**». رواه يعقوب الفسوي في «المعرفة والتاريخ» وابن سعد في «الطبقات» والحاكم وصححه، كما أورده الحافظ ابن حجر في «الإصابة» من طريق الشعبي، ونسبه ليعقوب وصحح إسناده[١].

وجاء في رواية أخرى لابن سعد عن أبي سلمة عن ابن عباس: أنه أخذ لزيد بن ثابت بالركاب، فقال: **تنَحَّ يا ابن عم رسول الله ﷺ فقال: إنا هكذا نفعل بعلمائنا وكبرائنا**[٢].

وماذا أنت قائل في كلمة بالغة التأثر والتأثير دالة على أنه لايعرف الفضل لأهل الفضل إلا من يقدرون الفضل حقَّ قدره وكان لهم منه النصيب الأوفر.

حدَّث حماد بن زيد عن يحيى بن سعيد قال: «**لما مات زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال أبوهريرة رضي الله عنه: مات حبر الأمة! ولعل الله أن يجعل في ابن عباس منه خلفاً**»[٣].

وهذا يدل ـ فيما يدل ـ على غيرةِ أبي هريرة على الأمة وهي تفقد واحداً من كبار علماء الصحابة رضي الله عنهم وهو زيد بن ثابت،

---

(١) «المعرفة والتاريخ»: (١/ ٤٨٤) «الطبقات الكبرى»: (٢/ ٣٦٠)، «المستدرك»: (٢/ ٤٢٣)، «الإصابة» للحافظ ابن حجر: (٤/ ٤٢ـ ٤٣).
(٢) «الطبقات الكبرى»: (٢/ ٣٦٠).
(٣) انظر «الطبقات الكبرى»: (٢/ ٣٦٢) «سير أعلام النبلاء»: (٢/ ٤٣٩).

وفراستِه الصادقة في ابن عباس حين رجا أن يجعل الله منه خلفاً لزيد، وأبوهريرة ـ وهو الراوية العلَم الأمين للحديث ـ لايجهل دعوة رسول الله ﷺ لعبدالله بن عباس أن يفقهه الله في الدين ويعلمه التأويل.

ويرحم الله مالك بن أنس ما كان أعرفه بالرجال وأعلمه بمواقع التأثير يوم قال: «**كان إمام الناس عندنا بعد عمر زيدَ بن ثابت، وكان إمام الناس عندنا بعد زيد ابنَ عمر**» رواه صاحب «المعرفة والتاريخ»[١].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن فقه ابن عباس للثُّلمة المخوفة التي يتركها موت العالم العامل في المجتمع الإسلامي، خشية ذهاب العلم بذهاب صاحبه، وما دلَّت عليه كلماته عند دفن زيد بن ثابت رضي الله عنه وهو من الصحابة أهل الرسوخ في العلم.. تجدر الإشارة إلى أن هذا الفقه لون من ألوان الاستيعاب المضيء لهدي النبي ﷺ في ذلك، وما أجدر حبر الأمة أن يكون على هذا السنن المبارك، وهو من هو، فقهاً في الدين، وإدراكاً لموقع العلم النافع في حياة المسلمين!

روى الإمام البخاري بسنده عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبدالله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله لايقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً،**

---

(١) «المعرفة والتاريخ»: (١/ ٤٨٦) و(٢/ ٢٦٥ـ ٢٦٦).

فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا»[1].

وأنت ترى أن كلمات ابن عباس رضي الله عنهما ـ وزيدُ بن ثابت رضي الله عنه يُدفن ـ عنوان فقه ابن عباس لأبعاد هذا الحديث ـ كما أسلفت ـ من حيث ذهاب العلم بذهاب العلماء.

ولا تطول بنا الرحلة حتى نقع على هذا الفهم عند عمر بن عبدالعزيز يرحمه الله؛ إذ خاف ذهاب العلم وضياع حديث النبي ﷺ بموت حملته وحفاظه، فأراد أن تدَوّن السنة كتابة، بجانب كونها محفوظة في الصدور، ومع ما هو معلوم من أن تدوين الأحاديث بدأ من عصر النبي ﷺ بأمره أحياناً، أو بموافقته؛ كالذي ثبت عن علي وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة وغيرهم، الأمر الذي يدل على أن آخر الأمرين كان نسخَ النهي عن الكتابة.

ولكن خامس الخلفاء الراشدين ـ وهو الرجل الرباني الحريص على العلم بعامة وعلى سنة رسول الله ﷺ بخاصة أن يكون لها ـ وهي بيان القرآن ـ وجودها الحقيقي في الأمة! حرص أن تتبنى الدولة تدوينها من صدور الرجال خشية أن يذهب شيء منها بموتهم، فكتب كتاباً إلى أبي بكر بن حزم التابعي موضع الثقة عند عمر بعلمه ودينه الذي استعمله على إمرة المدينة وقضائها، وكان من العلماء العاملين، كتب إليه بما يريد من كتابة الحديث وفصَّل له المنهج الذي يجب أن يسير عليه في ذلك.

---

(١) «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: (١/ ١٩٤) رقم١٠٠.

ومن فقه الإمام البخاري أنه جعل كتاب عمر بن عبدالعزيز مفصَّلا ضمن باب في «كتاب العلم» من «الجامع الصحيح» أورد تحته الحديث المتقدم وهو قوله ﷺ: «**إن الله لايقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد. .**» الحديث.

قال رحمه الله: (بابُ كيف يقبض العلم. وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى أبي بكر بن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ، ولتُفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يُعَلَّم من لايعلم، فإن العلم لايهلك حتى يكون سرًّا. حدثنا العلاء بن عبدالجبار قال: حدثنا عبدالعزيز بن مسلم عن عبدالله بن دينار بذلك. يعني حديث عمر بن عبدالعزيز إلى قوله: «ذهابَ العلماء»[1] ورواه مسلم وأحمد والترمذي وابن ماجه والدارمي[2].

قال الحافظ: فلما خاف عمر بن عبدالعزيز ـ وكان على رأس المائة الأولى ـ من ذهاب العلم بموت العلماء، رأى أن في تدوينه ضبطاً له وإبقاءً. وقد روى أبونُعيم في «تاريخ أصبهان» هذه القصة بلفظ: كتب عمر بن عبدالعزيز إلى الآفاق: انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه[3].

---

(١) «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: (١/ ١٩٤ـ ١٩٥).
(٢) انظر مسلم في «العلم» والترمذي في «العلم» وأحمد في «المسند»: (٢/ ١٦٢، ١٩٠) وابن ماجه في «المقدمة» وكذلك الدارمي في «المقدمة».
(٣) «فتح الباري»: (١/ ١٩٤ـ ١٩٥).

وجميل ما كان من الإمام البخاري من رواية حديث قبض العلم أيضاً ـ بلفظ أخصر ـ في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة تحت باب: ما يُذكر من ذم الرأي وتكلُّف القياس ﴿ولا تقف﴾ لا تقل ﴿ما ليس لك به علم﴾ مصحوباً بما يدل على تثبت عائشة رضي الله عنها وحرصها على التوثيق؛ فروى هناك بسنده عن عروة بن الزبير قال: «حج علينا عبد الله بن عمرو فسمعته يقول: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن الله لا ينزع العلم بعد أن أعطاكموه انتزاعاً، ولكن ينتزعه منهم مع قبض العلماء بعلمهم، فيبقى أناس جهال يستفتون فيفتون برأيهم، فيُضلُّون ويَضلون**». فحدثت به عائشة زوج النبي ﷺ. ثم إن عبدالله بن عمرو حجَّ بعدُ، فقالت: يا ابن أختي، انطلق إلى عبدالله فاستثبت لي منه الذي حدثتني عنه، فجئته فسألته، فحدثني به كنحو ما حدثني، فأتيت عائشة فأخبرتها، فعجبت فقال: والله لقد حفظ ابن عمرو»[1]. وبالله التوفيق.

* * *

(١) «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: (١٣/ ٢٩٥) رقم ٧٣٠٧.

مع أبي بكر أيوب

ـ ٩ ـ

ليس من مكرور القول معاودة التذكير بما يشرق به سلوك الرجل الرباني ـ وهو يؤدي أمانة الدرس والتربية، والتعليم والتزكية؛ اتقاءً لله وطلباً لمرضاته ـ من أن عطاءه على صعيد الصلاح والإصلاح، لا يقتصر على نقل المعارف إلى الآخرين، ومحاولة النهوض بهم إلى مستوى العمل بما يُعَلَّمون، ولكن يتعدَّى ـ بصورة متألقة ـ إلى القدوة التي تؤثر شديد التأثير في شخصية المتلقي، وتحملُ على زيادة الوثوق بنهجه المعرفي النيِّر، وما يوصي به من الخير، كما تؤتي أكلها في انشراح الصدر لتحمُّل مشاق التحصيل والتلقي، والصبر على ما يتطلبه العمل بالعلم، والإسهامُ قدر الطاقة بما فيه صلاح الفرد والجماعة.

حتى إنك لترى في تصرفات هذا العَلَمِ الذي يقوم بما يقوم به طاعة لله تبارك وتعالى، غير غافل عن مراقبته سبحانه فيما يأخذ وما يذر: منهجاً تربوياً عملياً أين منه المناهج النظرية التي تفتقر إلى القدوة، واقتحام ميدان التطبيق، **إنه منهج ينطق بما يشبه الصمت، ولا يني يعطي عطاءه الفاذَّ في التربية والتعليم، وفي التزكية وتقويم السلوك، ناهيك عن تنمية بواعث الإحسان، ومنطلقات البناء، الأمر الذي يسهم في تكوين شخصية المسلم الفاعلة البانية، تكويناً لاتفتقد معه مكارم الأخلاق، ولا يعوزه علو الهمة وصدق العزيمة على طريق استشعار**

المسؤولية أمام الله عز وجل، وأخذ النفس بما يوجبه العمل لإعلاء كلمة الله في نفسه وفي المجتمع من حوله.

وغير خاف أنه كما يعمل التأثير عمله، فكذلك التأثر يَلِدُ ـ بعون الله ـ التأثير وهكذا. ويُستأنس لهذا بما هدى إليه النبي ﷺ من الترغيب في حفظ حديثه وتبليغه الآخرين حيث قال فيما روى أحمد وغيره: **«نضَّر الله امرءاً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلِّغه، فرب مبلَّغ أحفظُ له من سامع»** وفي رواية **«فربَّ مبلَّغ أوعى من سامع»**[1].

أقول هذا والحديث موصول بالرحلة مع متفرقات من أخبار تابعينا الرباني أيوب السختياني، وفي الجَعبة طائفة منها ذات نسب إلى عملية التأثر والتأثير، وما كان لأخذه رحمه الله عن أهل الرسوخ الأتقياء الأنقياء، من الآثار المجدية في عطائه الذي عمل عمله في نفوس من أخذوا عنه وعن أمثاله، ثم فيمن وراءهم من أبناء الأمة جيلاً بعد جيل.

ومن أئمة الهدى الذين أخذ عنهم أيوب، وتأثر بهم علماً وسلوكاً وروى الكثير من أخبارهم: الإمام شيخ الإسلام أبوقِلابة عبدالله بن زيد الجَرْميُّ البصريُّ، الذي كان من خيار التابعين، وروى عن كثير من الصحابة عليهم الرضوان، قال ابن سعد في «الطبقات»: **«كان ثقةً كثير الحديث، وكان ديوانه بالشام»**[2].

---

(١) «المسند»: (١/ ٤٣٧) (٣/ ٢٢٢) أبوداود في «العلم» الترمذي في «العلم» ابن ماجه في المقدمة، الدارمي في المقدمة.

(٢) «الطبقات الكبري»: (٧/ ١٨٣).

وروى صاحب «المعرفة والتاريخ» عن علي بن حَمَلة قال: قدم علينا مسلم بن يسار دمشق، فقلنا له: **يا أبا عبدالله، لو علم الله أن بالعراق من هو أفضل منك، لجاءنا به، فقال: كيف لو رأيتم عبدالله بن زيد أبا قِلابة الجَرْميَّ! قال: فما ذهبت الأيام والليالي حتى قدم علينا أبو قلابة**[(١)].

ولا يعوزك وأنت تستطلع مقدار انتفاع أيوب بأبي قلابة وتأثره به تأثر بناء وتكوين: أن تقع على الكثير مما يدل على ذلك.

حدَّث صالح بن رستَم قال: قال أبوقلابة لأيوب: «**إذا أحدث الله لك علماً فأحْدِث لله عبادة، ولا تكونن إنما همُّك أن تحدث به الناس**»[(٢)].

يوصي أبوقلابة أيوب بهذه الوصية التي تقتضي العمل بالعلم وشكر العالم مولاه على ما يحدث له من علم، لا أن يكون همُّه حبَّ الظهور والمفاخرة. . في الوقت الذي تراه هو مقيماً على الازدياد من العبادة مع توفيق الله إياه في العلم. يقول أيوب: كان أبوقِلابة يعتكف في مسجد قومه، وكان لا يُلقى له فيه حصير ولا شيء، وكان يجلس ناحية، وكان يبيت ليلة الفطر حتى يغدو إلى مصلاه من موضع اعتكافه.

قال أيوب: «وغدوت عليه يوم أفطر ـ وفي حجره جويرية مزيَّنة ـ

---

(١) «المعرفة والتاريخ»: (٢/ ٨٦) وانظر: «السير»: (٤/ ٤٦٨، ٤٦٩، ٥١١).

(٢) «المعرفة والتاريخ»: (٢/ ٦٦) «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي: ص٣٥.

(طفلة) ظننت ـ علمت ـ أنها ابنته، فاعتنقها ثم مضى إلى المصلَّى»[١].

ولم تكن خافية آثار ذلك في سلوك أيوب على سُلَّم اقتضاء العلم العمل، وأن يقترن بكلمة العالم اتقاؤه الله تعالى والإكثار مما يقرب إليه زلفى.

قال صاحب «المعرفة والتاريخ»: حدثنا أبوبكر الحُميديُّ قال: حدثنا سفيان الثوريُّ قال: سمعت عمرو بن دينار والزهري يتمثلان بالشعر في مجالسهما في المسجد الحرام، ورأيت عمرو بن دينار يسمر إلى قريب من ربع الليل ـ يعني بالعلم ـ فإذا ذهبوا دخل أيوب الطواف، فربما دخلت معه، فيقول: لولا أنا أكنت تطوف؟ فأقول: لاتجدني. ثم يقول لي: اذهب[٢].

ومما عرف عنه: شدة محبته للنبي ﷺ وأنه عندما يكون في المسجد النبوي ويقف للسلام عليه يسلم بأدب العالم الخاشع، ويبكي بكاءَ غير متباكٍ، أي بكاءً غير متكلَّف.

وقد مرَّ بنا ـ من قبل ـ أنه رحمه الله كان يقوم الليل يخفي ذلك. فإذا كان قبل الصبح رفع صوته كأنه إنما قام تلك الساعة، وأنه كان لاينصرف عن الصفا والمروة إلى المنزل حتى تصوِّب النجوم من طول القيام والدعاء.

بل كان حفياً بتتبع ما كان يصنعه أهل العزائم الذين همُّهم ـ مع

---

(١) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٦٦ ـ ٦٧).

(٢) «المصدر السابق» (٢/ ١٨).

العلم والنصح للأمة ـ أن يزدادوا تقرباً إلى الله بالنوافل؛ من ذلك ما روى عن أبي قلابة قال: حدثتني أم الدرداء أن أبا الدرداء يجيء بعدما يصبح فيقول: «**أعندكم غداء؟ فإن لم يجد قال: فأنا إذاً صائم**»[١]. ويبدو أن أيوب كان يفعل ذلك. وهذا من هدي النبي ﷺ بسبيل!

ومن دروس القدوة المؤثرة حقاً في سلوك هؤلاء الربانيين أنهم دائماً على الرضا بقضاء الله عز وجل في السراء والضراء: حدث سعد بن سليمان قال: دخلت أنا وأخي على أيوب نعوده وقد طُعنَ ـ أي أصيب بالطاعون ـ وكان أخي أسنَّ مني، وقد اعتقل لسانه، فقال له أخي: بأبي أنت وأمي، أبشر بأبي أنت وأمي بإحدى الحسنيين؛ إما حياةُ الطاعة، وإما وفاةٌ فما عند الله خير للأبرار. قال: فكأنه سرَّه ذلك. قال: ثم أعاده عليه، فكأنه سرَّه ذلك[٢].

هذا: ويبدو أن أبا قِلابة ـ وهو يتفرَّس في أيوب الخير والقدرة على العطاء ـ كان لايني يفتح له مغاليق الأمور في كل صغيرة وكبيرة دليل نورانيته يرحمه الله. يقول أيوب: رآني أبو قلابة وقد اشتريت تمراً رديئاً، فقال: «**أما علمت أن الله قد نزع من كل رديء بركته**»[٣]!

وفي رواية أخرى: رآني أبو قِلابة وأنا أشتري تمراً رديئاً فقال: «**قد كنت أظن أن الله تعالي قد نفعك بمجالسنا، أما علمت أن الله تعالى قد**

---

(١) «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٢/ ٦٦).
(٢) «المصدر نفسه»: (٢/ ٢٦٦ـ ٢٦٧).
(٣) انظر «السير»: (٤/ ٤٧٢)..

نزع من كل رديء بركته»[١]

ولشدَّما تذكرنا مواقفُ أيوب الصُّلبةُ الحازمة من أهل الأهواء والبدع: بانتفاعه وتأثره بما كان عليه أبو قِلابة في ذلك. حدث حماد بن زيد عن أيوب قال: قال أبو قِلابة: «**لاتجالسوا أهل الأهواء ولا تحادثوهم، فإني لا آمن أن يغمُروكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون**»[٢].

وعن أيوب عن أبي قِلابة قال: **إذا حدثت الرجل بالسنة فقال: دعنا من هذا وهات كتاب الله فاعلم أنه ضال**»[٣].

قال الإمام الذهبي: قلت أنا: «وإذا رأيت المتكلم المبتدع يقول: دعنا من الكتاب والأحاديث الآحاد وهات (العقل) فاعلم أنه أبو جهل، وإذا رأيت السالك التوحيدي يقول: دعنا من النقل ومن العقل، وهات الذوق والوجد، فاعلم أنه إبليس قد ظهر بصورة بشر أو حلَّ فيه. . » إلى آخر ما قال يرحمه الله. وصلاة الله وسلامه على مَنْ ترك الأمة على بيضاء نقية لا يزيغ عنها إلا هالك وعلى آله وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

* * *

---

(١) «الحلية»: (٢/ ٢٨٦).
(٢) «الطبقات الكبرى»: (٧/ ١٨٤) «الحلية»: (٢/ ٢٨٧) «السير» (٤/ ٤٧٢).
(٣) «الحلية»: (٢/ ٢٨٧)، «السير»: (٤/ ٤٧٢) وانظر ابن سعد (٧/ ١٨٤).

أيوب.. وأبو قِلابة

- ١٠ -

عندما يدار الحديث عما يكون من التفاعل الخيِّر بين العالم المربي وبين من يأخذون عنه العلم، وتنشرح صدورهم لتربيته بالكلمة والقدوة، وما يهتم به من تزكية نفوسهم، لا غنى عن الإشارة إلى أن من توفيق الله أن يصحب ذلك التحابُّ في الله؛ لما أن اللقاء قائم على ذكر الله ومذاكرة العلم، والتعاون على أخذ النفوس بالعمل به، ولا تسل عما يثمر ذلك من التأثير والتأثُّر، ناهيك عن كونه نوراً على نور، ومائدة ربانية يظفر فيها المتحابُّون فيه سبحانه وتعالى بمرضاته، وأن يكونوا على منابر من نور يوم القيامة! وإن كان أشدُّهما حباً لأخيه أفضلهما في ذلك اليوم.

حدث غيلان بن جرير قال: قال مطرف بن عبدالله بن الشخِّير: «ما كان اثنان في الله إلا كان أشدُّهما حباً لصاحبه أفضلهما، قال: فذكرت ذلك للحسن فقال: صدق مطرِّف»[1].

وددت التذكير بهذه المقولة المباركة وأنا بسبيل المتابعة لشيء من أخبار العلاقة الحميمة بين أبي قِلابة عبد الله بن زيد بن عمروٍ الجرَمي البصري وأيوب السَّختِياني، وما أعقبت على صعيد التأثر والتأثير من الهداية والخير.

(١) «المعرفة والتاريخ»: (٢/ ٩٠).

ولم يكن عجباً من العجب انتفاع أيوب بإبي قلابة وهو على خُبر بعلمه وعقله وورعه وصدقه مع الله. قال حماد بن سلمة: سمعت أيوب ذكر أبا قِلابة فقال: «**كان والله من الفقهاء ذوي الألباب، إني وجد أعلم الناس بالقضاء أشدَّهم منه فراراً، وأشدَّهم منه فرقاً، وما أدركت بهذا المِصْر أعلم بالقضاء من أبي قِلابة. لا أدري ما محمد ـ يعني ابن سيرين**»[(١)].

ويروي أيوب عن عمر بن عبدالعزيز ـ وهو من هو يرحمه الله في معرفته بالرجال وقَدْرِهِ العلماءَ العاملين قدرهم، وإدراكِ أثرهم في الإصلاح على صعيد المجتمع والأمة ـ: يروي عنه ما يدل على عظيم ثقته بأبي قلابة وإدراك موقعه من حركة التغيير إلى ما هو الأفضل.

يقول أيوب: مرض أبو قِلابة بالشام، فأتاه عمر بن عبدالعزيز يعوده فقال: «يا أبا قِلابة، تشدَّد لا تُشمت بنا المنافقين» وفي رواية: «لا يَشمَت بنا المنافقون»[(٢)].

هذا: وقد بلغ من محبة أبي قلابة لأيوب وثقته بدينه وعلمه وأمانته أنه أوصى له بكتبه التي فيها مروياته وآراؤه وعظاته التربوية ووصاياه. قال حماد بن زيد: أوصى أبوقلابة قال: «**ادفعوا كتبي إلى أيوب إن كان حياً، وإلا فأحرقوها**»[(٣)].

---

(١) «الطبقات الكبرى»: (٧/ ١٣٨)، «السير»: (٤/ ٤٧٠).
(٢) «المعرفة والتاريخ»: (٢/ ٦٧)، «السير»: (٤/ ٤٧٢ ـ ٤٧٣).
(٣) «المعرفة والتاريخ»: (٢/ ٨٩).

وقال أيوب: «أوصى أبوقلابة إليَّ بكتبه، فأُتيت بها من الشام، فأعطيت كِراءها بضعة عشر درهماً» أورده الإمام أحمد في «كتاب العلل ومعرفة الرجال» والفسوي في «المعرفة والتاريخ»[(١)].

ويبدو أنه ـ يرحمه الله ـ قد استشار محمد بن سيرين في الحديث من تلك الكتب. قال سلمة بن واصل: مات أبو قلابة رحمه الله بالشام، فأوصى بكتبه لأيوب السختياني، فحملت إليه.

وقال أيوب: فلما جاءتني الكتب أخبرت ابن سيرين، وقلت له: أحدث منها؟ قال: نعم. ثم قال: لا آمرك ولا أنهاك[(٢)]. ولايخفى أن هذا من ورع محمد أجزل الله مثوبته، فلعله لم يطَّلع على ما فيها اطلاعاً يمكِّن من الجزم بما سأل عنه أيوب.

ومما روى أيوب من كتاب أبي قلابة: ما ورى أبو نعيم عن عبدالوهاب بن عبدالمجيد قال: حدثنا أيوب عن كتاب أبي قلابة قال: «**مثل العلماء كمثل النجوم التي يُهتدى بها، والأعلام التي يُقتدى بها؛ فإذا تغيَّبت تحيروا، وإذا تركوها ضلُّوا**»[(٣)] وما روى عنه أيضاً قال: حدثنا أيوب عن كتاب أبي قلابة قال: «**العلماء ثلاثة: فعالم عاش بعلمه وعاش الناس بعلمه، وعالم عاش بعلمه ولم يعش الناس بعلمه،**

---

(١) انظر «كتاب العلل ومعرفة الرجال» للإمام أحمد: (١/ ٣٩٤) «المعرفة والتاريخ»: (٢/ ٨٨ ـ ٨٩).

(٢) «السير»: (٤/ ٤٧٣)، وانظر «الطبقات الكبرى»: (٧/ ١٨٥)، «المعرفة والتاريخ»: (٢/ ٨٨ ـ ٨٩).

(٣) «الحلية»: (٢/ ٢٨٣).

وعالم لم يعش بعلمه، ولم يعش الناس بعلمه»[١].

وهذه كلمات أخر تتبدَّى فيها حصافة أبي قِلابة كما تبدَّت في سابقتيها، وتفسِّر العديد من مظاهر التأثر عند أيوب، يقول أبو قِلابة كما حدَّث أيوب: «**مثل الناس والإمام كمثل الفُسطاط، لايقوم الفسطاط إلا بعمود، ولا يقوم العمود إلا بالأوتاد، وكلما نُزِع وتِد ازداد العمود وهْناً»**[٢].

والعناية بالسنة المطهرة والحيطة في رواية الأحاديث ودرايتها ترينا وجهاً آخر من اتفاق الوجهة في ذلك عند أبي قلابة وأيوب، فضلاً عن التأثير والتأثر.

وكأين من خبر عن كلٍ منهما يكشف عن الموقف المنهجي السديد الذي كانا يقفانه إزاء هذه القضية الكبرى في حياة المسلمين.

جاء في «المعرفة والتاريخ» حدثنا سليمان بن حرب قال: حدثنا حماد بن زيد عن أيوبَ عن أبي قِلابة قال: «**أقمت بالمدينة ثلاثة ومالي بها حاجة، إلا رجل كان في ضيعة له، وبلغني عنه حديث انتظرته حتى يقدمَ فأسأله عنه»**[٣].

وإلى جانب هذا الاهتمام بالحصول على حديث من راوٍ ثقة يضيفه إلى ما لديه من مرويات خدمةً لسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام

---

(١) «الحلية»: (٢/ ٢٨٣).
(٢) المصدر السابق: (٢/ ٢٨٣).
(٣) «المعرفة والتاريخ» للفسوي: (٢/ ٦٦).

التي هي بيان الكتاب الكريم: نجد الحيطة والورع في التحديث حذر الخطأ في اللسان، أو الرياء والمفاخرة بالقلب. حدث بشر بن المفضَّل عن خالد الحذَّاء قال: كنَّا نأتي أبا قلابة فإذا حدثنا بثلاثة أحاديث قال: «قد أكثرت»[١]. وحدَّث أبوبكر بنُ عيَّاش عن عمرو بن ميمون قال: قدم أبوقِلابة على عمر بن عبدالعزيز، فقال له: حدث يا أبا قِلابة: قال: «والله إني لأكره كثيراً من التحديث وكثيراً من السكوت»[٢].

يقول هذا أبو قِلابة ورعاً ـ كما سبقت الإشارة ـ وهو يعلم حق العلم أن عمر بن عبدالعزيز ـ وهو العالم الرباني ـ يتقرب إلى الله بأمره بالتحديث؛ لأنه كان حريصاً الحرص كلَّه على السنة، ويخشى ذهابها بذهاب العلماء ولأن فرقه من ربِّه عز وجل ـ وهو يتولى أمور المسلمين ـ ملك عليه نفسه وقلبه، فهو يخشى أن يقع في شيء من التقاعس والتقصير!

حدَّث المغيرة بن حكيم قال: قالت لي فاطمة بنت عبدالملك امرأة عمر بن عبدالعزيز: **«يا مغيرة، إنه يكون في الناس من هو أكثر صلاة وصياماً من عمر، وما رأيت أحداً قط أشدَّ فرقاً من ربه عز وجل من عمر، كان إذا صلى العشاء قعد في مسجده، ثم رفع يديه، فلم يزل يبكي حتى تغلبه عيناه، ثم ينتبه، فلا يزال رافعاً يديه يبكي حتى تغلبه عيناه»**[٣].

---

(١) «الطبقات الكبرى»: (٧/ ١٨٥) «الحلية»: (٢/ ٢٨٧).
(٢) «الحلية»: (٢/ ٢٨٧).
(٣) «المعرفة والتاريخ»: (١/ ٥٧٠).

وفي عود على بدء: ها هي ذي أخبار أيوب تطالعنا بما كان عليه من حسن التحفِّي بالسنة والكلف بها، شأنَ العالم الرباني الذي يبغي لنفسه ولأمته الخير في الدنيا ويوم الدين. يحدث عبدالوهاب الثقفي عن أيوبَ قال: أتى عليٌّ بن نافع فقال: قدم صديقك عكرمة. قال: فأتيته فسألته فقال: والله لا أحدثك. فقلت: فأمشي معك. قال: نعم. فلقد حدثني بأحاديث كانت أحسن في عيني من الدر[١].

ويذكر له ـ رحمه الله ـ شدة تثبته في شأن الرواية ومن يروي، فليس حاطب ليل يأخذ من هنا وهناك، يقول ابن وهب: سمعت مالك بن أنس ذكر أيوب السختياني وذكر منه فضلاً، وقال: كان أشد الناس تثبتاً[٢].

وحدَّث الإمام الثقة سلاّم بن أبي مطيع قال: قال لي أيوب: كيف تثق بحديث رجل لاتثق بدينه ـ يعني عمرو بن عبيد ـ والمعروف أن عمرو بن عبيد على صلاحه كان معتزلياً داعية إلى بدعته. روى الخطيب عن الإمام أحمد قال: بلغني عن ابن عيينة قال: «قدم أيوب وعمرو بن عبيد مكة، فطاف أيوب حتى أصبح، وخاصم عمرو حتى أصبح»[٣]. ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ!

* * *

---

(١) المصدر السابق: (٢/ ٢٧٢).
(٢) المصدر نفسه: (٢/ ٢٣٣).
(٣) «تاريخ بغداد» للخطيب: (١٢/ ١٧٤ـ ١٧٥).

مع أيوب السختياني

- ١١ -

ما يشهده المرء في سلوك الرجل الرباني من صلة بالعلم النافع، ودأب على العمل به وتعليمه، وفق منهج يجمع بين الارتباط بمنابع الهداية في الكتاب والسنة ثم فهوم أئمة الهدى منهما، وبين تقوى الله ومراقبته ـ جل شأنه ـ في الظاهر والباطن. . ما يشهده المرء في هذا السلوك المتميِّز، لايلبث أن يشهد معه ما أثمر من العطاء الخيِّر النافع المرضيِّ، سواء على ساحة العلم والتعليم، والدرس والتدريس، أو التربية والتزكية والتعاون مع الأخيار على البر والتقوى، وما فيه صلاح المسلمين في الدارين.

وفي اصطحابنا لبعض من المتفرقات في أخبار أيوب بن أبي تميمة كيسان: شهدنا ما كان من عنايته بالسنة المطهرة، والتثبت في تحمُّل الحديث وأدائه، والحيطة في شأن الراوي وما يروي، ودلالةِ ذلك على تأثره بما كان عليه شيخُه أبو قلابة عبد الله بن زيد بن عمروٍ الجرَميُّ وأمثالُه من جهابذة العلم والعمل في ذلك.

ومما يرد في هذا الباب ما حدَّث وُهَيْب بن خالد الباهليُّ عن أيوبَ عن أبي قِلابة عن رجل من بني عامر، قال أيوب: فلقيته فحدثنيه عن رجل منهم: «أنه أتى المدينة في طلب إبل له، فدخل على النبي ﷺ وهو يتغدّى فقال له: **هلمَّ إلى الغداء**. قال: إني صائم. فقال له النبي ﷺ: «**إن**

الصيام قد وُضع عن المسافر، وشطر الصلاة، وعن الحبلى أو المرضع. وفي رواية: **فقال: ادن حتى أخبرك عن الصوم؛ إن الله وضع شطرَ الصلاة عن المسافر، والصومَ عن الحبلى والمرضع**»[١].

وعلى هذا السنن من طاعة هذا الرجل الرباني لله فيما يأخذ وفيما يدع، والحرصِ على التثبت في أمر الحديث خشية الوقوع ولو في شائبة من الوعيد الذي جاء في الحديث المتواتر من قوله ﷺ: «**من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**» نقع على ما جاء في «المعرفة والتاريخ» من قول يعقوب: حدثنا أبو بكر الحميديُّ قال: حدثنا سفيان بن عيينة قال: قلت لأيوب: يا أبا بكر ما منعك أن تسمع من طاوس ـ يعني تكثر عن طاوس ـ قال: «جئت إليه فوجدته بين اثنين: ليث بن أبي سُليم، وعبدالكريم أبي أمية، فرجعت وتركته»[٢].

وعبد الكريم أبو أمية هذا: هو عبدالكريم بن أبي المخارق ضعَّفه الحافظ ابن حجر، وقال عن الليث بن أبي سُليم: صدوق اختلط جداً ولم يتميز حديثه فترك[٣].

وكم أنارت المنهجية الهادية في سلوك التابعين بإحسان، الطريقَ لعلماء الحديث ـ جزاهم الله خير الجزاء ـ فيما دأبوا عليه من تقعيد القواعد النورانية لقبول الحديث وردِّه والاهتمام البالغ بالرواية

---

(١) «المعرفة والتاريخ»: (٢/ ٤٦٩) وانظر «سنن النسائي»: (٤/ ١٥١).
(٢) المصدر السابق: (٢/ ٧١٣)، وانظر «كتاب العلل ومعرفة الرجال» للإمام أحمد: (١/ ١٩).
(٣) انظر «التقريب» للحافظ ابن حجر: (ص: ٤٢٣ وص٥٤٢).

والدراية، الأمر الذي أثمر ـ فيما أثمر ـ بيان المقبول من المردود، وتخليصَ السنة من الشوائب، وذبَّ العادين المتخرصين عنها.

حدث الإمام أحمد فيما روى صاحب «المعرفة والتاريخ» قال: حدثنا عبدالرزاق قال: قال معمر: «رأيت أيوب يعرض على منصور العلم فيجيزه، وكان منصور بن المعتمر لايرى بالعرض بأساً»[١].

وإذا علمت أن ابن المعتمر من أقران أيوب وليس من شيوخه: أدركت أيَّ فضيلة كان يزدان بها سلوك أيوب حين يضع الحق في نصابه، ولا يرى غضاضة ـ على طريق خدمة العلم بعامة، والسنة المطهرة بخاصة ـ في أن يروي عن المنصور ويعرض عليه العلم، ومن ثمَّ تكون الإجازة أو عدمها من منصور.

ويقول الإمام أحمد: حدثنا يحيى عن شعبة قال: سألت منصوراً وأيوب عن القراءة، فقالا: جيد ـ يعني قراءةَ الحديث[٢].

وفي معرض ما يجب أن يتحلَّى به العالم من النصفة والاعتداد بالحق بعيداً عن الرغبات الشخصية: يروي أيوب عن معشر قوله: كان علقمة يصحب عبدالله، وكان الأسود يصحب عمر، ثم يلتقيان فلا يختلفان[٣].

من هنا كان اهتمام ربانينا أبي بكر بأخبار أهل الاستقامة المتقين

---

(١) «المعرفة والتاريخ»: (٢/ ٨٢٧).
(٢) المصدر نفسه: (٢/ ٨٢٨).
(٣) «المعرفة والتاريخ»: (٢/ ٧٧٧).

على اختلاف مواقعهم. هذا حماد بن زيد يروي عنه قوله في حديث عن خامس الراشدين رحمه الله تعالى: قيل لعمر بن عبدالعزيز: يا أمير المؤمنين، لو أتيت المدينة، فإن قضى الله موتاً دُفنتَ موضع القبر الرابع مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، قال: «**والله لأن يعذبني الله بكل عذاب ـ إلا النار فإنه لا صبر لي عليها ـ أحبُّ إليَّ من أن يعلم اللهُ من قلبى أني أرى أني لذلك الموضع أهلٌ**»[١] وفي رواية أخرى: دُفنتَ (في) القبر الرابع بدل (موضع القبر الرابع).

وهذا الذي نرى من التثبتِ في العلم عند أيوب والدوران مع الحق حيث دار: يذكرنا مرة أخرى بما كان يأخذ به نفسه ـ وهو العالم المشهود له بالتمكن والأمانة ـ من الحيطة والحذر في الفتوى والإجابة عما يسأل في دين الله، خوفاً من الوقوع في حمأة القول على الله بما لا يعلم، وفي هذا بالغ العظة التي لا غنى للأمة عنها بحال.

وما أكثر الدروس والعبر التي تصدر عن الرباني بسلوكه المشرق بالتقوى فضلاً عن تعليمه وتزكيته وإرشاده.

ونشدان الحق بعيداً عن الرغبات الذاتية والمعوقات: كان يحمل تابعينا أيوب بن كيسان على أن يكون على الصراط السوي عند الحكم على الرجال، وأن ينقل إلى الأمة ما عُرف عن أولئك الأفذاذ من العلماء العاملين، والرواد الأمناء المخلصين، الذين لا يبارحون نور الهدي

---

(١) «الطبقات الكبرى»: (٥/٢٩٨) «المعرفة والتاريخ»: (١/٦٠٨)، «سيرة عمر بن عبدالعزيز» لابن الجوزي: ص ١٧٤ «البداية والنهاية» لابن كثير: (٩/ ٢١٠).

القرآني، ولا يستبدلون الذي هو من زخرف الدنيا بالذي هو حسن التأسي بالنبي عليه الصلاة والسلام، والاستمساك الجادّ بسنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده عليهم الرحمة والرضوان.

حدَّث حماد بن زيد عن أيوب قال: قال محمد - يعني ابن سيرين -: **«أرى أقواماً يجترئون على أن يُفتوا برأيهم، إني لأحسبُ القرآن لو كان ينزل: نزل بخلاف ما يفتون»**[١].

كما حدث حماد عن شيخه أيوبَ قال: سئل القاسم يوماً عن مسألة فقال: لا أدري، ثم قال: **«ما كل ما تسألوننا عنه نعلم، ولو علمنا ما كتمناكم، ولا حلَّ لنا أن نكتمكم»**[٢]. وأخبار أيوب على هذه الساحة تكشف عن تأثره وانتفاعه بما يرويه في هذا الباب، الأمر الذي أسهم في استنارة عطائه إلى حد بعيد.

ثم إن القاسم المعنيَّ بهذه الرواية: هو القاسم بن محمد بنِ خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق، الإمامُ القدوة الحجة - كما يقول الذهبي - عالم وقته بالمدينة مع سالم وعكرمة. وهو الذي قال عنه يحيى بن سعيد: **ما أدركنا بالمدينة أحداً نفضِّله على القاسم**[٣].

وقد بلغ من ورعه في الإجابة عما يُسأل أنه سئل يوماً فقال: لا أعلم، ثم قال: **والله لأن يعيش المرء جاهلاً بعد أن يعلم حق الله عز وجل عليه خير**

---

(١) «المعرفة والتاريخ»: (٢/ ٦٣).
(٢) «المصدر نفسه»: (١/ ٥٤٨ - ٥٤٩).
(٣) «السير»: (٥/ ٥٣ - ٥٥).

من أن يقول مالا يعلم[١] . ويروى هاشم بن عمار عن الإمام مالك أنه قال: أتى القاسمَ أميرٌ من أمراء المدينة، فسأله عن شيء، فقال: «**إن من إكرام المرء نفسه ألا يقول إلا ما أحاط به علمه**»[٢] .

هكذا يُعَلِّم هؤلاء البررة بالقدوة والعمل، كما يعلمون بالكلمة والوصية.

واستنارة العالم الرباني بنور التقوى فيما يأخذ وفيما يدع: كان لها عظيم الأثر في بناء الثقة بعلم الربانيين وما يعلِّمون؛ لما يتسم به منهجهم من الدقة والتثبت في كل ما هو من العلم النافع ورواية الحديث عن رسول الله ﷺ بسبب. حدث سليمان بن حرب قال: حدثنا حماد بن زيد عن أيوب قال: كتبت إلى نافع أسأله عن قول عبدالله بن عمر في الجراح، فكتب إليَّ لم أسمع فيها من عبدالله بشيء[٣] .

وقال سفيان بن عيينة: حدث زياد بن سعد عن هلال بن أبي ميمونة، فقال له أيوب: ما كنت أرى أنك جالست هذا، هذا يروي عنه يحيى بن أبي كثير. قال: يا أبا بكر قد جالسته[٤] .

والملاحظ أن الرجل الرباني يكون قدوة لا باهتماماته العلمية والتعليمية فحسب، ولكن بالاهتمام ـ كما أسلفنا غير مرة ـ بشؤون الأمة

---

(١) «المعرفة والتاريخ»: (١/ ٥٤٨)، «الفقيه والمتفقه»: (٢/ ١٧٣)، «السير»: (٥/ ٥٧).
(٢) «السير»: (٥/ ٥٧).
(٣) «المعرفة والتاريخ»: (١/ ٦٤٧).
(٤) المصدر السابق: (١/ ٦٤٧ ـ ٦٤٨).

وفي مقدمتها الاهتمام بالشباب وتنمية إعدادهم لحمل الأعباء في ميادين الواجب. ها هو ربانينا أبوبكر يروي عن سعيد بن جبير ـ أكرم الله مثواه ـ قوله: «**سلوني يا معشر الشباب فإني قد أوشكت أن أذهب من بين أظهركم**»[١].

* * *

(١) المصدر نفسه: (١/٧١٣).

مع التابعي ميمون بن مِهران

- ١ -

الحديث عن أولئك العلماء الربانيين من التابعين بإحسان لمن أخذوا عنهم من أصحاب النبي ﷺ، فأحسنوا الأخذ والتلقي، واقتدوا بهديهم - وهم الذين آمنوا برسول الله عليه الصلاة والسلام وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه فأحسنوا الاقتداء - حديث عن التفاعل المثمر البناء في ظل الهدي الرباني، والمسيرة الخيِّرة المباركة التي قادها البشير النذير صلوات الله وسلامه عليه.

وهو التفاعل الذي حمل التأثير والتأثير بين جيل الصحابة عليهم الرضوان جيل الإيمان والصفاء، والجهاد بكل أنواعه والنقاء، وبين من ساقتهم المقادير إلى هذا المحضن المبارك - أعني التابعين بإحسان - فكانوا عند الذي تقتضيه أمانةُ التلقي أخذاً وتحملاً، وأمانة العطاء لمن وراءهم درساً وتعليماً وتزكية، وإرساءً لتلك القواعد النورانية في المنهج الذي يشرق بذلك كله، مزداناً بالدعوة إلى العمل بالعلم، وأن تأخذ القدوة مكانها السابق في التربية والتزكية.

وهذا - على وجه العموم - يذكِّر فيما يذكر بما ورد عن عبدالله بن مسعود وعبدالله بن عمر وأضرابهما رضي الله عنهم أجمعين، من بيان مشرق للخصائص التي تحلّى بها ذلك الجيلُ المتميز الفريد جيلُ الصحابة عليهم رحمات الله ورضوانه، وهم النقلة الأمناء لدين الإسلام إلى الأمة

بدءاً من أولئك الأخيار من التابعين.

ولقد أوردنا فيما سبق من القول شيئاً من كلام ابن مسعود في هذه البابة يقودنا إلى شيء من كلام عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، كيما يكون إيراده زيادة في الإيضاح ونوراً على نور.

عبدالله بن عمر الذي بلغ من تواضعه وأدبه مع الله تعالى: أن يقول له رجل: يا خير الناس ـ أو يا ابن خير الناس ـ فيقول: ما أنا بخير الناس، ولا ابن خير الناس، ولكني عبد من عباد الله أرجو الله تعالى وأخافه، والله لن تزالوا بالرجل حتى تهلكوه»[1].

هذا الصحابي الحجة التقي العلَم يقول: **«من كان مستنًّا فليستنَّ بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ: كانوا خير هذه الأمة، أبرَّها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلَّها تكلفاً؛ قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، ونقل دينه؛ فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب محمد ﷺ، كانوا على الهدي المستقيم والله رب الكعبة. يا ابن آدم، صاحب الدنيا ببدنك، وفارقها بقلبك وهمِّك، فإنك موقوف على عملك. فخذ مما في يديك لما بين يديك عند الموت يأتك الخير»**[2].

ويقول في شأن هذ التأسي والاقتداء علماً وعملاً وصدقاً مع الله: **«لا يكون الرجل من العلم بمكان، حتى لا يحسُدَ مَنْ فوقَه، ولا يحقِرَ مَنْ**

---

(١) «الحلية»: (١/ ٣٠٧).

(٢) المصدر السابق: (١/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦) وانظر «المعرفة والتاريخ»: (١/ ٤٩٠) فما بعد.

دونه، ولا يبتغي بالعلم ثمناً»[١].

وددت أن يكون ما قلته وأوردته كلماتٍ هي بالمدخل أشبه، وأنا بسبيل اصطحاب بعضٍ من أخبار واحد من جِلَّة التابعين وخيارهم، وما كان له من أثر في نشر العلم النافع، وحرص على التربية المشرقة بالتزكية والعمل، وإغناء لتكوين الجيل المسلم بما كان له من تجربة في حياته الحافلة بالحركة النيِّرة طاعةً لله عز وجل.

ذلكم هو الإمام القدوة الحجة عالم الجزيرة ومفتيها: ميمون بن مِهران أبوأيوبَ الجزَريُّ الرَّقي. أعتقته امرأة من بني نصر بن معاوية بالكوفة، فنشأ بها، واستوطن الجزيرة، حيث سكن الرَّقة. وكانت وفاته يرحمه الله سنة سبع عشرة أو ست عشرة ومائة، والرَّقة مدينة معروفة الآن في سورية من بلاد الشام.

حدَّث أبو أيوبَ عن أبي هريرة، وعائشة أم المؤمنين، وابن عباس، وابن عمر، وعبدالله بن الزبير، والضحاك بن قيس الفهري، وأم الدرداء، وصفية بنت شيبة العبدرية، وعمرو بن عثمان، وعمر بن عبدالعزيز، وعديِّ بن عديٍّ الكندي، ونافع، ويزيدَ بنِ الأصم، وسعيد بن جبير، وسعيد بن المسيَّب، وآخرين، وأرسل عن عمر بن الخطاب، والزبير بن العوَّام.

وروى عنه أبان بن أبي راشد القشيري، وحميد الطويل، وابنه عمرو،

---

(١) «الحلية»: (١/ ٣٠٦).

وسليمان الأعمش، وحجّاج بن أرطاة، وأيوب السَّختياني، وعبدالرحمن ابن عمرو الأوزاعي، وأبوالمليح الرَّقي، ومحمد بن أيوب بن سعد الرَّقي، وخلق سواهم. وقد ذكره أبوعَروبة الحرّاني في الطبقة الأولى من التابعين من أهل الجزيرة[١].

وكم يكون حظ الأمة موفوراً حين يتوافر لها أن يكون أدِلاَّؤها على طريق الهداية علماء ربانيين عاملين، يشهد لهم أهل الفضل بالوثوق بعلمهم ونهجهم في الأخذ والعطاء، فقهاً في الدين، وحرصاً على إيصال النفع للمسلمين في اتقاء وإخلاص لله رب العالمين.

وذلك ما نجده ـ ولا نزكي على الله أحداً ـ في تابعينا أبي أيوبَ أجزل الله مثوبته، وأعلى مقامه في الآخرين! روى سعيد بن عبدالعزيز عن سليمان بن موسى قال: **«هؤلاء الأربعة علماء الناس في زمن هشام بن عبدالملك: مكحولٌ، والحسن، والزهريُّ، وميمون بن مِهران»**[٢].

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا العباس قال: حدثنا أبومُسْهِر قال: حدثني سعيد بن عبدالعزيز قال: **«كان علماء الأمة في زمن هشام هؤلاء الأربعة**، فقال: سليمان بن موسى: **إن جاءنا العلم من أهل الحجاز عن الزهري قبلناه، وإن جاءنامن الشام عن محكول قبلناه، وإن جاءنا العلم من الجزيرة عن ميمون بن مهران قبلناه، وإن جاءنا العلم من العراق عن الحسن قبلناه»**[٣].

---

(١) «تهذيب الكمال» (٢٩/ ٢١٢).

(٢) انظر «السير»: (٥/ ٧٢).

(٣) «المعرفة والتاريخ»: (٢/ ٤٠٤)، «تهذيب الكمال» للمزي: (٢٩/ ٢١٥).

والملاحظ أن أبا أيوب قد دخل البيوت من أبوابها في أخذ العلم من مصادره الأصيلة وأهله. حدَّث جعفر بن بُرقان قال: حدثنا ميمون بن مهران قال: أتيت المدينة، فسألت عن أفقه أهلها، فدُفعت إلى سعيد بن المسيِّب، فجعلت أسأله. فقال: إنك تسأل مسألة رجل كان قد تبحَّرما هاهنا قبل اليوم. وفي رواية أخرى: أتيت سعيد بن المسيب أسأله، فقال: ممن أنت؟ فقلت: من أهل الجزيرة، قال: ما أتاني أحد من أهل بلدك يسألني مسألتك، قلت: إني أُسألُ هناك[١].

وعندما يكون العالم موضع الثقة عند أهل التوثيق: فذلك خير يساق إلى الأمة بلا ريب؛ يقول عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل: سمعت أبي يقول: **ميمون بن مهران ثقة أوثق من عكرمة، وذكره بخير**»[٢] ويقول ابن سعد في «الطبقات»: «**كان ثقة كثير الحديث**»[٣].

ولا تعجب بعد هذا إذا كان هذا التابعي الفقيه المحدث الثقة موضع الاهتمام والتقدير البالغين من عمر بن عبدالعزيز الخبير بالرجال، الحريص على نفع الأمة في دينها ودنياها. يقول ميمون: كنت عند عمر بن عبدالعزيز، فلما قمت من عنده قال: «**إذا ذهب هذا وضرباؤه صار الناس بعدهم رجراجة**»[٤] أي: لا خير فيهم. .

---

(١) المصدر السابق: (٢٩/ ٢١٤ ـ ٢١٥).
(٢) المصدر نفسه: (٢٩/ ٢١٣ ـ ٢١٤).
(٣) «الطبقات الكبري»: (٧/ ٤٧٧).
(٤) «تهذيب الكمال»: (٢٩/ ٢١٥) وانظر «النهاية» لابن الأثير مادة رجج.

ويقال: رجراجة ورجرجة. وجاء في «اللسان» لابن منظور: وفي حديث عمر بن عبدالعزيز: الناس رجاج بعد هذا الشيخ ـ يعني ميمون بن مهران ـ هم رِعاع الناس وجهالهم[١]. والله الهادي إلى سواء السبيل، وهو الموفق سبحانه.

* * *

(١) «اللسان» مادة رجج.

مع أبي أيوب ميمون بن مهران

ـ ٢ ـ

إذا ذكر الرجال الذين ترقى بهم نفوسهم الكبار إلى موقع الريادة في الأمة: فحيَّهلا بعلمائها الربانيين العارفين بالله، الذين تراهم ـ وهم يعلِّمون الكتاب ويدرسون ويربون ـ قائمين بأمر الله في نصرة الحق الذي نزل به الكتاب، لايفتؤون يعتصمون بالله، يقولون عنه ـ جل شأنه ـ وعن رسوله ﷺ ما أراد، مستنيرة بهديه عقولهم، مشرقة بنفحات عطائه قلوبهم.

وكلما ازدادوا علماً ومعرفة به سبحانه: ازدادوا مسارعة إلى فعل ما يقربهم إليه زلفى، ويسلكهم في مدارج أهل البر والتقى، عملاً بهذا العلم، واجتهاداً في إيصاله إلى المسلمين، وضرباً في أرض الحياة على طريق الربانية التي تبدأ بهذا السلوك المتميز المرضيِّ لله رب العالمين، وتنتهي بجنة عرضها السموات والأرض أعدت لمن أخلصوا دينهم لله، وعملوا على تحقيق الخير للمسلين، وجاهدوا في الله حق جهاده حتي أتاهم اليقين.

أقول هذا والحديث موصول بالكلام على شيء من أخبار الإمام الحجة عالم الجزيرة ومفتيها أبي أيوبَ ميمونِ بن مِهران الذي لقي الله وهو دائب على نشر العلم، حريص على الإسهام في أن يكون المسلمون على المورد العذب المتمثل بالهدي النبوي، ثم ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من الاستمساك بهذا الهدي المبارك علماً وعملاً في جميع الأحوال.

ولقد يعنينا أن نشير إلى أنه ـ يرحمه الله ـ لم يحجم عن نقل شذرات من أحوالهم ـ وهم الذين شهدوا متنزل الوحي ـ إلى الأمة، فجمع إلى ما كان من تأثره وانتفاعه بسلوك من صحب منهم عليهم الرضوان وأخذ عنهم: أن نصح للمسلمين بنقل هذا الخير العظيم.

حدّث الإمام العلم أبو المليح الرَّقي وهو من عيون من أخذوا عن ميمونٍ ورووا عنه، قال: قال ميمون بن مهران: «**لقد أدركت من لم يتكلم إلا بحق أو يسكت، وأدركت من لم يكن يملأ عينيه من السماء فرقاً من ربه عز وجل، وأدركت من كنت أستحيي أن أتكلم عنده**»[1].

وأورده صاحب «الحلية» مختصراً[2].

وها هو ذا يروي عن حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما أنه أوصاه بوصية يدخل الجنة أن لو عمل بها بسلام. ذلكم قوله ـ أجزل الله مثوبته ـ: قال لي ابن عباس: «**يا ميمون، لا تشتم السلف وادخل الجنة بسلام**»[3] إنه الإرشاد إلى الأدب الخالص مع من سلف من خيار هذه الأمة، وما كان أحرص أبا أيوب على العمل بهذه الوصية طمعاً بما عند الله من حسن العاقبة يوم الدين.

ويقودنا كلَف ميمون بأن لا يفوت الأمة خيرٌ يمكن أن ينقل إليها عمن رضي الله عنهم ورضوا عنه، إلى موقف رواه عن أحد المهاجرين رضي الله

---

(١) انظر «تهذيب الكمال» للمزي: (٢٩/ ٢١٥).

(٢) «الحلية»: (٤/ ٨٨).

(٣) «تهذيب الكمال»: (٢٩/ ٢١٦).

عنه، يكاد يكون الذروة في حسن التوجيه إلى إقامة الصلاة حق إقامتها، والخشوع فيها. روى أبونُعيم بسنده عن يحيى بن عثمان الحربيِّ قال: حدثنا أبوالمليح الحسن بن عمر عن ميمون بن مِهران قال: نظر رجل من المهاجرين إلى رجل يصلي؛ فأخفَّ الصلاة، فعاتبه، فقال الرجل: إني ذكرت ضيعة لي، فقال رضي الله عنه: «أكبر الضيعة أضعته»[1].

وكَلَفُ أبي أيوبَ بإيصال هذا الخير إلى المسلمين يهدينا إلى ما سبق ذلك من انتفاعه ـ كما سبقت الإشارة ـ وعظيم تأثره بمن صحبهم وأخذ عنهم من أولئك الصحب الكرام رضي الله عنهم ورزقنا حبهم على الدوام.

من ذلك ما يقع عليه الناظر في أخباره وهو يؤدي أمانة التعليم والتزكية والنصح للأمة من سديد التوجيه إلى الاستمساك بالهدي الرباني في الكتاب والسنة، والإسهام في تقويم ما يطرأ من اعوجاج عن سبيل الرشد، ونهج المتقين، واقترافِ ما ينافي الإخلاص للعليم بذات الصدور.

استمع إليه في كلمات حكيماتٍ تحمل في ثناياها شديد الغيرة على أن يأخذ القرآن ـ على الدوام ـ موقعه المتألق المؤثر في القلوب والعقول، كيما يكون ـ وهو كلام الخالق البارئ المصوِّر ـ رحمة لأهله وشفاءً لما في الصدور، وأن يكون للإخلاص في إفشاء العلم النافع، وتزكية النفوس هيمنته على سلوك العالم والمتعلم، والمزَكِّي، ومن تطلب تزكيته، فلا تكون الدنيا بما فيها من الزخرف والمتاع الزائل هي المطلوب، ولا المماراة وحب الظهور هما المرغوب.

---

(١) انظر «الحلية»: (٤/ ٨٤).

حدث جعفر بن بُرقان قال: سمعت ميمون بن مِهران يقول: «**إن هذا القرآن قد خَلُق في صدر كثير من الناس، والتمسوا ما سواه من الأحاديث** ـ يعني أحاديث الدنيا ـ **وإن فيمن يبتغي هذا العلم: من يتخذه بضاعة يلتمس بها الدنيا، ومنهم من يريد أن يشار إليه، ومنهم من يريد أن يماري به. وخيرُهم من يتعلَّمه ويطيع الله عز وجلَّ به**»[(١)].

وتشتد النذارة في هذه القضية ذات النسب إلى التوحيد، شدةً يُبتغى من ورائها تثبيتُ المؤمن على حال يدور فيها مع الهدي القرآني حيث دار، فلا يزال به القرآن حتى يقوده إلى الجنة دار المقربين المتقين، والمباعدةُ بينه وبين أن يكون ممن يتخذون القرآن ظهرياً، فلا يلبث أن يقذف في النار مثوى المعرضين المتكبرين. يقول جعفر أيضاً: سمعت ميموناً يقول: «**من تبع القرآن قاده القرآن حتى يُحلَّ به الجنة، ومن ترك القرآن لم يدعه القرآن، يتبعه حتى يقذفه في النار**»[(٢)].

ومن حسن صنيعه ـ وهذا من أخلاق الربانيين ـ ما يلاحظ من الوضوح الجازم في التنبيه على ما يبدو في الظاهر انحرافاً سلوكياً خاصاً بصاحبه، ولكنه في حقيقته انحراف يسيء إلى الجماعة أيَّما إساءة.

انظر إليه ينبه أهلَ القرآن على وجوب أن يصلحوا ما بينهم وبين الله؛ ففي ذلك صلاح أنفسهم وصلاح الناس، نقرأ في ذلك قوله: «**لو أن أهل**

---

(١) «الحلية»: (٤/ ٨٤).

(٢) المصدر نفسه: (٤/ ٨٤).

القرآن أصلحوا لصلح الناس»(١) وقال عيسى بن سالم الشاشيُّ عن أبي المليح الرَّقي: سمعت ميمون بن مِهرانَ يقول: «**يا أصحاب القرآن، لا تتخذوا القرآن بضاعة تلتمسون به الشفَّ ـ يعين الربح ـ في الدنيا، والتمسوا الدنيا بالدنيا والآخرة بالآخرة**»(٢).

ومن الجدير بالذكر أنه على كون مصطلح «أهل القرآن» يومذاك أعمَّ وأشمل منه في عصرنا الحاضر: يظل تذكير أبي أيوب ـ وهو على غاية الأهمية ـ نوراً على طريق العلماء العاملين والدعاة المخلصين.

ومهما يكن من أمر: فإن وراء عظاته الثمينة لأهل القرآن قلباً موصولاً بالله، إذا ذكر الله وَجل، وعملت الآية القرآنية ـ خوفاً ورجاءً ـ عملها فيه. يقول أبوالمليح: قرأ يوماً ميمون: ﴿ وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٩ ﴾(٣) فرقَّ حتى بكى، ثم قال: ما سمع الخلائق بعتب أشد منه قط»(٤).

وهذا الموقف من تابعينا الجليل يذكِّر بقول داود بن الجرَّاح: «فيمتاز المسلمون من المجرمين، إلا أصحاب الأهواء، فيكونون مع المجرمين»(٥) وإذا كان الأمر كذلك: فأين أصحاب الأهواء من البَّكائين من خشية الله!!

* * *

---

(١) المصدر السابق، وانظر «تهذيب الكمال»: (٢٩/ ٢١٩).
(٢) «تهذيب الكمال»: (٢٩/ ٢١٩) وانظر «الحلية»: (٤/ ٩٠).
(٣) سورة يس، آية: ٥٩.
(٤) «الحلية»: (٤/ ٩٢).
(٥) انظر «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي: (١٥/ ٤٦).

مع أبي أيوب ميمون بن مهران

ـ ٣ ـ

في حديث موصول بتقليب صفحات من أخبار التابعي العلم المعلِّم ميمون بن مِهران: نذكر قول المؤرخ الفقيه الأديب ابن العماد الحنبلي رحمه الله في كتابه «شذرات الذهب» وهو يتحدث عن سنة سبع عشرة ومائة: (وفيها مات قاضي الجزيرة ميمون بن مهران الرَّقي أبو أيوب الفقيه، كان من العلماء العاملين، روى عن أبي هريرة وعائشة وطائفة)[(١)].

والعمل بالعلم يعني تقوى الله في الظاهر والباطن، وأن يكون هذا العالم مثلاً يُحتذى في استقامة السلوك، يربي بالقدوة وحسن السيرة، كما يربي بالتعليم والدرس شأن أهل القرب الربانيين، وذلك ما أشار إليه أبو نعيم في «الحلية» إذ قال في مستهلِّ ترجمة أبي أيوب: (ومنهم الحكيم اليقظان أبو أيوب ميمون بن مِهران. إمام أهل الجزيرة، حميد السيرة، سديد السريرة»[(٢)].

والنسب واضح بين هذه الفضائل التي هي وليدة العلم والعمل، وبين ما كنا بسبيله ـ فيما أسلفنا من القول ـ من اهتمام تابعينا الجليل بالقرآن وسلوك أهله. وهذا يقودنا إلى ما كان من وافر صدقه ـ يرحمه الله ـ في هذه البابة من الخير، وما ظهر من آثار ذلك في مخالطته القلبية للكتاب الكريم،

---

(١) انظر «شذرات الذهب» لابن العماد الحنبلي: (١/ ١٥٤).

(٢) انظر «الحلية»: (٤/ ٨٢).

واستنارة سلوكه بهذه المخالطة التي هي من عظيم النعماء .

روى أبو نعيم بسنده عن علي بن الحسن الحلبي قال: حدثني عمرو بن ميمون بن مِهران قال: خرجت بأبي أقوده في بعض سكك البصرة، فمررت بجدول، فلم يستطع الشيخ يتخطاه، فاضطجعت له فمرَّ على ظهري، ثم قمت فأخذت بيده، ثم دَفَعْنا إلى منزل الحسن ـ يعني البصريَّ ـ فطرقت الباب، فخرجت إلينا جارية سداسية، فقالت: من هذا؟ قلت: هذا ميمون بن مِهران، أراد لقاء الحسن، فقالت: كاتب عمر بن عبدالعزيز؟ قلت لها: نعم! قالت: يا شقي ما بقاؤك إلى هذا الزمان السوء! قال: فبكى الشيخ، فسمع الحسن بكاءه، فخرج إليه، فاعتنقا، ثم دخلا. فقال ميمون: يا أبا سعيد، قد أنست من قلبي غلظة فاستلن لي منه؛ فقرأ الحسن: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾[1].

قال: فسقط الشيخ، فرأيته يفحص برجله كما تفحص الشاة المذبوحة، فأقام طويلاً ثم أفاق. فجاءت الجارية فقالت: قد أتعبتم الشيخ قوموا تفرقوا؛ فأخذت بيد أبي، فخرجت به، ثم قلت: يا أبتاه! هذا الحسن، قد كنت أحسَب أنه أكبر من هذا! قال: فوكزني في صدري وكزة ثم قال: يا بنيَّ، لقد قرأ علينا آيةً لوفهمتها بقلبك، لأبقى لها فيك كلوماً، وفي رواية: لألفي، أو لصار فيه ـ أي في القلب ـ كلوم[2].

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٢٠٥ ـ ٢٠٧.

(٢) «الحلية»: (٤/ ٨٢ ـ ٨٣) وانظر: «تهذيب الكمال» للمزي: (٢٩/ ٢٢٤ـ ٢٢٥).

وروي أن ميموناً لقي الحسن في الطواف، وكان يتمنى لقاءه. فقال له: عظني، فلم يزده على تلاوة هذه الآيات، فقال ميمون: لقد وعظت فأبلغت[١].

والذي يبدو أن الآيات الكريمات المذكورة ـ وهي من سورة الشعراء ـ كانت تعمل عملها دائماً في قلوب أهل التدبر والاعتبار؛ فقد أورد الحافظ ابن كثير عند تفسيرها الحديث الصحيح الذي رواه مسلم وأحمد وغيرهما، وهو قوله ﷺ: «**يؤتى بالكافر، فيغمس في النار غَمسةً، ثم يقالُ له: هل رأيت خيراً قط؟ هل رأيت نعيماً قط؟ فيقولُ: لا، ويؤتى بأشدِّ الناس بؤساً كان في الدنيا، فيُصبغُ في الجنة صَبغةً، ثم يقالُ له: هل رأيت بؤساً قط؟ فيقول: لا**» أورد هذا الحديث ثم قال: أي ما كان شيء كان. ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتمثل بهذا البيت:

كأنك لم توتَره من الدهر ليلة إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب[٢]

لم توترْ: لم تُنقص.

وما أكثر ما كان عند عمر بن عبدالعزيز من مشابه بجده عمر بن الخطاب. جاء في «أحكام القرآن» للإمام القرطبي: (وعن الزهري: **أن عمر بن عبدالعزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته، ثم قرأ** ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ ثم يبكي ويقول:

---

(١) انظ «روح البيان» للبروسوي: (٦/ ٣٠٩).
(٢) «تفسير القرآن العظيم»: (٦/ ٢٥٩٩).

نهــارُك يــامغــرورُ سهــوٌ غفلــةٌ وليلُــك نــومٌ والــرَّدَى لــك لازمُ
فَلا أنـتَ فـي الأيقـاظ يقظـانُ حـازمٌ ولا أنـتَ فـي النُّوَّامِ نـاجٍ فسـالـمُ
تُسَـرُّ بمـا يَفْنـى وتفـرحُ بـالمنـى كما سُرَّ باللذاتِ في النومِ حالمُ
وتسعـى إلـى مـا سـوف تكـره غِبَّـه كذلك في الدنيا تعيشُ البهائمُ[1]

الغِبُّ والمغبَّة: العاقبة؛ فالمعنى: وتسعى إلى ما سوف تكره عاقبته.

ولعل هذا هو ما أراده الواعظ يحيى بن معاذ ـ وكان من كبار المشايخ ـ بقوله: (**أشد الناس غفلة من اغتر بحياته الفانية، والتذَّ بموداته الواهية، وسكن إلى مألوفاته**)[2].

واليقظة الإيمانية التي تباعد عن الغفلة والركون إلى زخرف الدنيا، مطلب عظيم يبغيه النَّصحة للجميع؛ ومن تذكيرهم مَن أوتي نعمة البيان في الدنيا، واستهواه ما أوتي، حتى استبدل الغفلة بالتقوى، وركن إلى تأييد الظلم وتزيين الباطل: قول الحافظ الإمام أبي عمر هلالِ بنِ العلاء الباهليِّ عالمِ الرَّقَّة الصدوق.

سيبلـى لســان كــان يُعــرب لفظَــه فيــاليتــه مِــنْ وقفــة العَـرض يسلـم
ومـا تنفـع الآداب إن لـم يكـن تقـىً وما ضرَّ ذا تقوى لسان معجَّم[3]

وفي عود على بدء: لا يعدم الناظر في النهج الذي كان يحكم سلوك أبي أيوب: ما يؤكد ما سبقت الإشارة إليه من مخالطته القلبية للقرآن

---

(١) انظر «الجامع لأحكام القرآن»: (١٣/ ١٤١).
(٢) «تفسير روح البيان»: (٦/ ٣٠٩) وانظر «الحلية»: (١٠/ ٥٢ ـ ٥٣).
(٣) انظر «سير أعلام النبلاء»: (١٣/ ٣١٠).

مخالطة أثمرت التدبر المطلوب، وزيادة الإيمان بعلاّم الغيوب، وأصبح ما جاء به الخبر الصادق عن عالم الغيب كأنه من عالم الشهود، يحيط به الحسُّ والمشاهدة بيقين! حدث أبو المليح الرَّقيُّ عن ميمونٍ قال: (**ما أحب أني أعطيتُ درهماً في لهو وأن لي مكانه ألفاً**) يخشى من فِعْل ذلك أن يكون ممن تعنيهم هذه الآية ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[1].

وهذا من الفهم السليم للآية وخشية الوقوع فيما حملت من الوعيد بمكان؛ دليلَ صفاء القلب، وحسنَ التلقي لهدي الكتاب العزيز وعداً كان أو وعيداً؛ ذلك بأن بعض أهل التأويل يرى أن الوعيد بالعذاب المهين في الآية ليس مقصوراً على الشراء بالمال، ولكنه يتعدى إلى أن يكون الفعل استحباباً للهو الحديث. قال قتادة رحمه الله: (**والله لعله لا ينفق فيه مالاً، ولكنْ اشتراؤه استحبابه، بحسْب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق، وما يضرُّ على ما ينفع**)[2].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[3]، يقول أبو أيوب: وعيد للظالمين وتعزية للمظلومين[4].

وفي تأثرٍ بعطاء الكلمة القرآنية تأثراً مشرقاً بخشية الله يقول في

---

(١) سورة لقمان، آية: ٦.
(٢) انظر «تفسير القرآن العظيم»: (٦/ ٢٧٤).
(٣) سورة إبراهيم، آية: ٤٢.
(٤) «الحلية»: (٤/ ٨٣ـ ٨٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾[١]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[٢]، فالتسموا الهذين الرصدين جوازاً[٣].

* * *

(١) سورة النبأ، آية: ٢١.

(٢) سورة الفجر، آية: ١٤.

(٣) المصدر السابق: (٤/ ٨٤).

مع ميمون بن مهران

ـ ٤ ـ

سبحان الذي تفضَّل على عباده الربانيين، وعلماء الأمة العاملين، بما تفضَّل به من إقامتهم على ثغر النصح للأمة في دينها ودنياها، فنراهم يعلِّمون الكتاب ويدرسون، ويجد الناس في استقامة سلوكهم القدوة الحسنة التي تعطي عطاءها المتميز على ساحة التربية والتزكية، وشحذِ العزائم في طاعة الله تعالى، وحمل النفس على علو الهمة في التقرب إليه، والجهاد في سبيله مع صدق التوكل عليه.

وأنت واجد أن وراء ذلك النهج المستقيم الذي ينفع الله به العباد والبلاد: إخلاصُ المحبة له سبحانه، ولرسوله عليه الصلاة والسلام. وآية ذلك صدق الاستمساك بالكتاب والسنة بعلم وعمل دائبين، الأمر الذي ينير السبيل، ويجعل القلب مطمئناً بذكر الله، والعمل مشرقاً بنور الله. سئل بعض أهل السلوك عن المحبة فقال: (**أن تحبَّ ما أحبَّ الله، وتُبغض ما أبغض الله، وتفعل الخير كلَّه، وترفضَ كل ما يشغل عن الله، وأن لا تخاف في الله لومة لائم، مع الرحمة للمؤمنين، والشدةِ على الكافرين، واتباعِ رسول الله ﷺ في الدين**)[1].

وددت اصطحاب هذه الكلمات وأنا بسبيل متابعة الحديث عن كاتب

---

(١) «الطبقات» لأبي عبد الرحمن السُّلمي: (ص١٨) وانظر «الحلية»: (٩/٣٥٣) «السير»: (١١/٥٣٥).

عمر بن عبد العزيز ميمون بن مِهران أبي أيوب، وما أكثر فضائله ـ يرحمه الله ـ وأوفر ما حصل له من النفع الأخروي بصحبة الهادين المهديين، وهو القائل ـ يرحمه الله ـ: (**أدركت** ـ يعني من الصحابة ـ **من لم يكن يملأ عينيه من السماء خوفاً من ربه عز وجل**)[(١)].

ولكم أعطى هذا التابعي بإحسان من الدروس على طريق الحضِّ على مجالسة العلماء العاملين، والحرص على الإفادة من علمهم وأخلاقهم لما أن في ذلك صلاح القلب واستنارة العقل، حدّث عطاء بن مسلم عن أبي المليح قال: سمعت ميموناً يقول: (**العلماء هم ضالتي في كل بلدة وهم بغيتي، ووجدت صلاح قلبي في مجالسة العلماء**)[(٢)] وفي رواية أخرى: (**بنفسي العلماء، وجدت صلاح قلبي في مجالستهم، هم بغيتي في أرض غربة، وهم ضالَّتي إذا لم أجدهم**)[(٣)].

وعندما ترجع البصر في حياة الرجل الرباني لا يعوزك أن تقع على الكثير الكثير من الوقائع التي تدل أوضح الدلالة على العلم المزدان بحقائق الكتاب والسنة، والعمل بهذا العلم على هدىً وبصيرة.

جاء في «السير» للإمام الذهبي: (بقية بن الوليد قال: أخبرنا عبد الملك بن أبي النعمان الجزريُّ عن ميمون بن مهران قال: **خاصمه رجل في الإرجاء، فبينما هما على ذلك، إذ سمعا امرأة تغني، فقال**

(١) «الحلية»: (٤: ٨٨).
(٢) المصدر السابق: (٤/ ٨٥).
(٣) «تهذيب الكمال» للحافظ المزي: (٢٩/ ٢٢٠).

ميمون: أين إيمان هذه من إيمان مريم بنتِ عمران؟! فانصرف الرجل ولم يردَّ عليه)[١].

كذا أراد ميمون أن يثبت بمقالته هذه أن الإيمان قول وعمل، وأنه يزيد وينقص، وأنه تتفاوت نسبته بين مؤمن وآخر، وهو مذهب جمهور سلف الأمة؛ ونصوص الكتاب العزيز وما صحَّ من حديث النبي ﷺ تؤيده أوضح تأييد. والمرجئة المبتدعة يقولون: لا يضرُّ مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة. ومخالفة ذلك لما دلَّت عليه تلك النصوص، وما فهمه أئمة الهدى منها: لا تخفى على ذي بصيرة. قيل لوهب بن منبه: **(أليس «لا إله إلا الله» مفتاح الجنة؟ قال: بلى، ولكن ليس مفتاح إلا وله أسنان؛ فإذا جئت بمفتاح له أسنان فُتح لك، وإلا لم يُفتح لك)**. ذكره البخاري تعليقاً في أول باب في كتاب الجنائز من «الجامع الصحيح»[٢] ووصله أبو نُعيم في «الحلية»[٣].

وإذا وقر الإيمان في الصدر، وسلمت للمرء عقيدة التوحيد الخالص: كان ذلك سبيلاً لتحقق العبودية لله تعالى، ولزوم تقواه في الظاهر والباطن. حدّث أبو المليح أن رجلاً قال لميمون: **يا أبا أيوبَ، ما يزال الناس بخير ما أبقاك الله لهم، فقال له ميمون: أقبل على شأنك أيها الرجل، فما يزال**

---

(١) انظر «السير» (٥/ ٧٣).

(٢) «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: (٣/ ١٠٩) وانظر «شرح السنة» للإمام البغوي: (١/ ٤٧).

(٣) «تهذيب الكمال»: (٢٩/ ٢٢١) وانظر «الحلية»: (٤/ ٩٠) «السير»: (٥: ٧٥).

الناس بخير ما اتقوا ربهم. وفي رواية: **لا يزال الناس بخير ما اتقوا الله**[١].

لله ما أجلَّ هذا الموقف الذي يدلُّ ـ فيما يدلُّ ـ على التواضع والأمانة في النصح مجتمعين.

وإذا ذكرنا أن «**ما**» في قوله: «**ما اتقوا الله**» مصدرية ظرفية ـ كما يقول أهل العلم ـ تبيَّن لنا ما أراده أبو أيوب من تقرير أن المسلمين ما يزالون بخير في دينهم ودنياهم وعاقبة أمرهم ما داموا متقين لله تعالى، بالمعنى الشامل للتقوى، ذاك الذي دلَّت عليه نصوص الكتاب والسنة، وسار عليه أهل السبق المقربون، وهو المعنى الذي ينبغي أن يُستنار به في كل شأن من شؤون المسلم دَقّ أو جَلَّ، في الظاهر والباطن، والسرِّ والعلن، كائناً ما كان الثغر الذي أقام الله عليه هذا المسلمَ ذكراً كان أو أنثى.

وما أجمل ما كان من حرص أبي أيوب أن يكون هو في نفسه، ومن هو مؤتمن على هدايتهم سواء السبيل: على هذا السنن طاعةً لله تعالى، واتقاءً له في الشؤون والأحوال كافةً.

يقول رحمه الله: **(لا يكون الرجل من المتقين حتى يكون لنفسه أشدَّ محاسبة من الشريك لشريكه، وحتى يعلم من أين ملبسُه ومطعمُه ومشربُه أمن حلٍّ ذلك أم من حرام؟)** وفي رواية: **(حتى يحاسبَ نفسَه أشدَّ من محاسبته شريكه)**[٢].

---

(١) «تهذيب الكمال»: (٢٩/ ٢٢١) وانظر «الحلية»: (٤: ٩٠) «السير»: (٥: ٧٥).
(٢) «الحلية»: (٤: ٨٩) «تهذيب الكمال»: (٢٩/ ٢١٨ ـ ٢١٩). وانظر «صفة الصفوة» لابن الجوزي: (٤: ١٦٥).

ولكم يبدو الربانيون حِراصاً على حسن عاقبة من يوليهم الله أمرهم، وآية ذلك دوام التذكير بالدأب على عمل الصالحات، حتى إذا نزل الموت بصاحبه كان على طاعة لله عز وجل. ذلكم قول أبي أيوب: (**لا يزالنَّ أحدكم حديثَ عهد بعمل صالح، فإنه أهون عليه حين ينزل به الموت أن يتذكّر عملاً صالحاً قد قدّمه**)[١].

وتحري الحلال، واتقاءُ الشبهات، بل وتركُ شيء من الحلال حذر الوقوع بشيء مما ليس بحلال: من أجلِّ عمل الصالحات، وأخذِ النفس بتقوى الله عز وجل. أخرج أبو نعيم بسنده من رواية أحمد عن خالد بن حيَّان قال: حدثنا جعفر بن بُرقان عن ميمون بن مهران قال: (**لا يسلم للرجل الحلال حتى يجعلَ بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال**)[٢].

وهذه الكلمات الحكيمات التي لا تبلى جدتها، حتى كأنها موعظة للكثيرين منا في هذا العصر: ذات نسب مشرق إلى هدي النبوة؛ فقد روى الترمذي وابن ماجه والحاكم عن عطية السعدي ـ وكان من أصحاب النبي ﷺ أن النبي ﷺ ـ قال: «**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به البأس**»[٣] قال المناوي: (أي يترك فضول الحلال

---

(١) انظر «الحلية»: (٤/ ٨٤).
(٢) «الحلية»: (٤/ ٨٤).
(٣) «الجامع الصحيح ـ السنن ـ» للترمذي: كتاب صفة القيامة والرقائق والورع: (٢٤٥١) «تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي» للمباركفوري: (٧/ ١٤٧ ـ ١٤٨) (٢٥٦٩). وانظر «تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف» (٩٩٠٢) للمزي.

حذراً من الوقوع في الحرام)[١] . ومما قاله الإمام السندي : (حتى لا يعتاد على المستلذات من الحلال خوفاً من إفضاء ذلك إلى الحرام إذا لم يتيسر الحلال بسبب غلبة العادة)[٢] .

وما أكثر ما كان رحمه الله يوصي بالتقوى والاستقامة على أمر الله في الأحوال جميعها. يقول أبان بن أبي راشد القشيري : (**كنت إذا أردت الصائفة أتيت ميمون بن مِهران أودعه، فما يزيدني على كلمتين : اتق الله، ولا يغيِّرك طمع ولا غضب**)[٣] .

الصائفة : غزوة الروم؛ لأنهم كانوا يُغزَوْنَ صيفاً لمكان البرد والثلج .

وقال أبو المليح : سمعت ميموناً يقول : (**لا خير في الدنيا إلا لأحد رجلين : رجلٍ تائب، ورجل يعمل في الدرجات**)[٤] .

وفي موعظة مؤثرة للشباب والشيوخ يقول : (**يا معشر الشباب، قوَتكم! اجعلوها في شبابكم ونشاطكم في طاعة الله . يا معشر الشيوخ حتى متى؟!**)[٥] .

والحمد لله رب العالمين . وصلى الله وسلم وبارك على معلم الناس الخير وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان .

❊ ❊ ❊

---

(١) وانظر «تحفة الأحوذي» شرح الترمذي : (٧/ ١٤٧-١٤٨) .
(٢) انظر «شرح السندي لسنن ابن ماجه» : (٤/ ٤٧٥) الحديث (٤٢١٥) .
(٣) «الحلية» : (٤/ ٨٥) .
(٤) انظر «صفة الصفوة» لابن الجوزي : (٤/ ١٦٥) .
(٥) «تهذيب الكمال» للمزي : (٢٩/ ٢١٩) وانظر «الحلية» : (٤/ ٨٧) .

مع ميمون بن مهران

ـ ٥ ـ

ما رأينا فيما سبق من القول من حرص أبي أيوب ميمون بن مهران على أن يكون هو في خاصة نفسه على الهدي المستقيم، اتقاءً لله في السر والعلن، ومراقبةً له جل ثناؤه في الظاهر والباطن، ومن دأبه على نصح الآخرين بأن يكونوا كذلك، لما إن المؤمن يحبُّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه.

ما رأينا من هذا السلوك المشرق بحسن التأسي بالنبي ﷺ: يقودنا إلى شذرات أخر في هذا الباب تزيد الأمر وضوحاً على وضوح. حدَّث جعفر ابن بُرقان قال: سمعت ميمون بن مهران يقول: (**من كان يريد أن يعلم منزلته عند الله عز وجل، فلينظر في عمله، فإنه قادم على عمله كائناً ما كان**)[١].

وإنها لقاعدة نورانية تدعو بحرارة إلى العلم والعمل، وأن يكون تذكر الارتباط بين العمل الصالح وبين العاقبة يوم الدين: بحسبان، وأن العامل بها يكون أقدرَ على التحرر من سجن الغفلة، وأبعدَ عن الوقوع في مهاوي التسويف والكسل والفتور، لا يني يعمل جاهداً لإصلاح ما بينه وبين مولاه عز وجل، كيما يكون على الجادّة وفاءً بما هنالك من عهود ومواثيقَ، الوفاءُ بها ميزان الصدق مع الله والالتزام بحق العبودية لا محالة.

ولعل مما يؤكد ذلك: ما جاء في لفظ آخر لهذه الكلمة الحكيمة من

---

(١) انظر «الحلية» لأبي نعيم: (٤/ ٨٤).

قوله شكر الله له: **(من أحبَّ أن يعلم ما له عند الله، فليعلم ما لله عنده، فإنه قادم على ما قدَّم لا محالة)**[١].

وها هو ذا يقول ـ كما جاء في صفة الصفوة ـ: **(الصبر صبران، والذكر ذكران: فذكر الله عز وجل باللسان حسن، وأفضل منه أن تذكر الله جل وعز عند ما تشرف عليه من معاصيه، والصبر عند المصيبة حسن، وأفضل منه أن تصبر نفسك على ما تكره من طاعة الله عز وجل، وإن ثقل عليك)**[٢].

ويذكِّر بصنيع من لقي من الصحابة رضي الله عنهم وأخذ عنهم، لما أنهم القدوة المباركة بعد الرسول عليه الصلاة والسلام فيقول: **(وأدركت من لم يتكلم إلا بحق أو يسكت، وأدركت من لم يكن يتكلم بعد صلاة الفجر حتى تطلع الشمس إلا بما يصعد)**[٣] يعني بذلك ـ والله أعلم ـ الكلم الطيِّب المعنيَّ بقوله تعالى في سورة فاطر: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾[٤].

وقد ثبت عن غير واحد من السلف أن الكلم الطيب هو الذكر والتلاوة والدعاء، ويلحق بذلك كل كلام هو من البر بسبب كالعلم والنصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أنه ينفع صاحبه في الآخرة ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي

---

(١) «الحلية»: (٤/ ٩١).
(٢) «صفة الصفوة»: (٤/ ١٦٦).
(٣) المصدر السابق: (٤/ ١٦٦).
(٤) سورة فاطر، آية: ١٠. وانظر «تفسير القرآن العظيم»: (٦/ ٢٩٠٧) «روح المعاني» للآلوسي: (٢٢/ ١٧٤).

كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[١] .

وفي هذا يقول ميمون: «ما من صدقة أفضل من كلمة حق عند إمام جائر»[٢]

وفي نور الكلم الطيب لا يعوزك أن تقع عند تابعينا الإمام الحجة أبي أيوب على الكثير الطيب من حميد الخصال، التي أسهم من أخذ عنهم من الصحابة أو عرف سِيَرهم: بوجودها، أو تنميتِها، على طريق تقوى الله عز وجلَّ، وتوطين النفس على ما هو الأقرب للتقوى، والظفرِ بالفوز المبين. ألم تر إلى ما حدّث به كما جاء في «السير» للذهبي من أن محمد بن مروان بنِ الحكم قال له: ما يمنعك أن تُكتب في الديوان، فيكونَ لك سهم في الإسلام؟ قلت: إني لأرجو أن يكون لي سِهام في الإسلام! قال: من أين ولست في الديوان؟ فقلت: شهادةُ أن لا إله إلا الله سهمٌ، والصلاة سهمٌ، وصيام رمضان سهمٌ، والحج سهمٌ. قال: ما كنت أظن أن لأحد في الإسلام سهماً إلا من كان في الديوان.

قلت: هذا ابن عمك حكيمُ بن حِزام لم يأخذ ديواناً قط. وذلك أنه سأل رسول الله ﷺ مسألة، فقال: «**استعفف يا حكيم خير لك**» قال: ومنك يا رسول الله؟ قال: «**ومني**»، قال: لا جرم، لا أسألك ولا غيرك شيئاً أبداً، ولكن ادع الله لي أن يبارك لي في صفقتي ـ يعني التجارة ـ فدعا له.

---

(١) سورة النحل، آية: ١١١ .

(٢) وانظر «الحلية»: (٤/ ٨٩).

قال الإمام الذهبي : رواها عبد الله بن جعفر ، عن أبي المليح عنه[١] .

ولما كان الأمر أمرَ تأسٍ من أبي أيوب يرحمه الله بواحد من أصحاب الرسول ﷺ الذين علَّموا الناس بسلوكهم المتميِّز أكثر مما علَّموهم بغيره . . كان من الخير إيرادُ رواية أخرى هي أكثرُ تفصيلاً لما جاء في هذه الرواية ، وذلك ما نجده عند الإمام البخاري ؛ فقد أخرج في كتاب الزكاة بابِ الاستعفاف عن المسألة من حديث الزهري عن عروة بن الزبير وسعيد بن المسيَّب أن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال : «سألت رسول الله ﷺ فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ، ثم قال : **يا حكيم ، إن هذا المال خَضِرة حلوة ؛ فمن أخذه بسخاوة نفس بُورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع ، اليد العليا خير من اليد السفلى**. قال حكيمٌ : فقلت : يا رسول الله ، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا . فكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيماً إلى العطاء فيأبى أن يقبله منه ، ثم إن عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه ، فأبى أن يقبل منه شيئاً ، فقال عمر : إني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم أني أعرض عليه حقَّه من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه ، فلم يرزأ حكيم أحداً بعد رسول الله ﷺ حتى توفي)[٢] .

قال الحافظ في «الفتح» : (قوله : «خضِرة حلوة» شبهه ـ بالرغبة فيه والميل إليه وحرص النفوس عليه ـ بالفاكهة الخضراء المستلذَّة ؛ فإن

---

(١) انظر «السير» (٥/ ٧٨ ـ ٧٩).

(٢) «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري» : (٣/ ٣٣٥) ١٤٧٢ ، وانظر : (٥/ ٢٧٧) ٢٧٥٠ .

الأخضر مرغوب فيه على انفراده بالنسبة إلى اليابس، والحلو مرغوب فيه على انفراده بالنسبة للحامِض، فالإعجاب بهما إذا اجتمعا أشدُّ)[(١)].

وبعد: فإن أخذ هذا العَلَم من أعلام التابعين نفسه بالتقوى والورع في دين الله، والدأب على الدعوة إلى الخير والصبر عليها: أثمر فيما أثمر من العطاء الإلهي: ما منَّ الله به عليه أن جمع له إلى صفاء القلب، ولذة المعرفة به والقرب منه سبحانه: تفجرُّ الحكمة على لسانه ينطق بها تثبيتاً لأهل الاستقامة، وإيقاظاً لأهل الغفلة، وذياداً عن فضائل الدين.

قال أبو نُعيم: حدثنا أبو بكر بن مالك قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثني أبي قال: حدثنا علي بن ثابت قال: حدثني جعفر بنُ برقانَ عن ميمون قال: (**ما أقلَّ أكْياسَ الناس، لا يبصر الرجل أمره حتى ينظر إلى الناس وإلى ما أُمروا به، وإلى ما أكبُّوا عليه من أمور الدنيا، فيقولَ: ما هؤلاء إلا أمثال الأباعر التي لا همَّ لها إلا ما تجعل في أجوافها، حتى إذا أبصر غفلتهم نظر إلى نفسه فقال: والله إني لأراني من شرهم بعيراً واحداً**)[(٢)].

وفي تذكير مؤثر ببعض الحقائق التي يبدو على شدة قربها ووضوحها: أن كثيراً من الناس في غفلة عنها معرضون؛ كان يكثر أن يقول مقالة الشفيق الأمين: (**الدنيا حلوة خضرة قد حُفَّت بالشهوات، والشيطان عدو حاضر**

---

(١) انظر «فتح الباري»: (٣/ ٣٣٦).

(٢) انظر «الحلية» (٤/ ٨٩).

فَطِن، وأمر الآخرة آجل، وأمر الدنيا عاجل)[١] . ولا يني يناصح ويشدد في المناصحة بقوله: (يا ابن آدم، خفف عن ظهرك، فإن ظهرك لا يطيق كلَّ الذي تحمل عليه من ظُلم هذا، وأكلِ مالِ هذا، وشتمِ هذا. وكلُّ هذا تحمله على ظهرك، فخفف عن ظهرك)[٢] .

والإخلاص وما أدراك ما الإخلاص: مطيةُ القبول بعد صحة العمل، لا يسأم أبو أيوب من التذكير به والدعوة إليه خصوصاً والأعمال قليلة، ها هو ذا لا يفتأ ينادي: (إن أعمالكم قليلة فأخلصوا هذا القليل)[٣] .

ومن كلماته المشرقة بنور الهدي القرآني: (ما أتى قوم في ناديهم المنكر إلا عند هلاكهم)[٤]

* * *

---

(١) انظر «الحلية» (٤/ ٩٠).
(٢) المصدر نفسه: (٤/ ٩٢).
(٣) المصدر نفسه: (٤/ ٩٢).
(٤) المصدر نفسه: (٤/ ٩٢).

مع ميمون بن مهران

ـ ٦ ـ

ما أحسن ما يتحلَّى به الرجل الرباني من السلوك الأمثل المنضبط بضوابط السنة، ذاك الذي يتيح له أن يكون في هديه وسمته قريباً من قلوب المؤمنين، يقبلون عليه برغبة إيمانية خالصة، ويستمعون إليه استماع فقه لما يقول، ويلوذون بنهجه القويم في مواجهة التحديات من داخل النفس ومن خارجها؛ لما أنهم يضعون أيديهم على العلم مع العمل، والهدي بالقدوة، وعدم المخالفة إلى ما ينهاهم عنه في قليل ولا كثير! الأمر الذي يقودهم إلى أن يكونوا في قافلة الخير، عملاً بالكتاب والسنة، وتأسياً بصنيع من هم على النبع السلسبيل في ذلك النهج الأصيل المبارك من السلف الصالح، وحرصاً على أن يتعاونوا على البر والتقوى تعاوناً يرتفع بالفرد والجماعة إلى مستوى القوة المطلوبة في أخذ هذا الدين؛ لأن المؤمن القوي ـ كما بيَّن المصطفى عليه الصلاة والسلام ـ خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير[1].

---

(١) روى أحمد ومسلم وابن ماجه وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القويُّ خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، لكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان» وانظر: «صحيح مسلم» رقم (٢٦٦٤) «سنن ابن ماجه» المقدمة ١٠، الزهد: ١٤ «المسند»: (٢/ ٣٦٦، ٣٧٠).

حدَّث القاسم بن هزَّان أنه سمع الإمام العَلَم حافظ زمانه محمد بن شهاب الزهريَّ يقول: «**لا يُرضي الناس قولُ عالم لا يعمل، ولا عمل عامل لا يعلم**»(١).

وغير خافٍ أن العلماء العاملين المعلِّمين: صدقوا الله ما أخذ عليهم في هذا الأمر الجلل. قال علي رضي الله عنه: «**ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلَّموا، حتى أخذ على أهل العلم أن يعلِّموا**»(٢)

وتوافرُ التمكن في العلم النافع والعمل به، ونقلِه إلى المسلمين بدقة وأمانة: هو ما دعا الإمام الكبير مفتيَ دمشق سليمان بن موسى المتوفى سنة خمسة عشرة أو تسع عشرة ومائة إلى القول: «**إذا جاءنا العلم من الحجاز عن الزهري قبلناه، وإذا جاءنا من الشام عن مكحول قبلناه، وإذا جاءنا من الجزيرة عن ميمونِ بن مهران قبلناه، وإذا جاءنا من العراق عن الحسن قبلناه. هؤلاء الأربعة علماء الناس في خلافة هشام**»(٣).

ولتكن هذه الشهادة بميمونٍ وُصلتَنا بمتابعة الحديث عن بعضٍ من فضائله ـ يرحمه الله ـ ذاكرين ما سبق من قول الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رحمه الله فيه: «**إذا ذهب هذا وضرباؤه، صار الناس بعده رِجراجة**».

وأنت ترى أن محاسبة النفس، والدأب على تزكيتها، وحسن التبصُّر في مواقفها: هي عند العالم الرباني بحسبان. حدَّث جعفر بن بَرقان عن

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٤١).
(٢) المصدر السابق: (٥/ ٣٣٨).
(٣) المصدر السابق: (٥/ ٧٢، ١٥٩) وانظر «المعرفة والتاريخ» للفسوي: (٢/ ٤٠٤).

أبي أيوبَ ميمونٍ قال: «**ما عرضت قولي على عملي إلا وجدت من نفسي اعتراضاً**»[١].

ولا يعوزك أن تجد في سلوك أبي أيوب عملاً وتربية ما كان من بالغ انتفاعه، وعظيم ما حصل له من الفلاح في تزكية نفسه وحملها على المركب الآمن في دار البقاء، غيرَ مبالٍ بما تحدّث به من اعتراض.

يقول يونس بن عبيد: كتبت إلى ميمون بن مِهران بعد طاعون كان ببلادهم أسأله عن أهله، فكتب إليَّ: (**بلغني كتابك، وإنه مات من أهلي وخاصتي سبعة عشر إنساناً، وإني أكره البلاء إذا أقبل، فإذا أدبر لم يسرَّني أنه لم يكن**)[٢].

وغير خافٍ ما تشرق به هذه الكلمات من تمام الرضا بقضاء الله عز وجل المقترنِ بالوضوح وعدم التكلُّف!!.

وفي رواية: أنه أتبع ذلك بقوله خطاباً ليونس: (**أما أنتَ فعليك بكتاب الله، فإن الناس قد بَهؤوا به** ـ قال يونس: يعني نسوه واختاروا عليه الأحاديث، أحاديث الرجال ـ **وإياكَ والجدال والمراء في الدين، لا تمارينَّ عالماً ولا جاهلاً، فإنك إن ماريت الجاهل خشَّن صدرَك ولم يطعك، وإن ماريت العالم خزن عنك علمه، ولم يبال ما صنعت**)[٣].

ويبدو أن ما يعنيه أبو أيوب ـ والله أعلم ـ أن الناس قد أنسوا بالقرآن

---

(١) «الحلية» (٤/ ٨٦).
(٢) «السير» (٥/ ٧٥).
(٣) «تهذيب الكمال» (٢٩/ ٢٢٢).

أنساً قلّت معه هيبته في نفوسهم حتى صار ذلك بمثابة النسيان، فعدلوا عنه إلى أحاديث الرجال، وعبَّر يونس بن عبيد عن ذلك بالنسيان واختيارِ أحاديث الرجال.

جاء في «النهاية» لابن الأثير في حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: «أنه رأى رجلاً يحلف عند المقام، فقال: أرى الناس قد بهؤوا بهذا المقام» أي أَنِسوا حتى قلَّت هيبته في نفوسهم. يُقال: قد بهأتُ به أبْهأُ.

ومنه حديث ميمونِ بنِ مِهران «أنه كتب إلى يونس بن عبيد، عليك بكتاب الله فإن الناس قد بَهَؤوا به واستَخْفَوا عليه أحاديث الرجال» قال أبو عبيد: روي بَهَوْا به، غير مهموز، وهو في الكلام مهموز[1].

والمراد بقوله: «**خشَّنَ صدرَك**» أوغره بالحقد والضغينة والعداوة. جاء في «اللسان»[2] لابن منظور: خشَّنتُ صدره تخشيناً: أوغرت. والوَغْر بسكون الغين ووفتحها ـ كما في «القاموس»[3]: الحقد، والضعف، والعداوة، والتوقد من الغيظ.

---

(١) انظر «النهاية» مادة (بهأ) «اللسان» المادة نفسها، وقد نقل ابن منظور كلام ابن الأثير بنصه. ومن عجب أن العبارة جاءت في «غريب الحديث» لابن الجوزي منسوبة إلى يونس نفسه. ولم يفعل المحقق شيئاً؛ لأنه ـ فيما يبدو ـ جاهل بالمصادر، ويقرأ النصوص خطأ دون أن يشعر، وانظر «غريب الحديث» لابن الجوزي طبعة دار الكتب العلمية ص٩١ وما علَّقته هناك، والأمثلة كثيرة على ما قلت، ونعوذ بالله من هذا العبث في مصادرنا وما أكثره في هذه الأيام!!.

(٢) «اللسان» مادة (خشن).

(٣) «القاموس المحيط» مادة (خشن).

وهكذا تكون المماراة ـ كما يرى ميمون رحمه الله ـ سبباً في هذا كله، وبهذا تتضح الحكمة البالغةُ في تحذير النبي ﷺ من أن يكون طلب العلم للمماراة، وأن ميموناً كان مع الهدي النبوي في تحذيره يونس بن عبيد من تلك الخصْلة الذميمة!!

ولكم نحسن صنعاً إذا نحن ذكرنا ما كان عليه يونس بن عبيد من أهلية الانتفاع بوصية ميمون، وما ازدانت به شخصيته ـ وهو الإمام الحجة من عيون التابعين وفضلائهم ـ من استقامة على سواء الصراط، وورع فيما يأخذ وفيما يدع، وسلوك قائم على قاعدة صلبة من العلم بالكتاب والسنة. . . إذن لبان لنا أيُّ موصىً هو ذلك الموصى الذي وجهت إليه وصية ميمون، ولبان لنا في الوقت نفسه ما كان لأبي أيوب ميمون من عظيم المكانة في نفوس عصرييه من التابعين.

جاء في «سير أعلام النبلاء» للإمام الذهبي: (**وقيل: إن يونس نظر إلى قدميه عند الموت وبكى، فقيل: ما يبكيك أبا عبد الله؟ قال: قدماي لم تغبّرا في سبيل الله**)[1].

وحدَّث مبارك بن فضالة عن يونس قال: (**لا تجد من البرِّ شيئاً واحداً يتبعه البرُّ كلُّه غير اللسان؛ فإنك تجد الرجل يكثر الصيام، ويفطر على الحرام، ويقوم الليل، ويشهد بالزور بالنهار، وذكر أشياء نحو هذا. ولكن لا تجده يتكلم إلا بحق، فيخالف ذلك عملُه أبداً**)[2].

---

(١) «السير»: (٦/ ٢٩١).

(٢) المصدر نفسه: (٦/ ٢٩١-٢٩٢).

وقال حماد بن زيد: سمعت يونس يقول: (توشك عينك أن ترى ما لم تر، وأذنك أن تَسمع ما لم تسمع، ثم لا تخرج من طبقة إلا دخلت فيما هو أشد منها حتى يكون آخر ذلك الجواز على الصراط)[1].

وقال حماد بن زيد: شكا رجل إلى يونس وجعاً في بطنه، فقال له: (يا عبد الله، هذه دار لا توافقك، فالتمس داراً توافقك)[2]

❊ ❊ ❊

(١) المصدر السابق: (٦/ ٢٩١ ـ ٢٩٢).
(٢) المصدر نفسه: (٦/ ٢٩٢).

مع ميمون بن مهران

ـ ٧ ـ

مظاهر التوفيق في سلوك الرجل الرباني لا تخفى على أهل البصائر، لما أنها من نور الهدي الرباني وإليه في كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ثم ما يكون من فهوم أئمة الهدى وعملهم بما علموا جزى الله الجميع كل خير.

فأنى نظرتَ في هذا السلوك: وقعتَ على ما هو في حقيقته ترجمان للعمل بالعلم، والإخلاص في الدين، والحرص على هداية المسلمين، والإسهام في جلب الخير لهم في دينهم ودنياهم، وكل ما يتصل بعاقبة أمرهم، وكل أولئك وفق منهج سَداه ولُحمته: التعليم والتزكية، والقدوة الصالحة، دونما ضنٍّ بما يكون في الوُسع على ساحة العطاء الذي لا يُبتغى من ورائه إلا مرضاة الله تعالى، والوفاء بما أخذ على من أوتوا القدرة على إبلاغ الكلمة الطيبة والتربية عليها من عهد وميثاق.

رأيتني مسوقاً إلى التذكير بهذه الحقيقة في حياة الربانيين الذين يرتادون للأمة سُبُل الخير والتمكين، وأنا بسبيل المتابعة لرحلة الاستنارة بما كان عليه ربانينا أبو أيوب ميمون بن مهران ـ وهو يقوم بأداء الأمانة في الثغر الذي أقامه الله عليه ـ من دأب على تزكية النفس، ومحاسبتها، وعناية بجلاء القلب الذي هو مستقرُّ الإيمان، وموئلُ التذكر العاصم من وحدة الغفلة، وطائف الشياطين!!

أخرج أبو نعيم في «الحلية» بسنده عن جعفر بن بُرقانَ قال: سمعت ميمون بن مِهران يقول: (**إن العبد إذا أذنب ذنباً نُكت في قلبه بذلك الذنب نكتة سوداء، فإن تاب مُحيت من قلبه، فترى قلب المؤمن مجلواً مثل المرآة، ما يأتيه الشيطان من ناحية إلا أبصره، وأما الذي يتتابع في الذنوب: فإنه كلما أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء، فلا يزال يُنكت في قلبه حتى يسودَّ قلبه، ولا يبصر الشيطان من حيث يأتيه**)[١].

ولقد بلغ من ورعه أنه كان يخشى مسؤولية القضاء والإمرة، لما أن ذلك قد يوقعه فيما لا تحمد عقباه يوم الدين. وحدث أنه حاول الاعتذار لعمر بن عبدالعزيز عما استعمله عليه من قضاء الجزيرة وخراجها، ولكن عمر بحصافته، وحرصه على أن تأخذ كفاءات الرجال الأقوياء الأمناء مواقعها في إدارة شؤون الأمة: استطاع إقناعه بالقيام بما كلفه به؛ وذلك بتذكيره بالواجب، وفتح باب التعاون بينهما عند الحاجة، وأنه لو اعتذر كل قادر على حمل المسؤولية عن الإسهام في دفع عجلة الحياة في المجتمع المسلم؛ لم يقم دين ولا دنيا، فما كان منه ـ يرحمه الله ـ إلا الانصياع والقيام بالمهمة الملقاة على عاتقه خير قيام.

حدَّث هارون أبو محمد البربريُّ ـ كما جاء في «الحلية» لأبي نعيم وغيرها (**أن عمر بن عبد العزيز استعمل ميمون بنَ مِهرانَ على الجزيرة على قضائها وعلى خراجها، فكتب إليه ميمون يستعفيه وقال: كلفتني ما لا أطيق، أقضي بين الناس وأنا شيخ كبير ضعيف رقيق. . ، فكتب إليه**

---

(١) انظر «الحلية»: (٤/ ٨٩).

عمر : إني لم أكلفْك ما يُعنِّيك ، اجْبِ الطيبَ من الخراج ، واقض بما استبان لك ، فإذا لبِّس عليك أمرٌ فارفعه إليَّ ؛ فإن الناس لو كانوا إذا كبُر عليهم أمر تركوه ، لم يقم دين ولا دنيا)[١] .

ويغلب عليه الخوف من أن تكون قد زلَّت به القدم أيًّا كانت هذه الزلَّة . فيقول في أواخر حياته ـ كما يروي حبيب بن أبي مرزوق ـ: **(وددت أن عيني ذهبت ، وبقيت الأخرى أتمتَّع بها ، وأني لم أل عملاً قط ، قلت له : ولا لعمر بن عبد العزيز؟ قال : لا لعمر ولا لغيره)**[٢] .

وهذا من تقواه يرحمه الله ؛ فليست القضية قضيةَ هروب من الواجب ، ولكنها الخوف من الوقوع في شيء من الإثم ولو بالشبهة أو ما يقاربها ، لذا كان من تعليق الإمام الذهبي على مقولته الآنفة الذكر : قلت : كان ولي خراج الجزيزة وقضاءها وكان من العابدين .

وجزى الله الخليفة الراشد خير جزائه ؛ فقد كان من تقواه في تحقيق مصلحة الأمة ومعرفته بالرجال : إصرارُه على عدم إعفاء ميمون مما كلفّه به من القضاء وجباية الخراج ، وتذليلُ العقبات أمامه .

وأنت واجد أن هذا المحور ـ وهو الورع وطلب السلامة في الآخرة ـ عنصر بالغ الأهمية في أن يكون للتقوى سلطانها على السلوك سواء في ذلك دقيق الأمور وجليلها ؛ ها هو ذا يقول مذكِّراً بوجوب الصيام عن المآثم ، لا أن يكون الصيام إمساكاً عن المفطرات وكفى ! : **(أهون الصوم ترك الطعام**

---

(١) انظر «الحلية» : (٤/ ٨٨) «السير» : (٥/ ٧٤) .

(٢) «الحلية» : (٤/ ٨٦) «السير» : (٥/ ٧٧) .

والشراب)[١].

وحدّث ولده عمرو فقال: (خرجت مع أبي من المسجد بعد صلاة المغرب ومعه رجل، فدخل وترك الرجل، فقلت: يا أبت، ما كان يمنعك أن تعرض عليه؟ قال: كرهت أن أعرض عليه أمراً لم يكن في نفسي) هذا مع كونه كثيراً ما كان يقول: (**المروءة: طلاقة الوجه، والتودد إلى الناس، وقضاء الحوائج**)[٢] ولكن هذا شيء، وأن يكون باطنُه غير ظاهره فيما يعرض على الرجل شيء آخر.

وجماع الأمر في تصرفات ميمون ـ كما يرى ذلك ولده عمرو ـ نشهده في قوله: (**ما كان أبي يكثر الصيام ولا الصلاة** ـ يعني النوافل ـ **لكنه كان يكره أن يُعصى الله**)[٣].

والنسب بين هذه الخليقة، وبين ما كان يأخذ نفسه به، ويوجه إليه من يأخذون عنه: واضح كل الوضوح من دوام العمل والجد في طاعة الله. قال عطاء بن مسلم الحلبيُّ عن فرات بن سلمان: (**انتهينا مع ميمون إلى دير القائم، فنظر إلى الراهب، فقال لأصحابه: فيكم من بلغ من العبادة ما بلغ هذا الراهب؟ قالوا: لا. قال: فما ينفعه ذلك ولم يؤمن بمحمد ﷺ؟ قالوا: لا ينفعه بشيء. قال: كذلك لا ينفع قول بلا عمل**)[٤].

---

(١) «الحلية» (٤/ ٩٠).
(٢) «تهذيب الكمال» (٢٩/ ٢٢٢).
(٣) المصدر السابق: (٢٩/ ٢١٦).
(٤) المصدر نفسه: (٢٩/ ٢١٧).

ويزداد إعجابك بهذا السلوك الرباني حين ترى أن هذا التابعيَّ العلم الجليل ما كان ـ وهو يضرب في أرض الصلاح والإصلاح ـ يعيش لنفسه، بل كان يحسُّ دائماً أنه فرد من هذه الأمة، يسرّه ما يسرّها، ويسوؤه ما يسوؤها، وعلى هذا: فمن طاعة الله تعالى الاهتمام بأمور المسلمين والعكس بالعكس. يقول أبو المليح الرَّقيُّ: (**ما رأيت أحداً أفضلَ من ميمونِ بنِ مِهران، قال له رجل يوماً: يا أبا أيوب، أتشتكي، أراك مصفراً؟ قال: نعم لما يبلغني في أقطار الأرض**)[١].

وعلى هذا السنن من الغيرة الإيمانية والحرص على الجماعة أن تزلَّ أو تضلَّ، نقف على أنموذج من النقد الاجتماعي في ضوء الشريعة. يقول أبو المليح: (سمعت ميمون بن مهران وأتاه رجل فقال: إن رقية امرأة هشام ماتت وأعتقت كل مملوك لها، فقال: يعصون الله مرتين؛ يبخلون به وقد أُمروا أن ينفقوه، فإذا صار لغيرهم أسرفوا فيه)[٢].

* * *

(١) المصدر نفسه: (٢٩/ ٢١٦).
(٢) «السير»: (٥/ ٧٦) وانظر: «تهذيب الكمال»: (٢٩/ ٢٢٣).

مع ميمون بن مهران

ـ ٨ ـ

ظاهرة تجاوز الأنا عند الرجل الرباني إلى الغيرة الصادقة على إخوانه المسلمين أن يكونوا مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، فيعمل على إفشاء العلم النافع فيهم، والدأب على القيام بكل ما من شأنه تزكية النفوس وجلاء القلوب كيما تتحقق الاستجابة إلى ما يدعو إليه هذا الإمام من العمل الصالح، والجهاد في سبيل الله، وسلوك الجادة التي تقرب إلى الله زلفى في كل شأن من شؤون الحياة . . هذه الظاهرة التي لا تخفى على ذي بصيرة : مدعاة لانشراح الصدور، والفأل الحسن بثمرات طيبة تشمل الفرد والجماعة لا محالة، وتدعو لتحليل الوقائع، وربط النتائج بالمقدمات .

والخطوات التي أسعدتنا باصطحاب النهج المختار عند تابعينا الجليل ميمون بن مهران، وقفتنا على ما هو شاهد صدق على وجود هذه الظاهرة التي لا تتقاصر عن أن تكون أمانة في الأعناق، لابد من أدائها على صعيد العمل الجاد في إحكام البنية الإيمانية الفاعلة التي تضمن ـ بعون الله ـ قوة الفرد والجماعة عقيدةً وسلوكاً، والقدرة على مواجهة التحديات أياً كان مصدرها، سواء في ذلك ما كان من دخائل النفوس، وما كان من خارجها على ساحة العبث من شياطين الإنس والجن؛ تعليماً وتربية وإعلاماً وكل ما هو من ذلك بسبب!

حدَّث عبدالله بن جعفر الرَّقيُّ عن أبي المليح قال : قال ميمون بن مهران : «**إذا أتى رجل باب سلطان، فاحتجب عنه، فليأتِ بيوتِ الرحمن،**

فإنها مفتَّحة، فليصلِّ ركعتين وليسأل حاجته»[١].

ولا يدع ـ رحمه الله ـ أن يوجه على صعيد العلاقات الاجتماعية إلى حيث تكون المؤاخذة على معصية الله أولاً، ولهذا ما له من أثر في تنمية الوازع عند المتعاملَين، وذلك خير كله لهما، ومما روى عنه أبو المليح في ذلك قوله: «**لا تضرب المملوك في كل ذنب، ولكن احفظ له، فإذا عصى الله فعاقبه على المعصية، وذكِّره الذنوب التي بينك وبينه**»[٢].

ومن صور التكامل على هذا المحور محور الاستعلاء على الرغبات الخاصة الزائلة، وتجاوزها إلى أن يكون المطلوب أولاً تحقيقَ طاعة الله ونبذِ معاصيه، والتحليَ بأخلاق الإسلام وآدابه في كل ما يأخذ المسلم أو يدع: ما حدَّث أصحاب أبي أيوب، أن رجلاً جاء إليه يخطب بنته، فقال: لا أرضاها لك، قال: ولم؟ قال: لأنها تحب الحُليَّ والحلل، قال: فعندي من هذا ما تريد، قال: الآن لا أرضاها لك[٣].

والقدرة على أخذ النفس بهذا النهج ثمرةٌ من ثمرات محاسبتها الحازمة، وليس ذلك بالأمر الهين، ولكنه عنوان الاستقامة والتقوى، حدَّث جعفر بن برقان عن ميمونٍ قال: «**لا يكون الرجل تقيًا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه، وحتى يعلم من أين ملبسه ومطعمه ومشربه، أمن حلال ذلك أم من حرام**». وقد مرَّ بنا من قبل قوله يرحمه الله:

---

(١) انظر «تهذيب الكمال في أسماء الرجال»: (٢٩/ ٢٢٣). «السير» (٥/ ٧٥).
(٢) المصدر السابق: (٥/ ٧٧).
(٣) «السير»: (٥/ ٧٥).

«**لا يسلم للرجل الحلال حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال**»[(١)] .

وجميل ما كان يكرر من قوله: «**إن أعمالكم قليلة فأخلصوا هذا القليل، وما أتى قوم في ناديهم المنكر إلا عند هلاكهم**»[(٢)] .

وعندما تصبح التقوى ـ وأول مراتبها الإيمان ـ خلَّةً غيرَ متكلفة: لا يحجز سلطان الورع على التصرفات حاجز، يقول خلف بن حوشب: تكارينا مع ميمون بن مهران حُمُراً إلى مكان كذا فقال ميمون: «**لولا أن الدوابَّ بكرىً لمررنا على آل فلان**». وفي رواية: «**لسلَّمنا على آل فلان وعلى آل الشام**»[(٣)] ويقول الحسن بن حبيب: رأيت على ميمون جبة صوف تحت ثيابه، فقلت له: ما هذا؟ قال: نعم، فلا تخبر به أحداً[(٤)] .

وانظر إلى هذا الوضوح في الرؤية مع الورع وسلامة الفهم لأحكام الشريعة وآدابها. حدث جامع بن أبي راشد قال: سمعت ميمون بن مهران يقول: «**ثلاث يؤدين إلى البر والفاجر: الرحم توصل بَرَّة كانت أو فاجرة، والأمانة تؤدى إلى البر والفاجر، والعهد يوفّى به للبر والفاجر**»[(٥)] .

ولا تعجب بعد هذا الذي ترى ـ ومثله كثير ـ أن يشبه الإمام الأجل

---

(١) «الحلية»: (٤/ ٨٤) وانظر «السير»: (٥/ ٧٤) «تهذيب الكمال»: (٢٩/ ٢١٩).
(٢) «الحلية»: (٤/ ٩٣).
(٣) «المعرفة والتاريخ»: (٢/ ٥٨١) وانظر «الحلية»: (٤/ ٨٧ ـ ٨٨).
(٤) «السير» (٥/ ٧٤).
(٥) «تهذيب الكمال»: (٢٩/ ٢٢٠) وانظر «السير» (٥/ ٧٤) حيث جاءت الرواية مختصرة هناك.

أحمد بن حنبل ورع ميمون بورع ابن سيرين. يقول الإمام أبوالحسن الميموني: قال لي أحمد بن حنبل: إني لأشبه ورع جدك بورع ابن سيرين[(١)].

وجاء في «السير» للإمام الذهبي: أبو المليح عن فرات بن السائب قال: كنت في مسجد مَلَطْيَةَ، فتذاكرنا هذه الأهواء، فانصرفت فنمت، فسمعت هاتفاً يهتف: الطريق مع ميمون بن مِهران[(٢)].

وليس من مكرور القول التذكير بما تشرق به كلمات الرجل الرباني من الحكمة فضلاً من الله ونعمةً، جزاء ما هو عليه من السنن الميمون علماً وعملاً، ودأباً على جلب الخير للمسلمين بصدق وإخلاص نية.

حدث معمر بن سليمان عن فرات بن السائب عن أبي أيوب قال: «ثلاث لاتبلونَّ نفسك بهن: لا تدخل على السلطان وإن قلت آمره بطاعة الله، ولا تصغينَّ بسمعك إلى هوى، فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك منه، ولا تدخل على امرأة، وإن قلت: أعلمها كتاب الله»[(٣)].

وللتنديد بأصحاب البدع والأهواء كما نرى من التحذير من الإصغاء إليهم في هذه الوصية موقعه المنظور من خلال تلكم الكلمات والوصايا الغاليات. يقول ـ أجزل الله مثوبته ـ: «**رجلان لا يصحبهما صاحب، مأكلُ سوء، وصاحبُ بدعة**»[(٤)] ويقول: «**رجلان لاتَعِظْهما ليس تنفعهما العظة:**

---

(١) انظر «السير»: (٥/ ٧٥).
(٢) «تهذيب الكمال»: (٢٩/ ٢١٧) وانظر «السير» (٥/ ٧٤).
(٣) انظر «الحلية»: (٤/ ٨٤ ـ ٨٥) «السير»: (٥/ ٧٧).
(٤) «تهذيب الكمال»: (٢٩/ ٢١٦).

رجلٌ قد لِهج بكسب خبيث، وصاحبُ هوىً قد استغرق فيه»[١]. لِهج بكسب خبيث: أُولع به.

هذا: وفي سلوك أبي أيوب قولاً وفعلاً: ما يشي بحرصه على استمرار الصواب وتقويم العوج في العلاقات الاجتماعية بين المسلمين، تساوقاً مع أخلاق الإسلام وآدابه. ودلالة ذلك على شهود رحلة الحياة في المجتمع، وعدم العزلة عنها في سيرة هذا الرجل الرباني: لا تخفى.

حدَّث علي بن بَذيمةَ أنه قيل لميمون: ما لك لا تفارق أخاً لك عن قلىً - وفي رواية: ما لصديقك لايفارقك عن قلىً؟ - قال: لأني لا أماريه ولا أشاريه[٢]. وعن جعفر بن بُرقان قيل لميمون بن مهران: «**إن فلاناً يستبطئ نفسه في زيارتك، قال: إذا ثبتت المودة فلا بأس، وإن طال المكث**»[٣].

وجميل قوله في توجيه إلى سعة الصدر والتماس العذر بين الإخوان: «**من رضي من صلة الإخوان بلا شيء، فليؤاخ أهل القبور**»[٤].

والحرص على دوام المحبة يقتضي عدم التكلف والبعد عن التصنع، خصوصاً إذا نزل بالإنسان ضيف. يقول أبو أيوب: «**إذا نزل بك ضيف فلا تكلَّف له ما لا تطيق، وأطعمه من طعام أهلك، والقه بوجه طَلْق؛ فإنك**

---

(١) المصدر السابق: (٢٩/ ٢١٧).
(٢) المصدر السابق: (٢٩/ ٢١٧).
(٣) المصدر السابق: (٢٩/ ٢٢١).
(٤) المصدر السابق: (٢٩/ ٢٢١).

إن تكلفت له مالا تطيق، أوشك أن تلقاه بوجه يكرهه» وهذا لا يتنافى مع الإكرام وسخاء اليد للضيف كما هو أدب الإسلام.

وفي أخباره ـ يرحمه الله ـ أنه كتب إلى ابنه أن أحسن معونة فلان وأعطه من مالك ولا تسأل الناس، فإن المسألة تذهب بالحياء[١].

ومن كلماته الحكيمة التي تدل على ما وراءها من تقوى القلب واستنارة البصيرة، والحرص على سلامة البنية في المجتمع المسلم قوله: **«المروءة طلاقة الوجه، والتودد إلى الناس، وقضاء الحوائج»**[٢]. وكل أولئك ذو نسب إلى الهدي النبوي لا محالة؛ لأن المهم أن يكون ما يفعله الناصح لخاصة نفسه، وما يوصي به الآخرين: لا يخرج عن دائرة التقوى، وابتغاء مرضاة الله تعالى فيما يُفعل أو يقال.

وقد سبق لنا ذكرُ ما روى عمرو بن ميمون بن مهران أنه خرج مع أبيه من المسجد بعد صلاة المغرب ومعه رجل، فدخل وترك الرجل، يقول عمرو: فقلت: يا أبة، **ما** كان يمنعك أن تعرض عليه ـ يعني الدخول ـ؟ قال: كرهت أن أعرض عليه أمراً لم يكن في نفسي.

وما أحسن ما يجتمع للرجل الرباني من أخذ نفسه والآخرين بالمنهج الأسلم في طاعة الله تعالى، واختيار الأسلوب القائم على مراعاة الفطرة والرغبات النفسية، وتطلعات الإنسان حسبما يكون سنه وثقافته، وموقعه في المجتمع؛ كل أولئك في سلوك ينبئ عن أن واقع الفرد والجماعة عند

---

(١) المصدر نفسه: (٢٩/ ٢٢٢).
(٢) المصدر نفسه: (٢٩/ ٢٢٢).

هذا الرباني بحسبان. ألم تره يقول في أمور يومية لا غناء عن التنبه إلى حسن التصرف حيالها؟! «**التوددُ إلى الناس نصف العقل، وحسن المسألة نصف الفقه، ورفقك في المعيشة يلقي عنك نصف المؤونة**»[١].

وفي مراعاة حصيفة للنوازع البشرية، وما تعتلج به دخائل بعض النفوس، ثم ما يكون من ضعف الإنسان أمام رغباته في كثير من الأحيان عند علاقته بالآخرين، وأن العصمة إنما تكون للأنبياء عليهم السلام، يقول في كلمة جامعة: «**من رضي من صلته بالإخوان بلا شيء فليؤاخ أهل القبور**»[٢].

على أن ما تنحلُّ به العقدة الكبرى في هذه الأمور وأمثالها إنما هو أن تجتمع قلوب الأخلاء على تقوى الله عز وجل، وإلا انقلبت العلاقة الدنيوية عداوة يوم القيامة. مصداق ذلك قول العليم الخبير في سورة الزخرف: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٣].

ومن طريف ما حصل له في شأن بعض المواطن التي بيَّن أهل العلم جواز الكذب فيها تحقيقاً لمصلحة شرعية ودفعاً لمفسدة: ماجاء في «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» للحافظ المزي: وقال إسماعيل بن عُليَّة، عن سَوَّار بن عبدالله العنبريِّ: بلغني أن ميمون بن مِهران كان جالساً وعنده رجل من قُراء أهل الشام، فقال: إن الكذب في بعض المواطن خير

---

(١) المصدر السابق: (١٩/ ٢٢٠).
(٢) انظر: «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» للحافظ المزي: (٢٩/ ٢٢١).
(٣) سورة الزخرف، آية: ٦٧.

من الصدق. فقال الشامي: لا، الصدق في كل موطن خير. فقال ميمون: أرأيت لو رأيتَ رجلاً يسعى وآخرُ يتبعه بالسيف، فدخل الدار فانتهى إليك، فقال: أرأيت الرجل؟ ما كنت قائلاً؟ قال: كنت أقول: لا. قال: فذاك[١].

وسبحان من يتفضل على أحبائه العلماء العاملين المخلصين بما يتفضل من نعماء الإحاطة والشمول في ضوء أحكام الدين وأخلاقه وآدابه، لما أنهم يؤتون ما آتوا من العمل المتعلق بذواتهم، ومن التعليم والتربية والتزكية لنفوس الآخرين: على نور من الله جلَّ شأنه، وإخلاص لا تشوبه شائبة شرك أو طاعة للهوى والشيطان؛ وما كان ذلك ليكون لولا اعتصامهم بهدي الكتاب والسنة في كل شأن من الشؤون!

قال أبوالمليح الرَّقي: سمعت عبدالكريم يقول: «**لا علم لنا بكم يا أهل الرَّقة، من رأيناه من جانب ميمون علمنا أنه مستقيم، ومن رأيناه يكره ناحيته علمنا أنه يأخذ ناحية أخرى**»[٢].

* * *

(١) «تهذيب الكمال»: (٢٩/ ٢٢٣).

(٢) «تهذيب الكمال»: (٢٩/ ٢٢٤) وانظر «تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر: (١٠/ ٣٩١ ـ ٣٩٢).

ميمون بن مهران.. وعمر بن عبدالعزيز التأثير.. والتأثر

ـ ٩ ـ

ما أحسبني أُبعد النُّجعة إذا ذهبت ـ بغلبة ظن على الأقل ـ إلى أن ميموناً ـ وهو الأثير عند عمر بن عبدالعزيز برجاحة عقله وتقواه، وما أوتي ـ بفضل الله ـ من صفاء القلب ورقة الحس القائمين على قاعدة من العلم النافع والعمل ـ: كانت أهليته للانتفاع والتأثر بسلوك الهداة المهتدين، ومن عيونهم عمر بن عبدالعزيز، والتفاعلِ مع ما يكون عليه أولئك الذين ذاقوا حلاوة الإيمان، ومخالطةِ النهج المتميز الذي كان يطبع بنوره الأخاذ سلوك خامس الراشدين: تعمل عملها الخيِّر المؤثر في تطلعاته السامية وسلوكه، خصوصاً إذا لاحظنا صلته الحميمة به وشدة حبِّه له ـ يرحمه الله ـ وأنه كان يعلم من خبايا الزوايا في شخصيته ذات التميز الشيءَ الكثير.

وإذا كان الأمر كذلك: فلا عجب أن يكون ذلك كله قد عاد عليه بالكثير من الترقي في مدارج البر، وزاد في قدرته على العطاء الخيِّر في التربية والتعليم والتزكية والإسهام المجدي في تحقيق ما هو خير للفرد والجماعة في دنيا المسلمين.

وفي بعض مرويات أبي أيوب عن خامس الراشدين غناء بالقليل عن الكثير، ومقنع لمن أراد مقنعاً!

هذا جعفر بن بُرقان يقول: حدثني ميمون بن مِهران قال: «**كان**

عمر بن عبدالعزيز يعلِّم العلماء»[(١)] .

وأوضح من هذا قول أبي أيوب : «**أتينا عمر بن عبدالعزيز ونحن نرى أنه يحتاج إلينا ، فما كنا معه إلا تلامذة»**[(٢)] .

وفي الواقع : ثبت أن ميمون بن مهران كان من خير من تلمذ لعمر بن عبدالعزيز .

ويحدث أبو أيوب أنه خرج مع عمر بن عبدالعزيز إلى المقبرة، قال : فلما نظر **عمر** إلي القبور بكى ، ثم أقبل عليَّ فقال : يا أبا أيوب ، هذه قبور آبائي من بني أمية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم ؛ أما تراهم صرعى قد حلَّت بهم المثُلات ، واستحكم فيهم البلاء ، وأصابت الهوامُّ في أبدانهم مقيلاً . ثم بكى حتى غُشي عليه ، ثم أفاق ، فقال : انطلق بنا فوالله ما أعلم أحداً أنعمَ ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن عذاب الله[(٣)] .

المثلات : جمع مَثُلة وهي العقوبة .

إنه لون من ألوان التعليم والتربية بالقدوة يرتفع بمن يتلقاه إلى حيث الإحساس بحقائقَ هي من البداهة بمكان ، ولكن كثيراً من الناس عنها غافلون .

وها هو يروي عنه في كثير مما روى ، أنه أُتي بسلق وأقراص ، فأكل ، ثم اضطجع على فراشه ، وغطى وجهه بطرف ردائه ، وجعل يبكي ويقول :

---

(١) «الحلية» : (٥/ ٣٤٠) .

(٢) انظر «السير» : (٥/ ١٢٠) .

(٣) «الحلية» : (٥/ ٢٦٩) . وانظر «المعرفة والتاريخ» : (١/ ٥٨٥) .

عبد بطيء بطين! يتباطأ ويتمنى على الله منازل الصالحين[١].

فماذا أنت قائل في هذا الصنيع الصادق من عمر، والأهلية المشرقة عند ميمون؟! وقل مثل ذلك في قول أبي أيوب: إني لعند عمر بن عبدالعزيز، إذ فُتح له منطق حسن حتى رقَّ له أصحابه، قال: ففطن لرجل منهم وهو يجرف دمعته، فقطع منطقه!!

قال ميمون: فقلت: امض في منطقك يا أمير المؤمنين، فإني أرجو أن يمنَّ الله بك على من سمعه منك، أو انتهى إليه، فقال بيده: «**إليك عني، فإن في القول فتنة، والفعل أولى بالمرء من القول**»[٢].

ومن المآثر التي رواها ميمون عن عمر بن عبدالعزيز في فهم الأحكام والورع: ما حدث عنه أبو المليح قال: قال ميمون بن مهران: أهدي إلى عمر بن عبدالعزيز تفاح وفاكهة، فردَّها وقال: «**لا أعلمنَّ أنكم بعثتم إلى أحد من أهل عملي بشيء! قيل له: ألم يكن رسول الله ﷺ يقبل الهدية؟! قال: بلى، ولكنها لنا ولمن بعدنا رِشوة**»[٣].

وبعض ما رأينا من صلة أبي أيوب بالقرآن، وهي صلة التدبُّر والتذكُّر: يبدو ذا نسب إلى ما حدَّث به من أنه كان جالساً عند خامس الراشدين رحمه الله، فقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾، فقال لي: «**يا ميمون، ما أرى القبر إلا زيارة، ولابد للزائر أن يرجع إلى منزله ـ يعني إلى الجنة**

---

(١) «المعرفة والتاريخ» للفسوي: (١/ ٥٨٥).
(٢) «المعرفة والتاريخ» للفسوي: (١/ ٥٩٥) وانظر: (١/ ٦١٣).
(٣) «الحلية»: (٥/ ٢٩٤).

أو النار»[١] .

وعندما يرثي ميمون لعمر بقاءه على ما يرى من حاله التي لا يكاد يعرف معها طعم الراحة، أملاً في أن يرحم نفسه بشيء من تقليل التقاء الناس : يجيبه رحمه الله بما يشعر بأن الخير فيما يشكو هو منه لأجله .

أخرج أبونعيم بسنده من رواية بشر بن موسى عن ميمون قال : قلت لعمر ليلةً : **«يا أمير المؤمنين، ما بقاؤك على ما أرى؟ أما في أول الليل فأنت في حاجات الناس، وأما وسطَ الليل فأنت مع جلسائك، وأما آخرَ الليل فالله أعلم ما تصير إليه! قال : «فضرب على كتفي وقال : ويحك يا ميمون إني وجدت لقيا الرجال تلقيحاً لألبابهم»**[٢] .

إنه الدرس البليغ الذي يلقيه المسؤول الأول في الأمة، وأبو أيوب وضرباؤه : أولى من يفيد من هذا الدرس الذي من ثمراته الانتفاع بآراء أولي النهى الذين أتيحت لهم حرية الكلمة في ضوء ما هم عليه من العلم المقترن بالخشية، والحرص على مصلحة الجماعة .

وعندما يدار الحديث عن الأدب مع الله تعالى، ومخافة القانت المخبت أن يحبط عمله : يذكر للرجل الرباني ما يحرص عليه من الاستخفاء من الناس إذا هو بدر منه شيءٌ يدل على صلاحه وتقواه؛ كالبكاء من خشية الله ـ على سبيل المثال ـ فتراه يحاول صرف من رآه على تلك الحال إلى حيث يقلع عن الظن الذي خشي منه ذلك العابد المخلص .

---

(١) المصدر السابق : (٥/٣١٧) .

(٢) انظر «المعرفة والتاريخ» : (١/٦١٩) .

وإذا ذكر التابعون الذين كانوا على هذه الخليقة من الاستخفاء من الناس، قصد صرفهم عما يظنون من الصلاح والتقوى: فحيَّهلا بعمر بن عبدالعزيز، وميمون بن مهران الذي تلمذ له وأخذ عنه الكثير. وقد سبق أن ذكرنا وقائع من هذه البابة صدرت عن أبي بكر أيوب السختياني، رحم الله الجميع.

جاء في «المعرفة والتاريخ» ليعقوب الفسويِّ: حدثني إبراهيم ـ هو ابن هشام الفسَّاني ـ قال: حدثني أبي عن جدي عن ميمون بن مهران قال: قال لي عمر بن عبدالعزيز: «**حدثني، فحدثته حديثاً بكى منه بكاءً شديداً، فقلت: يا أمير المؤمنين، لو علمت أنك تبكي هذا البكاء لحدثتك حديثاً ألين من هذا. قال: يا ميمون، إنا نأكل هذه الشجرة العدس، وهي ما علمتَ مُرِقَّة للقلب، مغزرة للدمع، مذلة للجسد**»[١].

وأورده الذهبي من رواية الفسوي بهذا اللفظ[٢]. وجاءت الرواية عند أبي نعيم بزيادة تلت كلام عمر، إذ جاء هناك: قال ميمون: ودعاني عمر، فقال: يا مهرانُ بنَ ميمون، فقلت: أو ميمون بن مهران يا أمير المؤمنين؟ قال: أو ميمون بن مهران؟ «**إني أوصيك بوصية فاحفظها، إياك أن تخلو بامرأة غير ذات محرم وإن حدثتك نفسك أن تعلمها القرآن**»[٣].

وفي ظل التأثير والتأثر بين أمير المؤمنين وميمون: نجد أن هذه

---

(١) انظر «المعرفة والتاريخ»: (١/ ٦٠٠).
(٢) «السير»: (٥/ ١٣٧).
(٣) «الحلية»: (٥/ ٢٧١ ـ ٢٧٢).

الوصية من عمر لميمون باتت واحدة من عدة وصايا يوصي بها ميمون إخوانه والآخذين عنه؛ فعن معمر بن سليمان، عن فرات بن السائب، عن ميمون قال: «**ثلاث لا تبلونَّ نفسك بهنَّ: لا تدخل على السلطان وإن قلت آمره بطاعة الله، ولا تصغين بسمعك إلى هوى، فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك منه، ولا تدخل على امرأة** ـ يعني غير ذات محرم ـ **ولو قلت أعلمها كتاب الله**»[١].

وحدَّث أبو المليح سمع ميموناً يقول: «**لأن أوتمن على بيت مال أحبُّ إليَّ من أن أوتمنَ على امرأة**»[٢].

والحقُّ أن استعداد أبي أيوب ـ وهو من هو في التابعين علماً وفضلاً واتقاءً لله وحرصاً على وضع الأمور مواضعها ـ للتأثر بما كان عليه خامس الراشدين، من غزارة العلم، ورجاحة العقل، وعلو الهمة في الصلاح والإصلاح، ونورانية السلوك، وشدة الورع في دقيق الأمور وجليلها. . . هذا الاستعداد يشهد له ما كان عليه ـ مع شدة حبه لعمر ـ من عظيم تقديره له، وبالغ وثوقه بنهجه المتميز الفريد يومذاك، واتزانه الواضح في تقويم شخصيته التي كانت تواجه ما تواجه من الأعباء الجسام. انظر إليه يختصر الحديث عن هذا الموروث العظيم في تاريخنا من حياة هذا الإمام الرباني التي جادت بالوافر من العطاء الكبير فيقول: «**إن الله كان يتعاهد الناس بنبي بعد نبي، وإن الله تعاهد الناس بعمر بن عبدالعزيز**»[٣].

---

(١) انظر «السير»: (٥/ ٧٧).
(٢) المصدر نفسه: (٥/ ٧٧).
(٣) انظر «سير أعلام النبلاء»: (٥/ ١٢٧) «الحلية»: (٥/ ٣٣٩).

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الخليفة الراشد لم تزد مدة خلافته التي ازدانت بجلائل الأعمال العظيمة المذكورة في التاريخ على سنتين وخمسة أشهر وأيام، وتوفي ـ يوم توفي ـ وله تسع وثلاثون سنة ونصف، وذلك يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومائة للهجرة. أنزل الله عليه شآبيب رحمته، وأجزل مثوبته يوم اللقاء، وأظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله في الأئمة العدول المخلَصين، والعلماء الربانيين العاملين، والشهداء الأحياء المرزقوين، ورزق المسلمين حسن الانتفاع بسيرته المشرقة بفضائل وكمالات أولي الهمم المقرَّبين.

ويقتضينا الإنصاف والرغبة في الانتفاع بكلام علمائنا السابقين أن نثبت هنا مقالة الإمام الذهبي أكرم الله مثواه وهو يترجم لهذا العَلَم من عظمائنا الأفذاذ وما كان له من حسن الأحدوثة في التاريخ!

ذلكم قوله هناك: «قلت: قد كان هذا الرجل حسن الخَلْق والخُلُق، كامل العقل، حسنَ السمتِ، جيِّدَ السياسية، حريصاً على العدل بكل ممكن، وافرَ العلم، فقيهَ النفس، ظاهرَ الذكاء والفهم، أوَّاهاً مُنيباً، قانتاً لله، حنيفاً زاهداً مع الخلافة، ناطقاً بالحق مع قلة المعين، وكثرة الأمراء الظلمة الذين ملُّوه وكرهوا محاققته لهم، ونقصَه أُعطياتهم، وأخذَه كثيراً مما في أيديهم، مما أخذوه بغير حقٍّ، فما زالوا به حتى سقوه السُّمَّ، فحصلت له الشهادة والسعادة، وعُدَّ عند أهل العلم من الخلفاء الراشدين، والعلماء العاملين»[1].

---

(١) المصدر نفسه: (٥/ ١٢٠).

وما أكثر ما نقع عليه من شهادات الجهابذة الكرام التي يتأيَّد بها كلام الذهبي وضربائه في هذا الباب. يقول مكحول رحمه الله: «**لو حلفت لصدقت، ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر بن عبد العزيز**»[١].

بقي أن أقول: إن قلم الإمام الذهبي لم يدع بعد الكلام على ميمون بن مهران الذي استغرق بضع صفحات من كتابه «السير» وتكررت فيه كلمة «ميمون» أن يستطرد استطراداً نافعاً فيأتي على واقعة فيها ذكرُ أم المؤمنين ميمونة بنتِ الحارث الهلالية، زوج النبي ﷺ وأخت أم الفضل زوجة العباس، وخالة خالد بن الوليد، وخالة ابن عباس رضي الله عنها، وفيها موعظة بليغة لابن أختها يزيد بن الأصم من عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها[٢].

جاء هناك: الحارث بن أبي أسامة قال: حدثنا كثير بن هشام قال: حدثنا جعفر بن بُرقانَ، قال: حدثنا يزيد بن الأصم قال: لقيت عائشة رضي الله عنها مقبلةً من مكة، أنا وابن لطلحة ـ وهو ابن أختها ـ وقد كنا وقعنا في حائط من حيطان المدينة، فأصبنا منه، فبلغها ذلك، فأقبلت على ابن أختها تلومه وتعزله، ثم وعظتني موعظة بليغة ثم قالت: «**أما علمتَ أن الله ساقك حتى جعلك في بيت نبيه؛ ذهبَتْ والله ميمونة، ورُمي برسنك على غاربك، أما إنها كانت من أتقانا لله عز وجل، وأوصلنا للرحم**».

ثم قال الذهبي: جرى القلم بكتابة هذا هنا. ويزيد بن الأصم من

---

(١) المصدر نفسه: (٥/ ١٣٧).

(٢) انظر «السير»: (٢/ ٢٣٨).

فضلاء التابعين بالرقة[١].

والذي عند ابن سعد في «الطبقات» والحاكم في «المستدرك» (ورمي بحبلك على غاربك»[٢]. والمعنى واحد.

جاء في «النهاية» لابن الأثير: (ومنه حديث عائشة رضي الله عنها «قالت ليزيد بن الأصم: رُمي برسنك على غاربك» أي خُلِّي سبيلك، فليس لك أحد يمنعك عما تريد، تشبيهاً بالبعير يوضع زمامه على ظهره ويُطلق يسرح أين أراد في المرعى.

ومنه الحديث في كنايات الطلاق: «حبلك على غاربك» أي أنت مرسلة مطلقة غير مشدودة ولا ممسكة بعقد النكاح.

هذا: ويبدو أن مما ساعد على الاستطراد عند الذهبي: أن ميموناً تعدّدت رواياته عن ميمونة رضي الله عنها وبعضها عن طريق يزيد بن الأصم من ذلك ما جاء في «الطبقات» لابن سعد: أخبرنا الفضل بن دكين قال: حدثنا جعفر بن بُرقان عن ميمون بن مهران قال: كنت جالساً عند عطاء، فجاءه رجل فقال: هل يتزوج المحرم؟ فقال عطاء: ما حرَّم الله النكاح مذ أحلّه. قال ميمون: فقلت: إن عمر بن عبدالعزيز كتب إليَّ - وميمون على أرض الجزيرة - أن سل يزيد بن الأصم أكان رسول الله ﷺ يوم تزوج ميمونة حلالاً أو حراماً. قال: فقال ميمون: فقال يزيد بن الأصم. تزوجها وهو

---

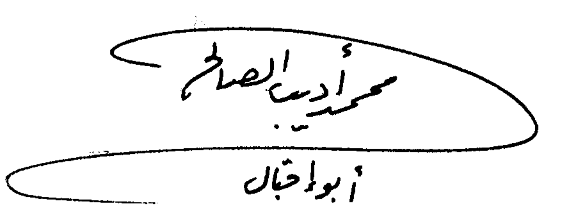
(١) المصدر السابق: (٥/ ٧٨).

(٢) «الطبقات الكبرى»: (٨/ ١٣٨) «المستدرك» للحاكم النيسابوري: (٤/ ٣٢): وانظر «الحلية»: (٤/ ٩٧).

حلال وكانت ميمونة خالة يزيد بن الأصم. قال عطاء: ما كنا نأخذ هذا إلا عن ميمونة، وكنا نسمع أن رسول الله ﷺ تزوجها وهو محرم[١].

وفي خاتمة المطاف بعد رحلتنا المتواضعة مع هذه الكوكبة من الربانيين ـ وفي مقدمتهم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ـ جزاهم الله بما قدَّموا للأمة كل خير: أحمد الله تبارك وتعالى على ما منَّ به وتفضَّل، وأشكر الشاعرة ذات الهمة العالية بنتي مؤمنة ـ أم معتصم ـ على ما بذلت من جهد طيب في صنع الفهارس لهذا الكتاب والمعاونة في تصحيح ملازم الطباعة، سائلاً المولى عز وجل لها ولأهل بيتها جميعاً مزيداً من العون والتوفيق في طاعته سبحانه.

وصلى الله وسلم وبارك على الرحمة المهداة سيدنا ونبينا محمد بن عبد الله وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحابته الكرام المجاهدين ومن تبعهم بإحسان، واستنار بهديهم إلى يوم الدين.



* * *

(١) انظر «الطبقات الكبرى»: (٨/ ١٣٤).



الفهـــارس

أولاً: فهرس الآيات القرآنية.

ثانياً: فهرس الأحاديث القدسية والنبوية.

ثالثاً: فهرس الآثار والأقـــوال.

رابعاً: فهرس الأعـــــلام.

خامساً: فهرس الموضوعات.

أولاً: فهرس الآيات

الآية	رقمها	الصفحة
سورة الرحمن		
هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ	٦٠	١٢٢
سورة الحديد		
۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ	١٦	٢٤٢
سورة الحشر		
وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟	٧	١٩٦، ١٩٧
سورة الصف		
كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ	٣	٢٠٠
سورة الجمعة		
هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ	٢-٣	٩، ١٨٢
سورة الملك		
فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟	٢٧	٥٥
سورة القلم		
وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ	٤	٢٩٥
سورة النازعات		
وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ	٤٠-٤١	١٣٤
سورة المطففين		
يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ	٦	٣٠٩
سورة الفجر		
وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا . . .	٢٢-٢٣	٢٤٩
سورة الشمس		
قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا	٩-١٠	٢٤٧



ثانياً : فهرس الأحاديث القدسية والنبوية



ثالثاً: فهرس الآثار والأقوال

الأثر	القائل	الصفحة
إذا أتى رجل باب السلطان فاحتجب	ميمون بن مهران	٣٨٠ـ ٣٨١
إذا أحدث الله لك علماً (لأيوب)	أبوقلابة	٣٢٣
إذا بلغك اختلاف عن النبي	أيوب السختياني	٣١١
إذا ثبتت المروءة فلا بأس	ميمون بن مهران	٣٨٤
إذا جاء العلم من الحجاز عن الزهري	سليمان بن موسى	٣٧٠
إذا حدثت الرجل بالسنة فقال	أبوقلابة	٣٢٦
إذا ذكر الصالحون كنت عنهم بمعزل	أيوب السختياني	٢٨٤
إذا ذهب هذا وضرباؤه (عن ميمون)	عمر بن عبدالعزيز	٣٤٤ـ ٣٧٠
إذا رأيت المتكلم المبتدع يقول	الإمام الذهبي	٣٢٦
إذا سمعت الله يقول: يا أيها الذين آمنوا	عبدالله بن مسعود	١٥٣
إذا كان الرجل عالماً معلماً	ثعلب	٤٠
إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون	أيوب السختياني	٣٠٣
إذا نزل بك ضيف فلا تكلف له	ميمون بن مهران	٣٨٤ـ ٣٨٥
أراد به احتقاره	ابن الأثير	٢١١
أراك تتحرى لقاء العراقيين	أيوب بن سليمان بن بلال	٢٩٨
أرى قوماً يجترؤون على أن يفتوا	محمد بن سيرين	٣٣٧
أريد أن تكتب اسمي في البساط الذي تحتك	عيسى بن ثابت العابد	٣٠
أريدوا بهذا الخير الله تنالوه	الربيع بن خثيم	٢٤٦
أشد الناس غفلة من اغتر بحياته الفانية	يحيى بن معاذ	٣٥٤
أصبحنا ضعفاء مذنبيين نأكل..	الربيع بن خثيم	٢٣٣
أطيلوا كرَّ الحديث لا يدرس	علقمة بن قيس	٢٦٨
أعندكم عذاء. فإن لم يجد قال..	أبوالدرداء	٣٢٥
أفادت الآية أن الإنسان يكون ربانياً	محمد عبده	٢٧ـ ٢٨

رابعاً: فهرس الأعــــلام



فهرس الموضوعات

❊ ❊ ❊

مـن آثــار المؤلـــف

- **تفسير النصوص في الفقه الإسلامي**

دراسة مقارنة لمناهج العلماء في استنباط الأحكام من نصوص الكتاب والسنة والكشف عما يترتب على الاختلاف في القواعد الأصولية من اختلاف في الفروع (مجلدان).

- **تخريج الفروع على الأصول** للإمام شهاب الدين الزنجاني (تحقيق).
- **مصادر التشريع الإسلامي ومناهج الاستنباط**
- **على الطريق:** مجموعة بحوث ومقالات.
- **مع الجامع لأحكام القرآن:** للقرطبي.

دراسة تحليلية موثقة لمجموعة كبيرة من نصوص هذا الكتاب، مع ترجمة مركّزة للإمام القرطبي، وعرض لمنهجه في التفسير.

- **اليهود في القرآن والسنة ـ بعض من خلائقهم** (٤ أجزاء).
- **القيامة ـ مشاهدها وعظاتها في السنة النبوية** (٣ مجلدات).
- **التقوى في هدي الكتاب والسنة وسير الصالحين** (جزءان في مجلد، والمجلد الثاني بجزأيه الثالث والرابع من هذا الكتاب وشيك الصدور).
- **لمحات في أصول الحديث مع نبذة عن تاريخ السنة المشرفة.**
- **كتاب التربية الإسلامية:** للصف الثاني ثانوي بعمان ـ بالاشتراك ـ

تحـــت الطبـــع

- **من ذاكرة القلم:** مجموعة كبيرة من افتتاحيات مجلة «حضارة الإسلام» بقلم المؤلف.
- **تخريج أحاديث البزدوي:** للقاسم بن قطلوبغا. (تحقيق).
- **هكذا يعلم الربانيون:** كتبت أصوله تحت ركن في مجلة «حضارة الإسلام» بهذا الاسم.

توزيع

مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان

الرياض : ١١٤٣١ - ص ب : ١٤٠٥

الرياض : ٤٠٢٢٥٦٤ فاكس : ٤٠٢٣٠٧٦ - جدة : ٦٥٤٩٣٢١

الدمام : ٨٤١٦٠٦٤ - المدينة : ٨٤٠١٦٩٣ - القصيم : ٣٦٤٤٣٦٦